المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
مديرية الشؤون الاسلامية

الدروس الحسنية

نص المحاضرات التي ألقيت في التفسير والحديث بحضرة
صاحب الجلالة والمهابة الملك المعظم أمير المومنين مولانا
[illegible] نصره الله وأيده، في شهر رمضان المبارك
عام 1395 هجري

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
مديرية الشؤون الاسلامية

الدروس الحسنية

المعلمي

نص المحاضرات التي ألقيت في التفسير والحديث بحضرة صاحب الجلالة والمهابة الملك المعظم أمير المومنين مولانا الحسن الثاني نصره الله وأيده، في شهر رمضان المبارك

عام 1395 هجري



مقدمة

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آلــه وصحبــه

وتستمر سلسلة المفاخر الحسنية تتوالى واحدة اثر أخرى، وهي تتألق سنى وسناء ، تضيء طريق الامة المغربية الابية كي لا تزل أو تضل او تعثر ، بل هي آمنة مطمئنة فى ظعنها واقامتها ، يشق سبيلها ، ويرفع راية مسيرتها الامام الملهـم أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أعز الله أمره ، وهي سبيل قائمة على الحق وبالحق ، تبلغ بها أمتنا كمال مجدها ، وربيع عزها وسيادتها، تتقلب فيها من نصر الى نصر ، ومن مجد وعز الى سؤدد ومنعة ، وها هو الزمن وخلوده ، والتاريخ وجنوده يتقدمان بانحناء الاكبار والاجلال لهذه المفاخر التي تجدد للتاريخ شرخ الشباب ، ولخلود الزمن النشوة والزهو والاعجاب فاذا هما بهذه العظائم الحسنية يحملان أرفع الاوسمة ويتقلدان أعظم مكرمة .

وتـــتـجـــاوب فى اركـــان الـــدنـــيـــا اصـــداء الامان والاطمئنـــان ، التـــي تـــعـــيـــد لـــلـــخـــائـــفـــين سكينـــتهـــم وللمرتاعين والشاردين آمال الامن والدعة والاقبال على الحياة ، هذه الاصداء التي رددتها البشرية تجاوبا مع نشيد (مسيرة ربيع عمر البشرية) المسيرة الخضراء الحسنية ، فاذا الناس كل الناس ـ ناهيك بالامة المغربية ـ وقوفا يهتفون : أمل ، أيها الحســـن

العظيم ، فالقلوب لقولك مفتوحة ، والآذان سامعـــة ، واننا فى ركابك سائرون ، وفى مسيرتك الظافرة التي تظللها كلمة الحـــق الخالدة جنود متطوعون .

وتستمد العبقرية الحسنية ضياءها وأبعادها من نور وحي السماء فاذا هي أرجوزة العصر المدوية ، وأهازيـــج الاجيـــال المتعاقبة تمهد السبيل وتوطد القلوب للبعث الاسلامي المحتوم ، الذي فجر طاقته ، ودفع عجلته أمير المؤمنين وفق الله خطاه .

وان هذه الدروس التي نقدمها ، والتي ألقيت بين يـــدي جلالة الملك نصره الله خلال شهر رمضان المنصرم ، ما هـــي الا قبس وهاج فى رحاب هذا الطريق اللاحب طريق البعث الاسلامي، الذي يعيد للانسان فى ظلاله كرامته ، وانسانيته ، ويعطي للدين، مكانته فى المجتمع وهيمنته .

وهذه الميزة الحسنية الفريدة فى دنيا المسلمين ، لم يرد لها سيدنا المنصور بالله ان تكون مقصورة على القطر المغربي ، بل أرادها أن تكون غير شرقية ولا غربية ، يعم نورها آفاق المسلمين ليستيقن الذين آمنوا أن العناية السامية لامير المؤمنين تحـــف المسلمين جميعا أينما كانوا وكيفما كانوا ، فأصبحت ترى فى سماء الدروس الحسنية نجوما مختلفة الاصقاع والبقاع تتلألأ وتتعاون لتكشف عن حقيقة الاسلام وعظمة شريعته الخالدة ، وهي قبـــل هذا كله وبعده ، تستمد نضرتها وهيبتها من هيبة أمير المؤمنين حامي حمى الملة والدين .

وان هذه الدروس لفيض خير جار ترفده فى كل عام ، وفى شهر القرآن والصيام روافد جديدة ، فيسير مع المسلمين يروى ظمأهم ، ويشفي أسقامهم وأمراضهم ويطهرهم من أدران الحياة الصاخبة ، ومشاكلها المعقدة ويزيدهم قوة على قوة وعزيمة الى عزيمة ، وان من يسعده الحظ فيعيش مع الامة المغربية رياض

الدروس الحسنية فى شهر الصيام والعبادة يعرف كيف تتحول هذه الربوع الى واحة سعادة ، وروضة هدى ، وايمان .

ونظرة فى هذه الدروس المباركة تريك كيف ضمت فى جوانبها التليد والطارف فى عالم الفكر والحياة ، من تفسير لكتاب الله وتجلية معانيه ، الى شرح لحديث رسول الله عليه أزكى الصلاة والسلام ، الى بيان فقه الحياة والواقع ، ومنها الى وضع كثير من المفاهيم موضوعها الصحيح وزنتها بميزان الاسلام ومقارنتها بغيره وهذه وتلك ترمي الى غرض واحد وهدف واضح هو تبصير المسلمين بحقيقة دينهم ووضعهم أمام المنهج الامثل ، والسبيل الاقوم ، للنهوض بهم والرفع من شأنهم ، وتقديم الحلول الناجعة لما يعترض سبيلهم من مشاكل وأحداث على ضوء كتاب الله وسنة رسول الله ، وتعريف الناس جميعا برحمة الاسلام وسماحته .

حفظ الله مولانا أمير المؤمنين الحسن الثاني فخر الدولة العلوية الشريفة ، ومجدد شبابها ، وأمد الله فى عمره وأدام نصر رايته وجنده ، وأقر عينه بسمو ولي عهده المحبوب ، الامير الجليل سيدي محمد ، وصنوه سمو الامير مولاي رشيد ، وكافة أفراد الاسرة المالكة الشريفة انه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الداي ولد سيدي بابا
وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية



الدرس الأول

4 رمضان المبارك 1395

موضوعه:

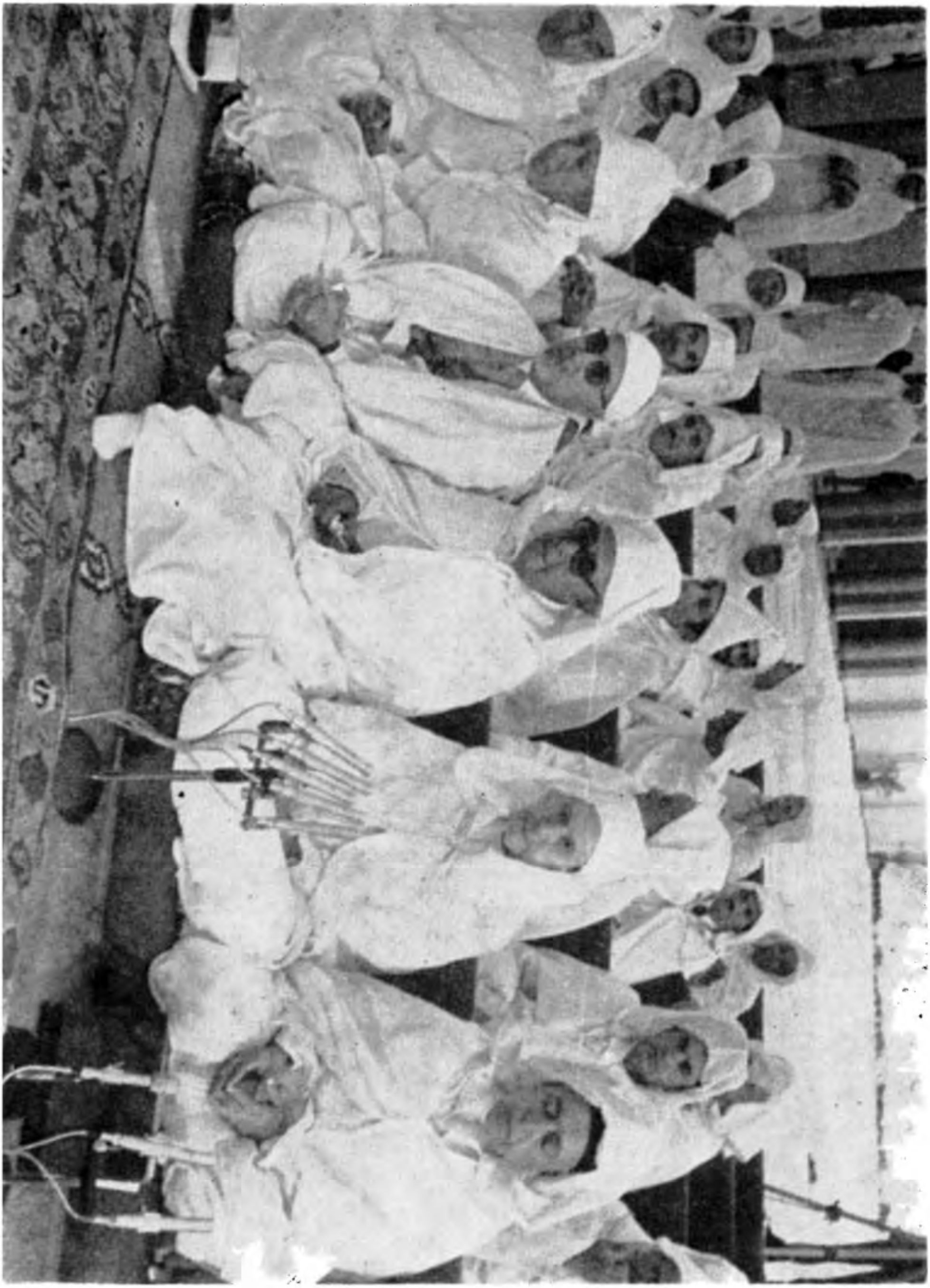
معجزة القرآن الكريم

"ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ..."

الحديث

ألقاه:

العلامة الأستاذ عبد الله كنون
أمين رابطة العلماء بالمغرب



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبى المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . اما بعد : فان اصدق الحديث كتاب الله عز وجل ، وافضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة .

وما شرب الايمان الا فؤاد من بأخبار خير الخلق قد ملأ الاذنا

* * *

وهل يترك الانسان عذرا وحجة اذا قال قلدت النبى محمدا

وروينا بالسند المتصل الى الشيخ الامام الحافظ الحجة ابى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى رحمه الله تعالى ورضى عنه قال فى كتاب فضائل القرآن : الباب الاول ــ الحديث الرابع ــ حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثنا سعيد المقبرى عن ابيه عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما من الانبياء ... الحديث .

الدرس الذى نفتتح به هذه الدروس المباركة عن الامر المولوى اسماه الله يتعلق بالحديث الصحيح الذى ورد فى معجزة القرآن الباقية والمستمرة على مدى العصور والازمان ، وسنقتصر فى شرحه على ثلاثة مباحث : المبحث الاول : فى تخريجه وسنده .

والمبحث الثانى : فى تحليل الفاظه وما اشتمل عليه من نكــات بلاغيـــة دقيقـــة .

والمبحث الثالث : فى معناه الذى هو معجزة عظيمة للناطق به ، سيدنا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وشرف وكــرم ومجــد وعـــظـــم .

خرج هذا الحديث الامام البخاري فى موضعين من صحيحــــه ، فى كتاب (فضائل القرآن) ، وفى كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) واخرجه الامام مسلم فى كتاب (الايمـــان) واخرجه الامام احمــد فى مسند ابى هريرة وقال الحافــظ القسطلانى : اخرجـــه النسائى فى تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن ، والامام البخارى على عادته رواه فى كتاب فضائل القرآن عن احد اشياخه ، وفى كتاب الاعتصام عن شيخ آخر ، والامام مسلم اخرجه عن شيخ ثالث ، والامام احمد اخرجه عن شيخين . لكن الجميع يتصل بالليث والليث يتصل بسعيد ابن ابى سعيد المقبرى الذي يرويه عن ابيه عن ابى هريــــرة . فمدار هذا الحديث فيما وقفنا عليه من الصحابة على ابى هريـــرة ، ومن بعده فى التابعين على ابى سعيد المقبرى وابنـــه سعيـــد وكلاهما من التابعين ومن بعدهما على الامام الليث ثم بعد ذلك تفرع وانتشر على يد مشايخ البخارى والامام احمد والامام مسلم ، فالبخارى هنا رواه عن عبد الله بن يوسف التنيسى العدل الثقـــة الذى هو من اثبـــت الناس او اثبت الناس فى الموطأ كما عرفوه ، ورواه فى كتاب الاعتصام عن عبد العزيز بن عبد الله الاويسى ، والامام مسلم رواه عن قتيـــبة ابن سعيد عن الليث أيضا ، واحمد عن يونس وحجاج عن الليـــث ثـــم الليث عند الجميع يرويه عن سعيد بن ابى سعيد وابو سعيد يرويـــه عـــن ابـــى هــريـــرة .

فهو بهذا من احاديث الافراد أو ما يسمى فى الاصطلاح بالغريب

وما روى اثنان يسمى بالعزيز   وما روى الواحد بالغريب ميز (1)

نظيره فى ذلك حديث انما الاعمال بالنيات الذى افتتح به البخارى رحمه الله جامعه الصحيح ، فانه يدور فى الصحابة على عمر بن الخطاب وفى التابعين على علقمة الذى روى عن عمر ، وعلى محمد ابن ابراهيم التيمى التابعى ايضا الذى روى عن علقمة ، وعلى يحيى ابن سعيد الانصاري من أتباع التابعين أيضا الذي رواه عن محمد بن ابراهيم التيمى ثم بعد ذلك تفرع ، رواه عنه سفيان وغيره ، وسفيان رواه عنه الحميدى شيخ البخارى وهكذا ، فهو ايضا غريب .

ومن المعلوم ان الغرابة لا تنافى الصحة فيكون الحديث صحيحا وهو غريب ، غاية الامر ان روايته ثابتة من طريق افراد ، كما ان ما يثبت برواية راويين يسمى عزيزا هذا يسمى غريبا ، وكما يكون الغريب فى الصحيح يكون فى الحسن ، ناهيك بأن هذا الحديث كما رأينا رواه الامام البخارى فى موضعين بسندين بالنسبة لشيخيه وكذلك مسلم وكذلك الامام احمد فهو من الصحة بمكان ، بل اجتمعت فيه شروط البخارى التى هى أدق واضبط الشروط ، حيث قال حدثنا عبد الله بن يوسف : حدثنا الليث وناهيك بالليث فهو الامام الليث بن سعد امام اهل مصر ونظير الامام مالك فى العلم والفقه بل قال الشافعى فيه : الليث افقه من مالك الا ان قومه ضيعوه . والليث روى عن سعيد بن ابى سعيد المقبرى ، وسعيد بن ابى سعيد روى عن ابيه وكلاهما من التابعين ومن علماء التابعين الاجلة الثقات ، ناهيك ان سعيد بن ابى سعيد يروى عن ابى هريرة مباشرة ، ويروى عن ابيه ، فالاحاديث التى يرويها عن ابى هريرة مباشرة يرويها مباشرة والاحاديث التى يرويها بواسطة ابيه يرويها بواسطة ابيه ، ولا يدلس ، ولا يقول عن ابى هريرة ، وكفى بذلك ضبطا وتحريا ،

(1) ماض مبني للمجهول .

والعنعنة فى الحديث لما وصلت الى سعيد وابيه ليست مما يخل بشرط البخارى لان سعيدا ووالده كلاهما متعاصران ولقى احدهما الآخر وكلاهما ايضا معاصر لابى هريرة ولقياه ورويا عنه ، فثبتت المعاصرة واللقى والتحديث وصيغة التحمل بحدثنا التى هى اعلى الصيغ فلم يبق حول هذا الحديث اى شبهة .

اما ابو هريرة وناهيك به فهو الصحابى الجليل ، والصحابة كلهم عدول عندنا معشر اهل السنة ولكن بما أن ابا هريرة رضى الله عنه قد تعرض لبعض الطعن والتجريح فيما سبق وفى العصر الحاضر من بعض خصوم الاسلام واذنابهم ، فاننا نحب ان نقف وقفة قصيرة عند ترجمته رضى الله عنه ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولا سيما فى هذا المجلس الحسنى الشريف ، فأبو هريرة رضى الله عنه يسمى عبد الله على القول الصحيح كما روى عنه ابن خزيمة بسند صححه ابن حجر او عبد الرحمان كما رواه ابن اسحاق فى المغازى وفى اسمه اقوال عديدة بلغت الى ثلاثين ونيف ، لكن هذا اى عبد الله اصحها ، وعبد الرحمان اشهرها ، وكان اسمه فى الجاهلية عبد شمس ، اما كنيته التى طغت على اسمه حتى تنوسي اسمه فهى ابو هريرة وسببها انه راى هرة صغيرة فى الطريق فحملها فى كمه ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم فكناه بها ، وقد اسلم سنة سبع للهجرة ، ومات سنة تسع وخمسين من الهجرة عن سن تبلغ ثمانية وسبعين عاما ، واهم ما اشتهر به ، واعظم مناقبه انه حافظ السنة وراوية الحديث الذى لا يشق له غبار والذى لم يرو احد ما رواه ، فهو احد المكثرين بل هو الذى يأتى فى اول قائمة المكثرين والمكثرون من المحدثين هم افراد من الصحابة روى كل واحد منهم عن النبى صلى الله عليه وسلم اكثر من الف حديث وهم ابو هريرة طبعا ، ويأتى فى راس القائمة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله وانس بن مالك وعائشة وابو سعيد الخدرى ، واليهم اشار بعضهم بقوله :

سبـــع من الصحب فوق الالـــف قـــد نقلـــوا
مـــن الحـــديـــث عن المخـــتـــار خير مـــضر

ابـــو هـــريـــرة ســـعـــد جـــابـــر انـــــس
صديقهـــم وابن عبـــاس كـــذا ابـــن عمـــر

وان كان فيما ذكره هذا الناظم من الصديق نظـــر لان الصديق رضى الله عنه لم يرو عنه على الاصح الا مائة واربعون حديثا لانه مـــات قبل أن يعنى الناس بالحديث ، ويكثر طلبه ويدون ، وكذلـــك بقيـــة كبار الصحابة ، فلعل فى البيت تحريفا واصله :

ابو هريرة سعد جابـــر انـــس   صديقة وابن عباس كذا ابن عمر

اما ابو هريرة وناهيك به فان مرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم كما قال الحافظ بقي بن مخلد فى مسنده : بلـــغ خمســـة آلاف وثلاثة مائة حديث واربعة وسبعين حديثا له منها فى الصحيحين 609 وفى المسند نيف و 4000 . فهذا الرقم الضخم لم يرو لاحد من الصحابة بل لم يرو لجمع من الصحابة ولعدد منهم مجتمعين ، وهذا ما اثـــار حفيظة الناس عليه عن طريق المنافسة من الذين لا يمكن أن نصفهـــم الا بالمنافسة فقط ، وعن طريـــق البغض والكراهيـــة للاسلام ولمـــا رواه مما يهدم اقوالهم وآراءهم ومذاهبهم ، فأما فى حياته فان بعض الصحابة كانوا يستكثرون عليه هذه الروايات الكثيرة وهذه الاحاديث العديدة ، حتى بلغه ذلك فقال كما فى الصحيح : ان الناس يزعمون ان ابا هريرة يكثر الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله الموعد ، اى والله الموعود بيني وبينهم واني كنت رجلا مسكينا الزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى وان اخوانى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق أى البيـــع والشراء اى كانوا تجارا ؛ وان اخوانى من الانصار كان يشغلهـــم القيـــام علـــى اموالهم يعنى ضيعاتهم لانهم كانوا فلاحين ، وانى شهدت رســـــول الله (ص) ذات يوم ، وقال من يبسط رداءه حتى اقضى مقالتى ثـــم

يقبضه لن ينسى شيئا سمعه منى ابدا ، فبسطت بردة كانت علي ثم ضممتها فو الذى بعثه بالحق لم أنس شيئا سمعته من قبل ، وعائشة رضى الله عنها ، اشتبهت فى هاته الاحاديث الذى يرويها ، وقالت : هل حضر الا ما حضرنا وسمع الا ما سمعنا ، فأجابها بجواب لا نحب أن نذكره هنا ، لكنها بعثت ابن اختها عروة ابن الزبير فسأله عن بعض الاحاديث ثم بعد ذلك بمدة بعثت تستفسره عن هذه الاحاديث ايضا بالواسطة فحدث بها كما حدث بها أول مرة ، فقالت : حفظ ابو هريرة ونسينا وناهيك بها ، بل ان كثيرا من الصحابة احتاجوا اليه والى ما يرويه بعد فشو الاسلام وطلب العلم والحرص على السنة والرغبة فى تدوينها فروي عنه فيما يقول الحاكم ثمانية وعشرون من الصحابة أحاديث لم يرووها عن النبى (ص) منهم زيد بن ثابت وناهيك به ومنهم ابى بن كعب ، ومنهم عائشة نفسها ومنهم جابر ومنهم انس ومنهم المسور بن مخرمة ، ومنهم ابو الطفيل ومنهم ابو نضرة . . وغيرهم فرواية كبار الصحابة عنه رضى الله عنه تشهد له بالحفظ والضبط والثقة ولكن نشأ فى صدر الاسلام ناشئة ابتدعت بدعا وأتت بمذاهب ينكرها الاسلام ، وكانت الاحاديث التى تروى عن ابى هريرة رضى الله عنه هى التى يرد بها عليهم فلذلك نجد الحافظ ابا بكر بن خزيمة يقول : لا يبغض ابا هريرة ولا يتكلم فيه الا جهمي معطل او قدرى معتزل او خارجى يحمل السيف على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويحقن دماء الذميين ولا يرى طاعة امام ولا خليفة لان ما رواه ابو هريرة كله مما يرد به على هؤلاء .

وبعد مضى الزمن وانتهاء هذه الطوائف والفرق خلصت هذه الاقوال لبعض المستشرقين المغرضين مثل جولد زهير وغيره فتحامل على ابى هريرة ووصمه بالوضع وبالكذب وطعن فيما رواه وتلقى هذه الاقوال بعض الكتاب من العرب الذين يسبحون فى فلك هؤلاء المستشرقين ولا يكلفون نفسهم البحث فى المصادر التي بين أيديهم والتي منها اخذ المستشرقون ، اخذوا منها الجانب المظلم وتركوا الجانب المضىء ، فكتب فى أبى هريرة كتابا كله طعن وتجريح ونحن نقول لهذا الكاتب : انه بعد رواية الصحابة عن ابى هريرة وتزكيتهم له قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وننشد ما قاله الشاعر :

اذا رضيت عني كـــرام عشيرتـــي   فلا زال غضبانا على لئامهـــا

هذا هو أبو هريرة راوى هذا الحديث الذى هو من أجل الاحاديث التى تبرز معجزة النبى صلى الله عليه وسلم الكبرى الى جانب معجزاته الاخــــرى .

فقوله صلى الله عليه وسلم ما من الانبياء نبـــي : هذه صيغـــة تفيد العموم بتركيبها على المعروف عند النحاة من ان النكرة اذا وقعت فى سياق النفى فهى للعموم فلفظ نبى هنا جاء نكرة بعد نفـــي فافـــاد ان كل واحد من الانبياء أعطى ما مثله آمن عليه البشر وما هنـــا هى المفعول الثانى لأعطى ومثله مبتدأ وآمن هو الخبر والجملة صلـــــة ما أى اعطى الامر الخارق للعادة الذى نعبر عنه بالمعجزة الذى آمن عليه نفسه او على مثله البشر الذين شاهدوه وكذلك هي المعجـــــزة لا يبقى لمن شاهدها معارضة ولا يستطيع معها الا أن يذعن ويسلم ويؤمن بالنبى الذى أتى بها الا من آمن واستكبـــر كما قـــال تعالـــى « وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا » وأما فى باطنه فانه لا يمكن أن يستنكر فعالية تلك المعجزة ، ودلالتها على صدق الرسول او النبى الذى أتى بها ، وفى الحديث دليل على أن كل نبى نبى أوتى معجزة سواء كان رسولا أو لم يكن رسولا ، وهو أمـــر معقـــول لان احدا لا يصدقه فى قوله انه نبى مخبر عن الله ولو بالشرع الذى كان قبله الا اذا أتى بمعجزة وهاهنا أشكال وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم : (ما مثله آمن عليه البشر) تخبـــط بعض الشراح فى ذلك ، فقالوا : ان ، مثل هنا واقعة موقع الشيء الذى آمـــن عليه نفســـه البشر ، فمثله بمعنى المعجزة نفسها ، وقال آخرون : ما مثله آمـــن عليه البشر ، اى ما كان معجزة لنبى سابق واوتيها أيضا النبى اللاحق فكان أن آمن عليه البشر فيما سبق ، وآمن عليه البشر فيما لحق .

وقال آخرون : ما مثله آمن عليه البشر اى مـــا كان يمكـــن ان يكون له تمثيل وتخييل من المدعوين أو غيرهم ولكنه مع ذلك آمـــــن عليه البشر بعد وقوفهم على انه ليس من قبيل التمثيل والتخيـــيـــل ، اما ما أوتيه النبى صلى الله عليه وسلم ، فليس مما يتعرض للتمثيل ولا للتشبيه لانه وحي يوحي . . . الـــخ .

وهذا كله ناشىء عن الغفلة عن دقيقة بيانية فى هذا التعبير وهى من البلاغة بمكان ، لان العرب تعبر بالمثل وتريد ذات الشىء نقول الآن : انا على مثل اليقين واقصد بذلك : انا على يقين تام ، وانما نقول على مثل اليقين للتأكيد على اني على تمام اليقين ، فالزيادة هنا للتأكيد ، وهكذا كما فى قوله تعالى : ليس كمثله شىء ، فان النحاة قالوا : الكاف هنا زائدة ، والتقدير ليس مثله شىء . كما يقول ابن مالك : شبه بكاف وبها التعليل قد يعني وزائدا لتوكيد ورد لكن المتكلمين والمفسرين وعلماء البلاغة لم يقولوا بزيادتها وقالوا انها اصلية هنا والكلام خارج مخرج الكناية والكناية ابلغ من التصريح كما هو معلوم ، فان المقصود انه ليس مثل مثله سبحانه وتعالى شىء ، ومثله تعالى لا يوجد وانما فرضناه للحكم عليه ، والمحال يفرض ، فقلنا ليس مثل مثله شىء ، ونفينا ان يكون لهذا المثل المفروض مثل ، ونفي ان يكون لهذا المثل المفروض مثل هو نفي لذلك المثل نفسه ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء اللازم ، فصار دليلا على انتفاء المماثلة بطريقة تدريجية مركبة وذلك ابلغ فى التعبير وهى المعبر عنها بالكناية ، يقال فلان كثير الرماد كناية عن كونه كريما ، لانه يكثر الطبخ ويكثر الاطعام للضيوف فيكثر رماده فيكون حينئذ كريما ، ويقال فلان طويل النجاد ، معناه انه طويل القامة لان الحمالة تكون على قدر قامة الانسان فلا يحمل الحمالة الطويلة الا اذا كان طويلا ، وهكذا ، وفى التلخيص للقزوينى : ومما يرى تقديمه كاللازم لفظ مثل وغير فى نحو قولك مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود . فقولك مثلك لا يبخل مما تقوله العرب تنفى البخل عن مثل المخاطب الذى قدر كأنه نظير له على وفق صفاته ، فاذا نفي البخل عن مثله فهو منفي عنه قطعا ، والمقصود هو ذلك المخاطب لا المثل ، بدليل قوله : وغيرك لا يجود ، فتعقيبه بعبارة « وغيرك لا يجود » دليل على ان المقصود هو المخاطب . فهذه هى الكناية الموجودة فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما مثله آمن عليه البشر » يعنى ما يومن البشر على مثله فاحرى عليه ، فلذلك تكون كلمة مثل هنا واقعة موقع المبالغة لانها من باب الكناية . واغرب (الأبي) رحمه الله على تحقيقه وعمق فهمه فقال : « ما مثله آمن عليه البشر » ان هذه الآيات كانت من الآيات البينات

الظاهرات اى ما نعبر عنه الآن بالامور المادية المحسوسة فلما رآها الناس لم ينفعهم الا ان يؤمنوا ولم يسعهم الا ان يتبعوا النبى الذى جاء بها بخلاف القرآن فانه ليس كذلك وهو دليل عقلى فلا يؤمن بـه الا القليل من الناس وكون النبى صلى الله عليه وسلم كما سيأتي فى آخر الحديث اكثر الانبياء اتباعا انما ذلك كرامة له من عند الله . وهذا غريب منه فانه لا يوافق سياق الحديث ولا يوافق العبارة المستعملة هنا ، والتى جاءت على طريق الكناية وقلنا انها أبلغ من التصريح .

فالخلاصة ان قوله صلى الله عليه وسلم : ما من الانبياء نبي اى ان كل الانبياء أوتوا معجزات آمن عليها البشر بالقوة وبالغلبة ، وقد اخذنا هذه القوة ، وهذه الغلبة من قوله : ما مثله آمن عليه البشر فان السياق للباء او اللام بحيث يقال ما مثله آمن به البشر او ما مثله آمن له البشر او لاجله البشر لكنه عدل عن الحرفين معا الى على ، فقال : ما مثله آمن عليه البشر ، لان على تفيد الاستعلاء والغلبة فكأنه يقول : آمنوا مرغمين طائعين مضطرين لانهم لم يستطيعوا ان يردوا هذه الآية وهذه المعجزة ، ولا أن يستعصوا عليها ولا أن يتمردوا الا من كان ذلك منه عنادا واستكبارا ، كما قال تعالى « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » فلذلك عبر بعلى ولم يعبر باللام ولا بالباء وهى نكتة بيانية أيضا ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : (وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الي) ، معروف أن انما فى العربية أداة حصر ويقال أيضا أداة قصر ، تحصر الصفة فى الموصوف وتحصر الموصوف فى الصفة على ما هو معروف فى القصر من كونه قصرا حقيقيا او قصرا اضافيا ، قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة ، ثم هو اما قصر افراد او قصر تعيين أو قصر قلب . . . الخ . فانما على كل حال تفيد القصر ، ومعنى القصر هنا أو الحصر : انى لم أوت الا وحيا أوحاه الله الي ، وهذا يخرج المعجزات الاخرى التى أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا ليس بمراد قطعا ، وان تمسك به بعض المغرضين الذين صاروا الآن يستنكفون من ان يثبتوا للنبى صلى الله عليه وسلم معجزات مثل

معجزات الرسل والتى كانت وحدها دليلا على نبوتهم ، ومـا تزال الامم العديدة تؤمن برسالتهم لتلك المعجزات التى أوتوها فنأتى نحن وننفى عن النبى صلى الله عليه وسلم معجـزات من هذا القبيـل . معجزات مادية أوتيها وكانت قوية وواضحة وظاهرة وأدلتها من اقطع واثبت وأصح الادلة فكيف نسكت عنها ، وكيف نؤمن بمعجزات عيسى وموسى وابراهيم عليهم الصلاة والسلام ولا نومن بمعجزة نبـيـنا ، وهؤلاء الكتاب الذين يستنكفون من أن يثبتوا للنبى صلى الله عليـه وسلم هذه المعجزات بل هم فى بعض الاحيان ينكرونها ويستدلون ببعض الآيات التى كان العرب يطلبون فيها من النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فيقول ان الله قادر على أن ينزل آية يقولون انه قادر ولكنه لم ينزلها ، وهذا بهتان عظيـم .

ان النصارى لا يستنكفون ان يذكروا معجزات عيسى ، واليهـود لا يستنكفون أن يذكروا معجزات موسى ونحن نستنكف أن نذكر هذه المعجزات ونقتصر على معجزة القرآن لمن يقتصرون عليها ويستدلون بما تلنا من بعض الآيات التى ظاهرها هذا ، ويأخذون أيضـا هـذا الحديث دليلا على ذلك ، وليس لهم فيه دليل كما سنـبـيـنه .

معجزات النبى صلى الله عليه وسلم المادية من أشهر المعجزات وهى من أثبت المعجزات سندا ، على أن معجزات الانبيـاء السابقين لم تثبت لنا بدليل متصل قطعا كما قال ابن حزم ، فان سند الاديان الاخرى كله منقطع ولا يثبت الا بسندنا نحن ، أى بتزكية القرآن لها ، فلولا ان القرآن ذكرها لما آمنا بها لان ما بيدهم من الكتـب محـرف ومغير ومرت عليه عصور وقرون ، ثم بعد ذلك استكشف أو كتـب ولم يكن كما كان أولا ، فدليلها هو القرآن ، فالعجب انـنـا نستدل بالقرآن عليها ولا نستدل بالقرآن على معجزات نبـيـنا .

ونقتصر بالاشارة الى بعض معجزاته الواضحة الثابتة الظاهرة تعليما لمن يسمع لا لمن حضر ، فان من حضر من أهل العلم ولا يحتاجون الى تعليم ، فمن أعظم معجزات النبى صلى الله عليه وسلم الاسراء والمعراج ولا يستطيع أن ينكـر هذا مسلم وهى من اعظـم المعجزات

التى لم يوتها نبى ، فان عيسى عليه السلام فى اعتقاد النصارى انما رفع الى السماء بعد صلبه ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان قد صعد الى السماء وهو حي ورجع واخبر بما حصل لـــه فى تلـــك الرحلـــة السـمـــاويـــة .

الدليل على الاسراء من القرآن سورة خاصة بهذه المعجزة يقول الله عز وجل فيها : « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتـــنا » ، والدليـــل على المعراج قوله تعالى فى سورة النجم : « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ما كذب الفـــؤاد مـــا رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغـــى » والعجب ممن ينزل هذه الآيات على جبريل مع أن مـــا فيها كله يـــدل على ان المخاطب به بشر ، ولذلك نفى عنه سبحانه وتعالى أن يزيغ بصره وان يطغى واشياء اخرى من الآداب الربانيـــة التى اتـــاه الله اياها فى هذه المعجزة العظيمة فكيف نسكت عنها ؟ ومع ذلك فقد رويت بالاحاديث الصحيحة تفاصيلها وكيفيتها ، ولمـــا رجع وكذبتـــه قريش وقالوا له صف لنا المسجد الاقصى ، رفعه الله اليه حتى صار يـــراه عيانا ويصفه لهم ، وانتشرت هذه المعجزة فى الملل والنحل وفى الدنيا كلها حتى اقتبس منها الاجانب وحتى دخلت فى الاداب العالمية ، وكتب دانتى المشهور كتابه الكوميديا الالهية مقتبسا لهـــا من قصة الاسراء والمعراج لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد فضحه الراهب الاسبانى آسين بالاسيوس حيث كتب كتابا أثبت فيه أن الكوميديا الالهية مقتبسة تماما من كتب المسلمين ومن قصة الاسراء والمعراج بالذات وصـــار لا يكتب الآن احد عن دانتى وعن رائعته كما يسمونها الا ويذكر رأى آسين بالاسيوس ولكن هذا الجاحد مع كونه استفاد من الاسلام لـــم يقر بفضله عليه ولم يتأدب حتى الادب الذى يـــنـــبغى أن يكون عند البشر مع رجل عظيم فوضع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجحيم ــ قبحه الله واخزاه ــ ، على كل حال هذه الاشياء ينبغى أن نشير لها

وان نعلمها لأولادنا وان نثبتها فى كتبنا فان النصارى يثبتون أقل من هذا فى كتبهم ٠

ثانيا : معجزة انشقاق القمر ، فانها من أعظم المعجزات التى أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم ، على اثر طلب كفار مكة من النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر كما فى الصحيح ، فقال : انظروا قال عبد الله بن مسعود : رأيته فلقا وراء الجبل وفلقا دونه ٠

ولا نكتفى بهذا الدليل فان القرآن قد اثبت هذه المعجزة والقرآن كما علمتم حجته لا ترد ، فقد قال سبحانه وتعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر » والمتعنتون الذين ينفونها يقولون : انشق القمر اى ينشق لما تفنى الدنيا على حد قوله تعالى « أتى امر الله » اى يأتى امر الله ، فقد وضع فيه الماضى موضع المضارع ، لكن هنا لا يصح هذا لانه تعالى قال اقتربت الساعة وانشق القمر ثم اعقبه بقوله « وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فلو كان الامر يتعلق بنهاية الدنيا وانشقاقه حينما تقوم القيامة لما كانت هناك فائدة فى قوله : « وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فانهم لما راوها قالوا : هذا سحر ، فهذا اثبات لانشقاق القمر بالقرآن وبالنص الذى لا يقبل الرد وكون القمر لم ير منشقا فى جهات أخرى من العالم دليل غير مقبول ولا ينهض حجة ، لان خسوفه مثلا لا يرى حينما يقع فى كثير من جهات العالم ، وكونه اذا وقع يمكن أن يختل نظام العالم لا نذكره هنا ، ولا نتعرض له ، وان كانت له اجوبة كثيرة لأننا نتكلم الآن مع المليين ومع المومنين ، المومنون هم نحن ، والمليون هم اصحاب الكتاب الذين يثبتون لأنبيائهم كثيرا من المعجزات من هذا القبيل ، وخالق القوى والقدر لا يعجزه أن يشق القمر وان يحفظ السماء والارض والكواكب بغير ما يحفظها به ، من هذه الجاذبية التى يقول بها العلم ومن يدرى انه شىء آخر غير الجاذبية لان غاية ما هناك انه شىء استكشف أو اطلع عليه فيما يقال ويمكن أن يكون غيره « ان الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ولئن

زالتا ان امسكهما من احد من بعده » — وآيته صلى الله عليه وسلم ومعجزاته من غير ذلك فى الاحاديث كحنين الجذع لما فارقـــه ، وكان يخطب اليه وكسلام الحجر عليه (اني لأعرف حجرا فى مكة كان يسلم علي) وكسعي الاشجار له ، وكنبع الماء من بين اصابعه ، كلهـــا تواردت بها الاحاديث الصحيحة حتى ان علماءنا صاروا يقارنون بين معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ومعجزات الانبـــيـــاء السابقين ويرجحون هذه ، ومن ذلك قول القائـــل :

وكل معجزة للرسل قـــد سلفت   وافى باعجب منهـــا عند اظهار
فما العصا حية تسعى باعجب من   شكوى البعير ولا من نطق احجار
ولا انفجار معين الماء من حجر   كسلسبيل غدا (1) من كفه جار

فان الحجر معتاد منه أن ينشق بالمـــاء « وان من الحجارة لمـــا يتفجر منه الانهار » ولا كذلك أصابع اليد . وقال الآخر :

ان كان موسى سقى الاسبـــاط من حـــجـــر
فان فى الكـــف معنـــى ليـــس فى الحـــجـــر

فالحقيقة ان معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام المادية كثـــيـــرة وهى شىء ثابت ، لكنا نتجاوزها جحداً للغيبـــيات كأنما غير مومنـــين ونعود لقوله صلى الله عليه وسلم « وانما كان الذى أوتيت وحيـــا أوحاه الله الي » لنبين كيف وقع الحصر هنا هذا الموقع ؟ فهـــو ليس نفيـــا للمعجزات الاخرى لأن الثابت لا ينفى ، واذن فمـــا معنـــاه ؟

هذا الكلام واقع أولا موقع ما يسمى فى علـــم البديـــع بتعقيب المدح بما يشبه الذم ، نمدح ثم نأتى بكلام ظاهره يوهم انـــنا سنأتى بذم ولكن فى الواقع هو مدح ، وذلك كما فى قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

(1) أى ســــــال .

لا عيب فيهم اى فى هؤلاء القوم الذين يمدحهم الشاعر ، لكنه لما قال غير ، تشوفنا وظننا انه سيأتى بشيء يذمهم به أو شيء يخل بهذا المدح الذى مدحهم به ويثبت لهم بعض العيب بعد أن نفى عنهم العيب كله ، فحين قال : غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب علمنا انه زاد هذا المدح تأكيداً لان وصف سيوفهم بأنها مفللة . أى مفرومة كما نقول بالعامية اى فيها تثلم وتهشم من كثرة القتال لأعدائهم ، ليس عيبا وانما هو زيادة فى المدح ، ولا سيما عند العرب الذين يتمدحون بالشجاعة ، فهذا هو ما يسمى بتعقيب المدح بما يشبه الذم .

هنا ايضا : ما من الانبياء نبى الا أوتى ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الي ، أى لكن ما أوحاه الله الي هو شيء أيضا يؤيد المعجزات التى أوتيتها من قبيل المعجزات التى أوتيها الانبياء ، وان كان الكلام فى القصر اولى ، فالقصر كما هو مقرر فى محله يكون قصرا اضافيا ويكون قصرا حقيقيا فالقصر الحقيقى هو الذى ينفي غير الصفات التى تثبت للشخص ، فاذا قلنا : وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الي يكون نفيا لجميع الآيات الاخرى وهذا ليس بالمراد هنا ، والقصر الاضافى هو الذى يكون نفيا بالنسبة وبالاضافة والاعتبار اى ان هذا الذى أوحاه الله الي هو اعظم الآيات واعظم المعجزات ، فكأنه هو المعجزة الحقيقية التى أوتيت وان كانت المعجزات الاخرى التى اوتيت ليست فى طي العدم ، او يكون على سبيل الادعاء فيكون حينئذ حقيقيا ، فهناك نوع من القصر يسمى القصر الحقيقى الادعائى بحيث نغض الطرف عن جميع الصفات وعن جميع الاشياء التى يأتى القصر بعدها وتدخل فى حيز النفى ادعاء ونأتى بالصفة الاخرى وذلك على سبيل المبالغة ، فهنا أيضا لنقرر هذا نقول : ان تلك المعجزات الاخرى حيث ان دلالاتها محدودة ومقصورة على العصر الذى وقعت فيه وعلى المكان الذى وقعت فيه وعلى الاقوام الذين رأوها ، فانها لا تعد شيئا بالنسبة للمعجزة الكبرى التى جاء بها صلى الله عليه وسلم ، وهى باقية ومستمرة على مدى العصور والازمان ، فيكون القصر حينئذ حقيقيا ادعائيا باعتبار ان تلك الاشياء ليست لها هذه القوة ، وباعتبار انه قصر

اضافى فهو كذلك ايضا صحيح ويكون ذلك القصر فى محله ، وهو من العبارات التى اعتبر فيها وروعى فيها هذا المعنى البلاغى تنويهـا بالقرآن وتعظيما له ، ورفعة لقدره وشأنه ، ناهيك بأنه وحي من الله سبحانه وتعالى ، ناهيك بأنه كتاب الله ، ناهيك بأنه كلام الله تبارك وتعالى .

كتاب الله اعظم كل قيل   رواه المصطفى عن جبرئيل
عن اللوح المحيط بكل شيء   عن القلم الرفيع عن الجليل

واى كتاب يوصف بهذه الصفة واى آية يكون لها هذا النعت رواه المصطفى عن جبرئيل وجبرئيل رواه عن اللوح المحفوظ واللوح المحفوظ رواه عن القلم الرفيع والقلم الرفيع عن الله سبحانه وتعالى باملائه ، هذا شيء عظيم جدا ، فلذلك حسن ان يقال « وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الي » .

والوحى لا نحتاج أن نتكلم عليه لانه معروف عندنا ، ومعروف عند الاجانب أيضا ، فان التفسير الذى يفسره به المسيحيون لا يختلف عن التفسير الذى نفسره به نحن من الرؤيا الصادقة للنبى ومن الالقاء فى روعه ومن مخاطبة الله سبحانه وتعالى . . . الى آخره ، كما فى مقدمة فهرس الكتاب المقدس .

لا يهمنا تفسير المسيحيين وانما ذكره على سبيل الاستيناس ، انما يهمنا ان الوحى هو القاء من الله سبحانه وتعالى للنبى صلى الله عليه وسلم وهو خاص هنا بالكتاب العزيز ولا شك ، لانه جاء فى سياق الاعجاز ، والاعجاز انما كان بالقرآن ، لكن السنة هى ايضا وحى اليه صلى الله عليه وسلم منه سبحانه وتعالى لأنها بيان للقرآن ، قال الله تعالى : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس » والتبيين هنا وان اسنده النبي صلى الله عليه وسلم فهو من الله بدليل قوله فى الآية الاخرى « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » فالله سبحانه وتعالى الذى

يبينه له ، وقال فى الآية الاخرى الجامعة « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » لكن الفرق بينهما ان هذا كلام الله نزل بهذه الصفة وبهذا النعت لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم فيه لفظ ولا تعبير ولا غير ذلك وهو معجزة ومتحدى به ، والسنة ليست كذلك فقد فرق بينهما علماؤنا بهذا ، فالسنة وان كانت حجة أيضا للنبى صلى الله عليه وسلم ، لاكنها فى طريق البيان تأتى بعد القرآن وهى المرتبة الثانية فى البلاغة وفى الاحكام والحكم والاسرار ومحاسن الدين والاخبار عن الامم الماضية والاخبار بالمغيبات وما الى ذلك مما احتواه القرآن ، هى أيضا سجل طافح بذلك ، ومن يقرؤها وحدها يعلم يقينا انها من تلقين الله سبحانه وتعالى ، ولذلك نقول مع القائل :

وما شرب الايمان الا فؤاد من بأخبار خير الخلق قد ملأ الأذنا

فمن أراد أن يزيد ايمانه ويقوى فليلازم كتب السنة واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه سينغرس الايمان فى نفسه وسيشرب حبه فى قلبه بقوة عجيبة ، على كل حال .

قوله عليه السلام « وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الي » المقصود به هنا الكتاب العزيز الذى به التحدى والذى هو المعجز والذى هو الآية العظمى للنبى صلى الله عليه وسلم الدائمة المستمرة التى قال فيها الامام البوصيرى رحمه الله :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيئين اذ جاءت ولم تدم

هذا القرآن زيادة على كونه معجزاً ، له اعجاز آخر هو انه باق ومستمر لاجل ان تبقى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم هي الخاتمة لا يأتى بعده رسول ، فهذا الانسجام وهذه الموافقة عظيمة جدا بل معجزة لان النبى صلى الله عليه وسلم ادعى انه خاتم الانبياء والمرسلين وهاهو يثبت هذه الختمية بحجة وبيقين وبدليل وبمعجزة ، هى القرآن ، فالقرآن مايزال لحد الآن يثبت نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ورسالته وانه خاتم الانبياء والمرسلين ، وفعلا لم يأت نبى بعده الا ما نعرف من الزيوف وما يزال الاجانب والاغراب عن

القرآن وعن اللغة العربية وعن الاسلام يؤمنون بسبب القرآن ، فلو كانت الآيات الاخرى التى أعطيها الانبياء واعطى مثلها النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ، هى وحدها التى أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم لوقع بعض التوقف فى كونه خاتم الانبياء ، لان هذه الختمية لا بد ان تكون معها دلالة وحجة وبعبارة أخرى لا بد لها من المعجزة التى تثبتها وليس هناك من معجزة الا القرآن ، والقرآن تحدى العرب كما يعلم الجميع بفصاحته وبلاغته لان العرب كانوا أهل فصاحة وأهل بلاغة وقد عجزوا عن أن يعارضوه وعن أن يأتوا بمثله او بعشر سور مثله أو بأقصر سورة منه ، وذلك دليل على انه لم يعرفوا له نظيراً ، وهو فعلا لا يعرف له نظير لحد الآن — فقد كتب الكتاب ونظم الشعراء وألف المؤلفون بيانا وشعرا وحكمة وما الى ذلك ، وبقى أسلوب القرآن متميزا عن جميع هذه الاشياء ، وقد أراد بعض المتنطعين أن يعارض القرآن ، فلما قرأ قوله سبحانه وتعالى « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » ، هنا كل وعجز وقال هذا لا يعارض ، وقال الاصمعى سمعت جارية سداسية أو خماسية تقول :

استغفر الله لذنبي كله قتلت انسانا بغير حله

مثل غزال ناعم فى دله وانتصف الليل ولم اصله

فقال لها قاتلك الله ما افصحك ، فقالت له : يا شيخ أتعد هذا فصاحة بجانب قوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .

فجمع بين أمرين ونهيين وبشارتين فى آية واحدة فانظر الى هذا الادراك الدقيق الذى ادركته هذه الفتاة ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة النجم على كفار قريش لم يملكوا الا أن سجدوا عندما قال : « فاسجدوا لله واعبدوا » ولم يكونو مومنين وانما سحرتهم بلاغة القرآن واعجازه والكلام فى هذا يطول .

ولا يزال القرآن من ناحية البلاغة معجزا لحد اليوم ، والدليل على ذلك فى نظرنا نسوقه باختصار وهو عجز التراجمة ، اطلاقا فى جميع اللغات عن ترجمة القرآن ترجمة لفظية كما هو ، وكلهم يكتبون ان القرآن لا يصلح أن يترجم واننا حينما نترجم معانيه نفقد معظم بلاغته ومعظم اعجازه ومعظم روعته ، شهادة كهذه دليل على ان بلاغة القرآن تعجز حتى علماء هذا العصر الذى بلغت فيه اساليب الكلام واللغة والفلسفة والحكمة هذا المبلغ المشهود .

هذا من جهة ومن جهة اخرى ، فان من اعجاز القرآن بقاؤه كما هو واننا نستدل على بقاء القرآن ودوامه ، بأنه كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، واجب لها البقاء ، كما هو واجب لذاته سبحانه وتعالى ، فهذا سر من أسرار اعجاز القرآن ، ومن ثم قال بعض المستشرقين : لقد اصاب المسلمون ، فى وصفهم القرآن بأنه كلام الله ، فانهم وضعوا بينه وبين التغيير والتحريف سورا من حديد ، وفعلا هو كلام الله ، فالمسلمون لم يقولوا ذلك من عند أنفسهم ، بل هو كلام الله ، نحس بذلك احساسا لا يصح أن يوصف ولا نقدر أن نصف كيف هو كلام الله ، لكنك حينما تأخذ المصحف ، وتتلو منه ما شئت ، فانك ترى فيه هذه العظمة التى لا نهاية لها ، والتى ليست هى الا عظمة كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا تفنى عجائبه ولا يحاط بمعانيه ، ولا يلحقه تغيير ، ولا تحريف ، ونلمع الى أدلة أخرى على أن القرآن كلام الله :

أولا : نفس القرآن ليس نفسا بشريا ، حينما تقرؤه تجده يعبر عن الذات العلية وكل كلام يعبر عن صاحبه ، فاننا فى بعض الاحيان ، نعرف صاحب الكلام من كلامه ، ولكن القرآن حينما تقرؤه أول ما تجد فيه انه ليس كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو كلام الله سبحانه وتعالى ، لما يعبر عنه من مظاهر الجلال والجمال الالهين العظيمين ، اللذين ليس لغير الله كائنا من كان شىء منهما ، « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » هذا كلام عظيم لا يصح ان ينسب لنبى ولا لملك ، الا لله ، « ولو تقول علينا بعض

الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من احد عنه حاجزين » هذا كلام لا يصح أن ينسب للنبى (ص) بل هو كلام العزيز الجبار ــ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو الاه واحد ، وليذكر أولوا الالباب » .

والكثير الذى لا نستحضره الآن مما يدل على أن نفس القرآن ، ليس نفسا بشريا ، بل هو نفس الاهى عظيم .

ثانيا : اسلوب القرآن ليس اسلوب السنة ، فان العلماء قالوا : ان اسلوب السنة ، هو الدرجة الثانية فى البلاغة ، وان كانت بلاغة النبى صلى الله عليه وسلم ايضا لا تدرك ولكنها بالنسبة للقرآن لا مقارنة بينهما والقرآن ليس بشعر ، فلا تقول : ان اسلوبه شعر وليس بنثر ، فلا تقول : انه نثر ولا بسجع ، فلا تقول انه سجع ، وانما هو قرآن كما قال احد كبار ادباء العصر : انما هو القرآن ، لا يعبر عنه بشىء آخر الا بالقرآن ، ثالثا ــ القرآن زاد على ذلك شيئا آخر وهو فى نظرنا المعجزة الثانية بعد الفصاحة والبلاغة أعنى الناحية العلمية ، ففى القرآن لمحات علمية ، غريبة جدا تستغرب من العلماء فى ذلك الوقت فأحرى من بلاد أمية ، ليس فيها مدرسة ولا تعليم ، ولا حتى كتاب واحد ، فيأتى فيه « الم يـر الذين كفروا ان السموات والارض ، كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى » .

ونقرأ فيه « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ، ونقرأ فيه : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . ونقرأ فيه « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » . الى غير ذلك من الآيات التى تتوافق والحقائق العلمية التى انما ثبتت الآن ولم تكن معروفة فى حين نزول القرآن . واذكر هنا أن اميرال احدى السفن الحربية لاحدى الدول العظمى ، كان يقود هذه السفينة فى بحر الشمال فى ليلة عاصفة مظلمة جدا ، وكانت الامواج تتلاعب بهذه السفينة وهو فى حالة

شديدة من الاضطراب وعنده فى مقصورته مكتبة صغيرة فمد يده فأخذ واحدا منها ، فكان القرآن العظيم ، فلما فتحه لم تقع عينه الا على قوله تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » فقال كيف يصف محمد البحر هذا الوصف الذى اعجز أنا ان أصفه فى حالتى هذه ، وهو لم يركب البحر قط ؟ هذا ليس من كلام البشر ، فهذه الناحية العلمية فى القرآن ناحية عظيمة جدا ، وهى تعطينا دليلا آخر على أنه من عند الله سبحانه وتعالى ، ولا اقول ان الكتاب العزيز هو كتاب علم بالمعنى الحديث كما يعبرون عنه ، لا ليس هذا مقصودى بل المقصود ان الكتاب العزيز ليس فيه شيء يعارض ، ما ثبت فى العلوم الحديثة وليس من شأنه ان يتعرض لهذا ، ولكن الكلام لا بد ان يأتى فيه لمحات تشير الى الاشياء والكون والخليقة ، فاشارات القرآن فى هذا الباب توافق تمام الموافقة الحقائق العلمية الثابتة ، وهذا كاف . وان كان القرآن أتى بأعظم من هذا ، فان هذه العلوم وهذه الفنون فائدتها فى تدبير أمور الحياة ، ولكن السعادة سعادة الدارين ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، هى العلم الذى أتى به القرآن ، وهذا اعظم من كل شيء :

مراد كتاب الله جذب قلوبنا الى حضرة القدوس والزهو فى الدنيا

رابعا — وثم ناحية أخرى أتى بها القرآن ، ولها أهمية عظيمة جدا فى اثبات انه من عند الله ، وهى ان القرآن صحح اغلاط الكتب السابقة والاديان السماوية المحرفة ولهذا جاء ، فان الاديان يأتى بعضها عقب بعض لتصحيح ما وقع فيه بعض اتباع الاديان من الاغلاط ، والقرآن جاء لتصحيح الاغلاط التى وقعت فيها النصرانية واليهودية والاديان الكتابية قبلهما ، والغريب فى ذلك أنه أتى ببعض الجزئيات التى تغبر فى وجوه الذين يقولون ان محمدا تلقى كتابه من بعض الاحبار والرهبان ، كيف وهو يصحح اخطاء ما يسمى بالتوراة والانجيل أو بالعهد القديم والعهد الجديد ومن أين له ذلك ان لم يكن من عند الله ، مثلا قصة تبنى موسى عليه السلام الواردة فى قوله

تعالى : « فألقه فى اليم » الآية ، فهو فى التوراة أى التبنى منسوب الى ابنة فرعون ، وفى القرآن الى امراة فرعون آسية وهذا هو المعقول ، وفى التوراة نسبة صنع العجل الى سيدنا هارون وحاشاه عليه السلام من ذلك وفى القرآن نسبته الى السامرى وهذا هو الصحيح ، وفى القرآن تغليط النصارى فى عقيدة التثليث وتسفيه آرائهم فى ذلك ، وابطالها بما لا مزيد عليه من الادلة والحجج حتى صارت منتشرة فى الدنيا ، وحتى صار النصارى أنفسهم يعتقدون بالثلاثة ويقولون هم بمثابة واحد ، وكان تأثير القرآن فى هذا الصدد ان تفرقت الديانات المسيحية الى قسمين ، وقام المصلحون المشهورون بالبروتستانت بالاصلاح الذى ادخلوه على الديانة المسيحية تأثرا بما جاء به القرآن .

بعد هذا كله نرجع الى الفقرة الاخيرة من الحديث التى يقول فيها النبى صلى الله عليه وسلم وهى ايضا معجزة عظيمة — فأرجو ان اكون أكثرهم تابعا يوم القيامة — فهذا الكلام مسبب ومرتب على ما قبله ، ومفاده لما كان ما أوتيه (ص) وحيا أوحاه الله اليه وهو قرآن خالد باق مستمر الى يوم القيامة فهو يرجو أن يكون من يتبعه من الناس ومن يومن به أكثر مما تبع كل رسول وكل نبى ، وهذا شىء غريب جدا يقوله النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة أو فى الحجاز ، لجماعة تعد ببضعة آلاف من الناس فيتحقق ذلك ويصير امرا واقعا لا مرية فيه ولم يمر على الاسلام الا بضعة عقود من السنين ، فبعد أربعين سنة من الهجرة صار الاسلام منتشرا فى الدنيا كلها تقريبا ، وبقى منتشرا الى الآن وهو الآن منتشر اكثر من كل دين واليك التعداد ، فان المسلمين كما تعلمون يتراوحون الآن بين ثمانمائة مليون أو مليار من الملايين وليس هناك من اتباع الاديان من يبلغ هذا العدد . النصارى اكثرهم ملحدون منهم من الحد بالشيوعية ومنهم من الحد بالتفكير الحر او ما الى ذلك مما هو معروف ، فالنصارى الحقيقيون قلة ، الديانتان الكبيرتان بعد النصرانية هما : البوذية والبراهمية ، البوذية صارت شيوعية والبراهمة منقسمة على نفسها ومع ذلك فهى تصل الى خمسمائة أو ستمائة مليون فقط فالمسلمون

اكثر وهذا اذا نظرنا الى الامر من خارج ، امـــا اذا نظرنـــا اليه من داخل أى من المنظور الاسلامى فاننـــا نقول : ليـــس من هذه الاديان دين صحيح ، فان المسيحية باطلة قطعا ، وما انتشرت الا بعـــد أن بطلت فلما كانت مسيحية حقيقية كما أتى بها سيدنا عيسى كان اتباعها قلة ، لكن لما تسلط عليها قسطنطين وبدل فيهـــا وغـــير واستغلـــها وادخلها الى أروبا دخلت بالتغيير الذى حدث فيها وهو عقيدة التثليث وما الى ذلك ، فمن ذلك الوقت لم تكن مسيحية بالمنظور الاسلامـــى واليهودية لا نشك فى انها ليست دينا صحيحا بالمنظور الاسلامى فانها لم تومن بعيسى عليه الصلاة والسلام ، وبقيـــة الاديان هى أديـــان وثنية . ويدلنا على ذلك القرآن العزيز ، فقد قال تعالـــى « اذ تبـــرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب » ففى اليوم الآخر يوم القيامة يتبرأ المتبعون وهم الانبياء عليهم الصلوات والسلام ، من هؤلاء الذين يتبعونهم — ويقول الذين اتبعوهم لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا » الآية ، وبخصوص سيدنا عيسى قال الله تعالى « اذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءانت قلـــت للنـــاس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانك مـــا يكـــون لى أن اقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمتـــه تعلم مـــا فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك انك انت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما امرتنى به ان اعبدوا الله ربى وربكم » الآية بنـــص القرآن النبـــى صلـــى الله عليه وسلم أكثر الامم اتباعا بدون شك ولا ريب ويصدق علـــى هذا ايضا قوله تعالى « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » فالاسلام ظاهر والحمد لله على الدين كله ، ولا بأس بما يقع من المخالفات أو ما يقع من المسلمين من الذنوب ، فالذنوب الى الغفران كما هو معروف وفى الحديث : (يدخل الجنة من أمتى سبعون الفا بغير حساب مع كل واحد من السبعين الفا سبعون الفـــا) وهذا قدر عظيم زاد النبى صلى الله عليه وسلم فقال بعـــد ذلك : (وحثيات من حثيات ربى) ، والحثيات جمع حثية والحثية هى الحفنة أى القبضة ، فقبضة من قبضات الله تعالى تشمل الجميع ، ناهيكم فيما قال تعالى : « وما قدروا الله حق قدره » والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينـــه » ، وفى الصحيح

أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، قلنا : بلى يــا رسول الله . قال : اما ترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : فسأخبركم عن ذلك ، ما المسلمون فى الكفار الا كشعرة بيضاء فى ثوب أسود أو شعرة سوداء فى ثوب أبيــض وهذا منــتهى الفضل جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن يعمهم هذا الفضل ولا حرمنا الله تعالى من هذا العطاء الكريم ونرفع أكف الضراعة والابتهال الى الكبير المتعال بأن يديم جلالة مولانا امير المؤمنين ويسبغ عليه نعمــة الصحة والعافية ويمده بالنصر والعز والتمكين والتأييــد فى هـــذه المعركة العظيمة التى يقودها معركة الصحراء ، ويحرر الصحـــراء وجميع الاجزاء المغتصبة من وطننا ألعزيز على يده وبذلك تتم الوحدة الترابية للوطن ويوالى المغرب مسيرته الى النمو والازدهار بقيــادة جلالته أدام الله عزه ونصره واعلى أمره وأقر عينــيه بالامير المحبوب ولى العهد سيدى محمد وبصنوه الامير الواعد مولاى الرشيد وانزل سحائب الرحمة والغفران على ضريح مولانا الامام بطــل العروبــة والاسلام سيدى محمد الخامس وجزاه عنا افضل الجزاء ، جــزاء الملك المؤمن المحسن الصالح المصلح عن أمته ، انه سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ، « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينــا أو اخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنــا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنــا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » والختم من مولانا أمير المؤمنين .



الدرس الثاني

٥ رمضان المبارك 1395

موضوعه :

القضاء والقدر
ومسؤولية الإنسان

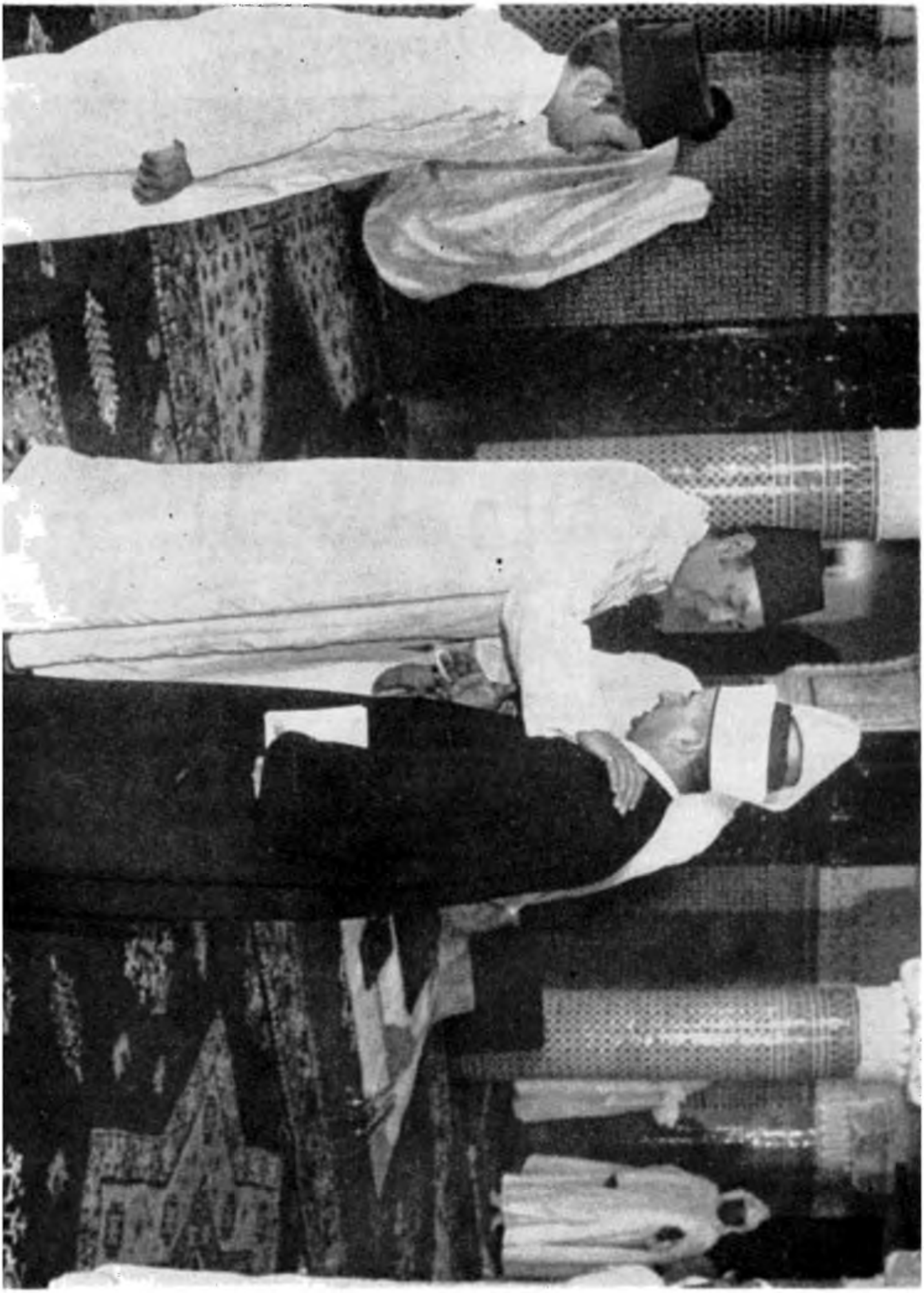
★

ألقاه :

فضيلة الدكتور عبد العزيز الخياط

وزير الأوقاف والمقدسات الاسلامية بالمملكة الأردنية

✻



بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله آل البيت المطهرين وصحبه الكرام ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وبعد :

استأذن جلالتكم يا صاحب الجلالة أمير المؤمنين فى أن اقدم اليكم تحية الشعب الاردنى بشعبه فى فلسطين وشرق الاردن فى الارض المباركة حول المسجد الاقصى وان انقل اليكم تحيات شعب عاش فى ظل الدوحة النبوية فى ظل جلالة الملك الحسين وقد حملنى تحياته الى جلالتكم هذه التحيات التى تحمل المحبة والولاء للبيت الهاشمى العلوى الكريم اسأل الله سبحانه وتعالى أن يرعاكم وان يكلأكم بعنايته وان يوفقكم لخير الاسلام والمسلمين آمين انه سميع مجيب .

موضوع الدرس يا مولاى اليوم يتناول بحثا شائكا طالما خاض فيه العلماء وطالما قالوا فيه الكثير ولكن العلماء على كثرة ما خاضوا فيه ظلت ابحاثهم أمام المسلمين غير واضحة تمام الوضوح مما جعل صورة القضاء والقدر ومفهوم القضاء والقدر ومفهوم اعمال الانسان وموقف هذا الانسان من الهناء والقدر فى اعماله غير واضح ولذلك رايت ان اتحدث فى هذا الموضوع عسانى اقدم رايا يوضح هذا الامر ويرفع اللبس عن كثير مما احاطه من الغموض .

ان الله تبارك وتعالى يا صاحب الجلالة كرم الانسان وجعله خليفته فى الارض وجعله مكلفا مسؤولا وارتفع به عن عقائد الكهانة

والوساطة والغاز المحاريب فى عقيدة رشيدة رائعة رفعت من كرامة هذا الانسان والله سبحانه وتعالى الزمه المسؤولية « كل امرىء بما كسب رهين » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يـره ومن يعمل مثقـال ذرة شراً يره » وهذه المسؤولية جعلها قائمة على التبليغ فى قوله تعالى « وان من امة الا خلا فيها نذير » وقائمة على العلم فى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالـم يعلم » وقائمة كذلك على العمل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » — « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » — « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

واذا كان الله قد جعل الانسان كائنا مسؤولا مكلفا فقد اعطاه عقلا واعطاه قدرة واعطاه كذلك بصيرة وحمله الامانة « انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين له يحملنها واشفقـن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

ولكن الانسان على مدى التاريخ انحرف بهذه الفطرة الانسانية وانحرف بهذه المسؤولية وانحرف بمفهوم الانسان ومسؤوليته ووضع لنفسه عقائد زائفة ونظريات قديمة وحديثة منذ الهنود ومنذ اليونان وانتهت بالمحدثين اليوم امثال لورانس اوديكارت ، فرويد ، سارتير ، هكسلى ، كارل ماركس وامثالهم واشباههم ، وقد ذهبوا بالانسان مذاهب مادية ذهبوا الى انه عملة اقتصادية تسير فى سوق العرض والطلب أو قالوا : ان الانسان واحد سيد وآخر مسود عبد ومسود ، أو قالوا : ان هذا الانسان جسد ترابى أو ان الانسان شىء روحى او هو انسانان فى انسان واحد وانه يولد بعقدة الذنب ذنب الخطيئة يعيش بين النعمة واللعنة قالوا هذا وذاك ولكن الاسلام ظـل مكرما لهذا الانسان « ولقد كرمنا بني آدم » .

وعلى هذا فان هذا الانحراف بالانسانية جعلنا نبحث فيما ورد فى كتاب الله سبحانه وتعالى وفى عقيدة هى من اسمى العقائد التى رفعت هذا الانسان وكرمته واعطته حقه فى هذه الحياة وبينت ان له

عقلا وانه هو المسؤول عن اعماله وذلك فيما سنتناوله من بحث القضاء والقدر ومسؤولية الانسان امام القضاء والقدر .

قبل أن نبحث فى موضوع ما معنى القضاء والقدر مجتمعين لا بد أن نتناول معنى القضاء أولا كما ورد فى القرآن الكريم فقد وردت كلمة القضاء فى كتاب الله سبحانه وتعالى فى عدة مواقع وفى عدة أماكن تناولت معانى متعددة ، فقد وردت مرة بمعنى الامر اتمام الامر وابرامه قولا وفعلا قال تعالى : « واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » أى اتمام الامر وابرامه . وجاءت ايضا بمعنى قدر وكتب « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى اجلا » . وتأتى ايضا بمعنى خلق وصير ، قال الله سبحانه وتعالى : « فقضاهن سبع سماوات » أى صيرهن سبع سماوات وتأتى بمعنى اوحى وأعلم واخبر « وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين » « وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » وتأتى بمعنى أمر ووصى أو حكم والزم : « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » وكذلك جاءت السنة فى معنى القضاء فى هذه المعانى كلها والمقصود منها فيما ورد فى هذه الامور وكذلك جاءت كلمة القضاء بمعنى القدر فى السنة وقد ورد فى الحديث الشريف ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بكهف مائل الى السقوط فأسرع المشى حتى جاوزه فقيل : أتفر من قضاء الله تعالى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أفر من قضاء الله تعالى الى قدره . فالقدر هنا بمعنى القضاء وقد ورد كذلك فى الحديث المشهور عن الايمان : (وتؤمن بالقدر خيره وشره) فمعنى القدر هنا القضاء وورد كذلك عن عمران بن حصين انه قال : ارأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشىء قضى عليه ومضى من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون فيه ما آتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم قال : قلت : بل شىء قضى عليه ومضى عليهم ، قال : أفلا يكون ظلما ، قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا . يقول الراوى : فزعت من ذلك فزعا شديدا وقلت : كل شىء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون فقال لى عمران بن حصين : يرحمك الله انى لم أرد بما سألتك الا لأخبر

عقلك ، ان رجلين من مزينة ، أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون فيه مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

هذا معنى القضاء فى الكتاب والسنة ومعنى القدر فى الكتاب والسنة كذلك ، القدر يأتى بمعنى القضاء الموفق وقد يستعمل بتسكين الدال (قدر) ويستعمل بمعنى قسم الرزق « وقدر فيها اقواتها » ويستعمل بمعنى ضيق فقدر عليه رزقه « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يضيق الرزق . ويستعمل بمعنى احصى « وقدرناه منازل » « وقدرنا فيها السير » وكذلك فيما ورد فى الحديث النبوى الشريف (اذا غم عليكم هلال شعبان فاقدروا له) أى احصوا أيامه . هذا معنى القدر وقد يأتى بمعنى الطاقة ايضا « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » ويأتى بمعنى المقدار « وانزلنا من السماء ماء بقدر » ويأتى بمعنى التقدير والمعرفة « وما قدروا الله حق قدره » كذلك يأتى بمعنى علم « الا امرأته قدرنا انها من الغابرين » أى علمنا انها من الغابرين . وتأتى كلمة القدر فى السنة كذلك بمعنى القضاء وكذلك فى القرآن . وتأتى بمعنى الخصائص والطبائع والقابليات وانها كما ذكر صاحب تفسير حاشية الجمل على الجلالين اوقع تقديره فى اجناس الاشياء وانواعها واشخاصها ومقاديرها وصفاتها وافعالها وآجالها وغير ذلك من احوالها فجعل البطش لليد والمشى للرجل والسمع للاذن ونحو ذلك .

هذا معنى القضاء والقدر فيما ورد فى الكتاب والسنة وقد عرف ان معنى القضاء ما يقع على الانسان أو فيه او عليه أو ما يقع فى الكون مما لا يملك الانسان دفعا له وان معنى القدر بمعنى القضاء لكن اذا قيل القضاء والقدر فان لكل منهما معنى مختلفا عن المعنى الآخر فالقضاء اذا قلنا حدث الامر قضاء وقدرا فالموضوع مختلف

بينهما فمعنى القضاء كل أمر يقع على الانسان أو فيه أو مـــا يقع فى الكون كذلك مما لا يملك الانسان له دفعاً ولا ردا . فالقضاء اذ يقع على الانسان ولد هذا الانسان على شكل معين لا يملك فى ميـــلاده شيئا ولا فى حياته ولا فى وجوده ، هذا الكون وجـد لا يملك الانسان ان يغير فيه هذا قضاء الله سبحانه وتعالى ، قضاء الله فى الانسان يجرى ، فى الانسان دورات دموية يجرى فى الانسان اشياء : التفكير ، الاعصاب وغير ذلك . من آيات الله سبحانه وتعالى فى خلق الانسان هذا مما لا يملك الانسان السيطرة عليه قط ، هذا هو القضاء . قد يحدث من الانسان شيء لكن لا يد له فيـــه يسمى قضاء فقـــد يكون الانسان نائما فيقع وهو نائم على آخر فيؤذيه او يقتله من كليهمـــا قضاء لان كليهما لا يملك له ردا ولا دفعا ، هذا هو القضاء .

وأما القدر فيما أخذناه من معنى القدر فهو الخصائص والطبائع والقابليات الموجودة فى الاشياء فخاصية النار الحرق ، خاصية الحديد الصلابة ، خاصية العقل التمييز ، قابلية الانسان للموت ، قابليـــة الشيء للكسب ، هذه الخاصيات هى قدر ، « انـــا كل شيء خلقنـــاه بقـــدر » اى بخاصية موجودة فيه فاذا صادف القضاء القدر قلنا وقع الامر قضاء وقدرا مثلا اذا كانت سيارة من السيارات سائرة والخاصية فى السيارة فيها حديد وخاصية الحديد الصلابة والصلابة قـــد تؤذى وتقتل والانسان الذى يركب السيارة فيه قابليـــة الجرح او قابليـــة الموت فاذا سارت السيارة ومن غير فعـــل السائق والانسان وقعت فأصاب الحديد الانسان وقوع السيارة من غير فعل السيارة قضاء وايذاء الحديد للانسان فالحديد فيه قدر الصلابة والانسان فيه قـــدر قابلية الجرح والموت فاذا مات الانسان او جرح صادف القضاء القدر اى وقع القضاء فصادف القدر فكان قضاء وقدرا . ومثل آخر لو هبت الريح وهبوب الريح امر لا يملكه الانسان بيـــد الله سبحانه وتعالى فحملت نارا وهذا قضاء والنار فيها خاصية الحرق فوقعت على كومة من القش والقش فيه قابلية الاحتراق فالقضاء من الله سبحانه والقدر من الله سبحانه حملت الريح النار فيها خاصية الحرق فوقعت على كومة القش فيها قابلية الاحتراق فاحترق القش فكان الحادث قضاء

وقدرا أى صادف القضاء القدر فاحترقت ولو صادف القضاء حمل الريح خاصية الحرق شيئا ليس فيه قابلية الاحتراق لا يصادف القضاء هنا القدر فلا يقع الحادث .

هذا معنى القضاء والقدر وان كان القدامى قد استعلوا معنى القضاء بمعنى القدر والقدر بمعنى القضاء ولكنه عبر العصور ولما اتصل المسلمون بالفلسفات وبالمنطق اضطروا ان يواجهوا اصحاب العقائد فى ذلك الزمن فتبلورت لديهم الامور ولذلك اذا رجعنا الى عصر النبى صلى الله عليه وسلم نجد انه صلى الله عليه وسلم نهى عن الخوض فى القدر والمقصود من هذا الاعتراض على قضاء الله وقدره لانه من الله سبحانه وتعالى وعلى الانسان ان يسلم به وهذه عقيدتنا « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » فيما قدره وقضاه علينا سبحانه وتعالى ولكن المسلمين فى مواجهة العقائد من قبل ونحن فى مواجهة العقائد والايدلوجيات اليوم لا بد من أن نبحث فى موضوع القدر والقضاء وان نجليه على هذا الامر .

يرد هنا سؤال اذا كان هذا القضاء والقدر بهذا المعنى وهو شىء بيد الله سبحانه لا يملكه الانسان ولا يستطيع له دفعا ولا ردا فى موقف هذا الانسان اذن ؟ ما موقف الانسان امام قضاء الله وقدره ؟ نحن نقول كما قال العلماء وكما استخلصناه من آراء كثيرة لا نقول كما قالت المعتزلة ان الانسان حر فى اعماله وهو يخلق افعاله . الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق الافعال والله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق الاعمال ولا نقول ان الانسان له ارادتين بل نقول ان هذا الانسان وهو قول استخلصناه من قول الاشاعرة والماتريدية والاشاعرة جماعة ابى الحسن الاشعرى من علماء اهل السنة قالوا — ولا اريد أن أخوض فى التفصيل — قالوا بأن الله سبحانه وتعالى يخلق افعال الانسان ، والانسان نفسه له الكسب ، فالقدرة بالنسبة لله ايجاد ، اى ايجاد الافراد ، والقدرة بالنسبة للانسان الكسب ، وليس للعبد تأثير فى هذا الكسب الا ان ابا منصور الماتريدى احد علماء ما وراء النهر جلى هذا الامر بشىء أكثر تفصيلا وازال الغموض عن

راى الامام الاشعرى فقال : بأن الله سبحانه حقيقة هو الذى يخلق الافعال وانه لا خالق الا الله ولو خلق الانسان فعلا افعاله لاجتمع مؤثران على شىء واحد ولا يمكن ان يجتمع مؤثران على شىء واحد لا يجتمع شاكوشان على راس مسمار واحد فى وقت واحد وآن واحد ابدا ، فالموثر هو الله سبحانه وتعالى وهو الخالق الا أن الانسان كذلك اذا مكنه الله عز وجل من القيام بالفعل ، فالله يخلق الفعل والله سبحانه وتعالى مكن العبد من القيام بالفعل ، فله اذن حرية الاختيار ، والقدرة على الاختيار بتمكين الله له ، والله يخلق الفعل وقد يقول قائل : كيف يكون هذا المثل بسيطاً جدا : نحن الآن نطالع التلفاز نجد عدة موجات فالذى يفتح التلفاز هو لم يضع البرنامج ولم يصنع هذا التلفاز ، ولكنه فتح على القنال (1) أو القنال (2) فوجه هذا المفتاح فخرجت الصورة بتوجيه هذا الانسان ، اى بتمكينه من ان يفتح على احد القنالين او القنالات المتعددة ، فالانسان اذن الله بخلق افعاله ، ولكن هذا الانسان هو الذى يقوم بالفعل ، الله سبحانه يخلق الفعل ، والانسان يختار هذا الفعل ويتمكن منه ، فله فيه تأثير بامكان الله وبتمكين الله له ، فرق بين راى الاشعرى وبين الماتريدى ، فالاشعرى يقول ليس للانسان تأثير ، والماتريدى يقول له تأثير ، ولكن هذا التأثير بتمكين الله له سبحانه وتعالى .

وتفصيل لذلك باسلوبنا نقول : ان الله سبحانه وتعالى خلق هذا الانسان ، وكل ما فيه مخلوق لله عز وجل واعطى الله سبحانه وتعالى الانسان قدرة فى هذا الانسان غرائز ، فيه حاجات عضوية ولكن فيه خاصية العقل التميز فأعطاه عقلا يميز به الخير من الشر فاذن القضاء خلق الله للانسان والقدر فى الانسان انه وضع فيه خاصية التمييز العقلى وجعل فى هذه الغرائز او الحاجات العضوية ميلا ، هذا عندما يحصل الميل فى الانسان من غريزة من الغرائز أو من حاجة عضوية كحاجة الاكل أو الشرب أو التنفس أو الغرائز كغريزة الجنس أو غيرها ، فعندما تتحرك هذه الغريزة او الحاجة يخلق الله فى الانسان ميلا ، هذا الميل لا بد أن يتحول الى فعل عند الانسان ، هنا يأتى عمل العقل فى اختيار الخير والشر ، اما ان

يختار الخير واما ان يختار الشر ، هنا يأتى عمل عقل الانسان بالخاصية التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فيه ، فهذا الميل سيتحول الى فعل فبحسب مفهوم الانسان وما هو فى عقله مما يميز به بين الخير والشر ومما وضح الله سبحانه له من الخير والشر من ذى قبل « وهديناه النجدين » « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » أى وضحنا له طريق الخير وطريق الشر ببيان الحلال وبيان الحرام فاذا كان كذلك الخير واضح ، والشر واضح ، هذا العقل عنده التمييز ، فاذا تحول الميل الى فعل وجه الانسان هذا الفعل الى الخير أو الى الشر فان حصل عنده ميل الى الاكل نتيجة الجوع كحاجة الانسان للاكل سيتحول الى فعل ، فاما ان يذهب فيسرق فيكون العقل قد اعطاه مفهوم السرقة وهو حرام ولم ينهه عنها ، أو يذهب فيبيع ويشترى ويأتى بالاكل من طريق حلال ، وهذا نفهمه من قوله سبحانه وتعالى « ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها » بين لها طريق الخير وبين لها طريق الشر ومكن الانسان من أن يختار الخير أو ان يختار الشر عندئذ يخيب من دساها ويفلح من يفعل الخير .

وهنا يترتب على هذا معنى الثواب ومعنى العقاب ، بعض الناس يقولون : أين ارادة الله سبحانه وتعالى هنا ؟ ما معنى هذه الارادة ، ارادة الله سبحانه وتعالى معناها انه يترك العبد يفعل الفعل مختارا فارادة الله ليس فيها معنى الزام العبد ولكنها تترك العبد يفعل الفعل مختارا فاما أن يختار الخير واما ان يختار الشر .

واذا سمح مولاى أن اضرب مثلا ولله المثل الاعلى . جلالته هنا الآمر الناهى فيما بيننا يستطيع ان يمنع احدا من القيام او يمنع احدا من الجلوس ، ولكنه بارادته ترك الناس من شاء قام ومن شاء جلس ، فمن قام قام بارادته ومن جلس جلس بارادته ، ولكنه لم يأمر احدا بالقيام ولم يأمر احدا بالجلوس ، وانه قام من قام باختياره وجلس من جلس باختياره ولله المثل الاعلى فارادة الله معناها تترك العبد الانسان يفعل الفعل مختارا فاما أن يختار الشر واما ان يختار

الخير ومن هنا يأتى العدل من الله سبحانه وتعالى فى اثابة المطيع وفى معاقبة العاصى على فعل الشر وهذا هو ما نفهمه من فعل الانسان ومعنى فعل الانسان امام القضاء ولا يحتج علينا بعلم الله عز وجل فعلم الله سبحانه علم انكشاف ووضوح وليس علما ملزما للانسان لان الانسان لا يعلم ما فى علم الله فعلم الله صفة قائمة بذاته فكما أن ذات الله جل جلاله لا يمكن ادراكها فصفة علم الله لا يمكن ادراكها والانسان حين يقوم بالفعل لا يقوم بالفعل بناء على ما فى علم الله يقوم بالفعل بناء على اختياره مما مكنه له الله سبحانه وتعالى أن يفعل هذا الفعل . وهذا يتضح فى آية كريمة فى قوله تعالى أو آيتين كريمتين فى قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فتغير ما بقوم من حال متوقف على تغيير الانفس .

اذن هنا يتضح من هذا ان علم الله بتغير الحال لا نشعر بالانسان فيه وانما هو من الله سبحانه وتعالى علمه ولكننا نحن نغير انفسنا والله سبحانه وتعالى يغير حالنا فالامر اذن متوقف علينا نحن ويتضح أيضا من قوله تعالى : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » فجعل نصر الله متوقفا على نصر الانسان لنفسه مع الله ان ينصر الله بطاعة الله عز وجل واتباع ما أمر به سبحانه وتعالى . بهذا اذن يتضح معنى علم الله عز وجل ويتضح من هنا اذن مقام الانسان ومسؤولية الانسان اذا وضح هذا وعرفنا اذن ان الانسان حين يحرك يده لا يشعر بقوة تمنعه من تحريك يده وانه اذا تكلم لا يشعر بقوة تمنعه من الكلام وانه اذا قام أو قعد أو شرب أو أكل لا يمنعه مانع من فعل ذلك فيما يشعر به ويحس به ، نحن ولله الحمد جميعا صائمون لا نقترب من الاكل ما الذى يمنعنا ؟ الانسان نفسه ولذلك قد يفطر الانسان خفية وخلسة وهو كذلك بنفسه فعل هذا الفعل فلم يشعر بقوة اجبرته على فعل هذه المعصية والله سبحانه وتعالى لا يتدخل فى عمل الانسان وهو القادر على أن يتدخل ، هو القادر على أن يهدى الانسان الخير وأن يلزمه بالهدى وهو القادر على أن يجعل الانسان يقع فى المعصية ولكنه لا يفعل ذلك واضح هذا من قوله تعالى « واما ثمود فهديناهم » أى أرشدناهم الى طريق

الخير والى طريق الشر فماذا فعلوا ؟ « فاستحبوا العمى على الهدى » أي اختاروا هم العمى على الهدى هدى الله سبحانه وتعالى بطريق الخير . اذن الانسان هو الذى يفعل ذلك قد يتدخل الله سبحانه وتعالى فيبعد انسانا ما عن الشر لامر يريده سبحانه ، ونراه مثلا تدخل فى منع النبى صلى الله عليه وسلم من الوقوع فى الشر أو رؤية الشر وهو صغير لان الله عز وجل فى علمه وغيبه قد اختاره للرسالة العظمى فلما ذهب هو وصديق له الى عرس فى الجاهلية ليحضره سلط الله تبارك وتعالى عليه النوم تدخل سبحانه وتعالى هنا لحماية النبى صلى الله عليه وسلم وقد يتدخل الله فى قضائه وفى قدره مما لا يملك الانسان له دفعا لحماية انسان لفعل الخير ولنجاة انسان لفعل الخير ، قد يتدخل الله سبحانه وتعالى يعلم من يعمل لله ، ومن لا يعمل لله فينجيه من الشر ومن أذى الناس ، هنا يكون الله سبحانه وتعالى قادراً على التدخل لكنه لا يتدخل الا لامر يريده سبحانه وتعالى ، وهذا واضح لان الله سبحانه وتعالى فيما أورد من الآيات الكثيرة بأنه لو شاء لهدى الناس جميعا ، وانه لو شاء لفعل كذا وكذا ، الله قادر على هذا ولكنه ترك الانسان يفعل الخير او الشر ، ربما يسأل سائل اين نحن من قوله تعالى : (يهدى الله لنوره من يشاء) هنا قد يكون المعنى ان الله يهدى من يشاء يختاره سبحانه فيهديه كما اختار الرسل ، كما اختار الانبياء ولكن ايضا هناك معنى آخر نأخذه من المعنى اللغوى « يهدى الله لنوره من يشاء » الضمير فى يشاء دائما كما يقال فى العربية يعود على اقرب عائد ، فالضمير فى يشاء يعود الى من أى يختار الله لنوره من يشاء الهداية لنفسه ، فاذا شاء هو الهداية لنفسه ، هداه الله سبحانه وتعالى ، واذا شاء المعصية ارتكس فى المعصية « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » بهذا أرجو أن اكون قد وضحت معنى القضاء وانه فى حيز قدرة الله سبحانه وتعالى ، ومعنى القدر : اذا اجتمعت كلمتا القضاء والقدر ومسؤولية الانسان أمام ذلك ، ومعنى تكليف الانسان بهذه المسؤولية ، ومن هنا الغربيون اعداء الاسلام والجهلة من المسلمين فهموا معنى القضاء والقدر ، فهموا هذا المعنى انه تواكل وانه تكاسل ، فاذا عصى انسان ما ربه ، قال : كتب الله

وقدر على ذلك ، واذا اهملت أمة من الامم واستولى عليها عدوهـا قالت : قضى الله علينا ذلك ولا راد لقضائه ، واذا فعل انسان شيئا ما ألصقه بالله حاشا لله ذلك واوقع الانسان ما فيه من نقص أو ضعف أو معصية على الله اذا كان كذلك يكون الانسان جبريا والجبرية لا تصح أبدا لان الله ما أجبر انسانا على معصية ولا أجبر انسانا على الطاعة الا من اختاره للرسالة والنبوة والا لكان الله ظالما والله تعالى ليس بظلام للعبيد « وما ربك بظلام للعبيد » والله سبحانه وتعالى له العدل المطلق فلا يمكن اذن ان يوقع عقابا على انسان أجبره على معصية . هذه الفكرة الخاطئة والتى عمل على تركيز مفهومها أولئك أعداء الاسلام وروج لها الكثيرون من الجهلة لكي يظل المسلمون فى منأى عن ربط الاسباب بالمسببات فى منأى عن العمل لكن يخرجوا الى الحياة اقوياء أعزة لو عدنا الى سيرة السلف الصالح الى النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ومن جاء بعدهم باحسان فهموا هذا القضاء والقدر فهموه فهما رائعا فلم يقعوا ابدا فى المعصية ، هذا عمر رضى الله عنه يأتى فى زيارة الى بلاد الشام لادارتها والاشراف عليها فيخرج له الصحابة وعلى راسهم سيدنا ابو عبيدة رضى الله عنه ومعه الجلة الكرام من الصحابة والانصار من المهاجرين والانصار — وكان قد وقع طاعون عمواس فى أرض فلسطين والاردن فلما استقبلوا سيدنا عمر بمكان يسمى (سرق) قيل له ان وباء الطاعون قد وقع بأرض الشام فاستشار الناس أيدخل بلاد الشام او يخرج من بلاد الشام ؟ فبعضهم أشار عليه بالبقاء وعدم الدخول وبعضهم اشار عليه بالدخول فدعا المهاجرين فقالوا كذلك وكذلك ، فدعا كبار المهاجرين وحدهم واستشارهم فأشاروا عليه بعدم الدخول فقال : اذن نرجع ولا ندخل فقال له سيدنا ابو عبيدة رضى الله عنه أفرارا من قدر الله يا عمر ؟ فقال عمر رضى الله عنه لو أنه غيرك قالها يا أبا عبيدة ما فررنا من قدر الله الا الى قدر الله لو ان لك ابلا فى أرض فيها عدوتان عدوة مخصبة وعدوة مجدبة فاذا تركت المجدبة الى المخصبة أليس دخولا فى قدر الله ؟ فسكت أبو عبيدة .

فهم الصحابة هذا واقبلوا وخرجوا يحملون نور الله وكتاب الله وسنة نبيه ويحملون حضارة الاسلام زاهية براقة هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان يهدون بها القلوب ويرشدون بها الناس فآمن الناس هداية وارشادا ولم يكن استعمال السيف الا لازالة القوة الطاغية التى وقفت أمام النور الذى يراه عامة الناس وهذا واضح فى عمل هؤلاء المسلمين وعلى ذلك ساروا فلما اخذت بلادنا بتواكلنا ايام الصليبيين وأيام التتار وأيام الغربيين يوم غزوا هذه البلاد خرج المسلمون يفهمون معنى القضاء والقدر ومعنى ان الله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان النصر من الله متوقف على نصرتنا لله فهموا معنى القضاء والقدر فعل الانسان فخرجوا بقوة الله ، اعتصموا بحبل الله ، جمعوا كلمتهم واسترشدوا بدين الله فانتصروا واستردوا بيت المقدس كما ردوا الصليبيين عن بلاد القدس والبلاد المباركة وردت كذلك الغزاة عن هذه البلاد ونحن اليوم واستسمح جلالتكم ان اتعرض لهذا الموضوع لان له علاقة بالقضاء والقدر ، وفعل الانسان نحن اليوم نواجه مشكلات متعددة اهمها مشكلتان : مشكلة تتعلق بفلسطين بقضية فلسطين وانا ابن القدس وابن المسجد الاقصى المبارك وان كنت اعيش فى الاردن هذه القضية استباح أعداء الله الممتلكات والمقدسات والاعراض والاوطان وتخاذل المسلمون فضاعت ، ويوم يعود المسلمون الى كتاب الله وسنة نبيه يستطيعون أن يستخلصوا هذه المقدسات مهما بلغت قوة الاعداء ، مهما بلغ الحبل الممدود له من الناس فانهم هم لم ينتصروا ولن ينتصروا الا بحبلين : حبل الله وحبل الله مقطوع عنهم لانهم مفسدون واليهود مفسدون وحبل الناس ما هو هذا الحبل لا بد أن ينقطع اذا نحن توكلنا على الله سبحانه وتعالى وربطنا الاسباب بالمسببات وقلنا هذا قدرنا يعنى هذه الخاصية موجودة فيها نستطيع أن نستلهم قضاء الله بالنصر وان نسير مواكب ومواكب ونقدم الشهداء تلو الشهداء حتى تقول الارض ارتويت ، وحتى تقول السماء ارتضيت . ومشكلة اخرى : وهى مشكلة الصحراء الغربية والجيوب المحتلة من هذا الوطن العزيز وبلاد الاسلام كلها وطن واحد بهذا ندين الله عز وجل هذه كذلك ينبغى الاعداد لها وبهمة امير المؤمنين الملك الحسن وهذا الشعب

الطيب المكافح المجاهد لا بد أن تسترد وان نربط الاسباب بالمسببات ولا يصح ابدا ان نتواكل او نتخاذل مهما بلغت قوة الاعداء فالله سبحانه وتعالى رتب النصر على نصرتنا لا نفسنا وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ونحن يا صاحب الجلالة استأذنك كأمة اسلامية نرتبط دائما بالعاملين المجدين القائمين على أمر هذا الدين نرتبط بهم ايمانا وعقيدة فى صلواتنا ونتطلع الى أن تتحرر بهم الاوطان ويرتفع بهم الدين ويزول الالحاد ونتطلع الى ان نكون جميعا فى رحاب الهدى مظللين بشهر رمضان المبارك دائما وابدا . . استأذنك فى أبيات عفو الخاطر خطرت لى هذا الصباح احببت ان أقولها فهل تأذن جلالتكم .

جئنا اليك وقد ضاقت جوانحنا ... الفجر والشر والالحاد ممتد

يرنو اليك حنيفا فى عقيدته ... للدين انت وانت العالم الرشد

احمل لواء الهدى والدين منتصرا ... واحمل عقيدة نعم الناصر السند

الشرق والغرب خال من سماحته ... فابسط جناحك بالاسلام يشتد

وابسطه فوق صحارانا وقد غصبت ... وابسطه فى القدس فالمحتل يضطهد

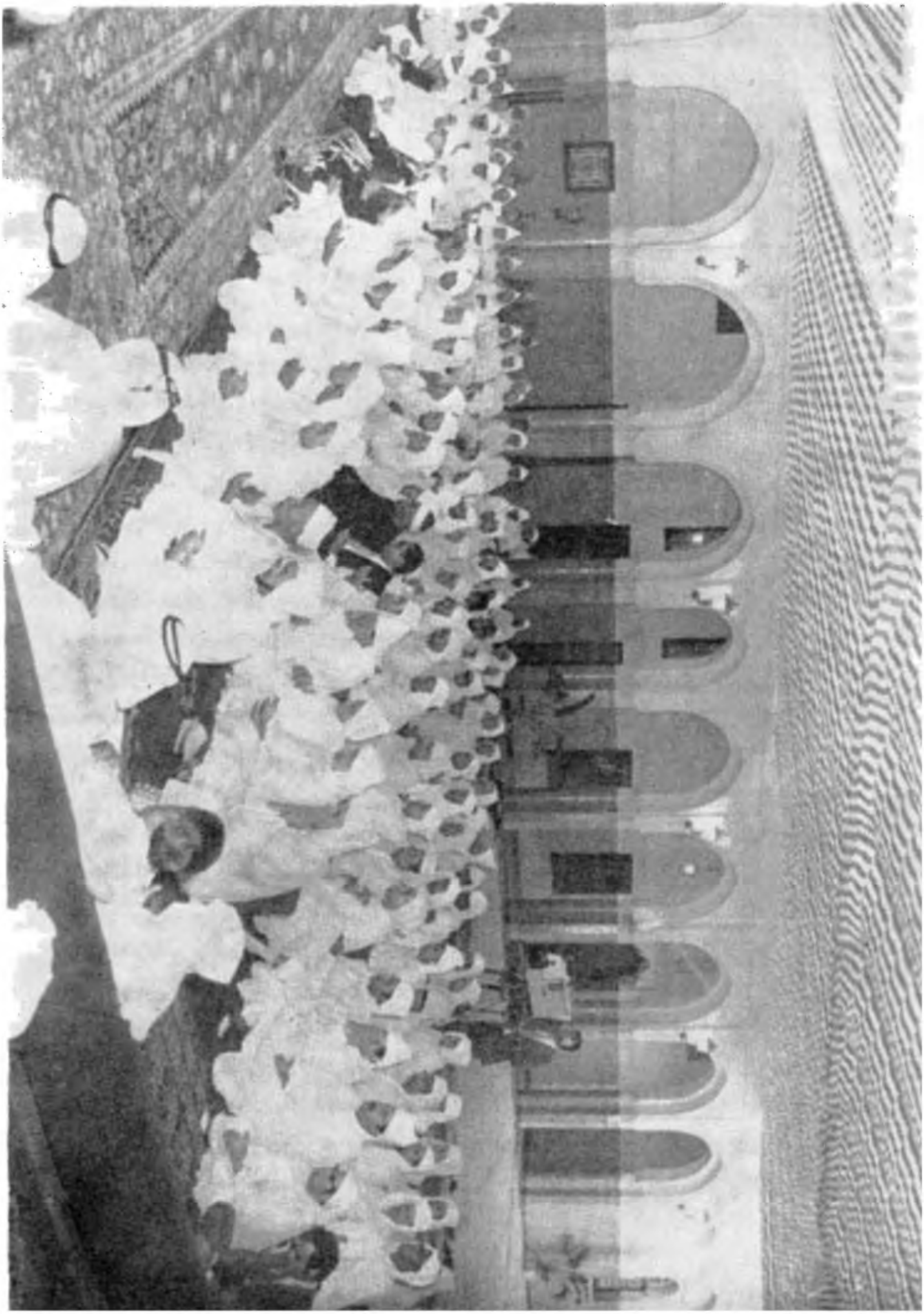
انت المليك وقد تحمل عبئها ... صحراء صاحت يد مني ومنك يد

انت المليك وقد تأصل منبتا ... الربع ربعك والمحتل محتشد

ان القضاء هنا رهن بعزمته ... ان تنصروا الله ينصركم ويعتمد

تغير الحال مرهون بأنفسكم ... فغيروها وان الله مستند

واسأل الله سبحانه وتعالى فى ختام هذا الدرس الدينى أن يحفظكم وان يكلأكم ويقويكم على اعدائكم وان ينصر بكم الاسلام والمسلمين وان يرفع بكم الحيف عن المسلمين وعن هذا البلد وان يقويكم مع اخوانكم الملوك والرؤساء فى مشارق الارض ومغاربها ويهديكم الى العمل بكتابه وسنة نبيه وانتم لذلك عاملون ، واسأل الله سبحانه وتعالى ان يوفقنا جميعا لما فيه الخير وان ينصر الامة الاسلامية على اعدائها وان يؤلف بين القلوب وأن يرفع عنا مقته وغضبه وان يعاملنا باحسانه انه سميع مجيب وعلى الله سبحانه وتعالى نتوكل ان الله معنا ومعكم ومع المسلمين ونسأله سبحانه أن يوفقنا لما فيه الخير . يا صاحب الجلالة والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته والحمد لله رب العالمين .



الدرس الثالث	8 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم.. صدق الله العظيم

الآيات من سورة آل عمران

★

ألقاه :

العلامة مولاي عبد الواحد العلوي

رئيس المجلس العلمي وعميد كلية الشريعة بفاس



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله واصحابه والتابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين والسلام على المقام العالى بالله ، قال الله وهو أصدق القائلين بعد اعوذ بالله من الشيطان الرجيم : « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ، فان حاجوك فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءاسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » بعدما بين الله سبحانه وتعالى جزاء المتقين فى الآية التى قبل هذه ، وذكر اوصافهم واصنافهم فى قوله تبارك وتعالى : « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار » بين ان أصل الايمان واساس الاسلام التوحيد ، فتوحيد الله تبارك وتعالى أصل الاسلام وأساس الايمان وهذه الآية الكريمة مع من يومن بالله ولا ينكر وجوده ولسنا بصدد بيان وجود الله لاننا الآن فى مقام آخر وهو اثبات الوحدانية لله حيث ينكر ذلك المشركون ويقولون « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » والنصارى واليهود أشركوا بالله « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يوفكون اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الاها

واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » ، فلما كان هؤلاء النصارى او المشركون يشركون بالله مع ايمانهم بوجوده جاءت هنا شهادة وشهود ومشهود به ، فالمشهود به هو التوحيد « شهد الله انه لا اله الا هو » فالله سبحانه وتعالى يقول فى هذه الآية : « شهد الله انه لا اله الا هو » فهذه هى الشهادة والشهود الله وملائكته واولوا العلم فلقد شهد الله سبحانه وتعالى ليبين لاولئك الذين يشركون به ويتخذون له ولدا ان الله منزه عن الولد « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد » فهو الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا تعالى الله عن أن يكون له ابن أو يكون له بنات كما قالوا : الملائكة بنات الله ، فلتحقيق الوحدانية التى هى صفة من صفات الذات العالية والتى هى من الصفات السلبية التى سلبت عن مولانا أمرا لا يليق به جاءت هذه الشهادة ، ويقال : شهد بمعنى حضر وهذا أصل الكلمة ومن هذا قول الله تبارك وتعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » اى من شهد ولم يكن مسافرا فى شهر رمضان عند رؤية وثبوت هلال شهر رمضان فليصمه ، ثم بين الله تبارك وتعالى أن من كان مريضا أو كان مسافرا فعليه عدة من أيام أخر ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، هذه هى شهد بمعنى حضر ومنه قول طرفة بن العبد فى معلقته وهو من شواهد النحو :

الا أيهذا الزاجرى احضر الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلدى

الا ايهذا الزاجر بأن أحضر الوغى والحرب وان احضر للقتال هل يمكنك أن تؤخر من اجلي : هل انت مخلدى حتى لا اموت فيما اذا تأخرت عن القتال : هذا رأى شاعر جاهلى شجاع حماسي يقول بأن التأخر عن الحضور فى ميدان القتال لا يزيد فى الاجل قلنا وان شهد هنا بمعنى حضر فى الآية الكريمة وفى هذا الشعر الجاهلى ولكن يقال أيضا شهد بكذا بمعنى اعلم به واخبر ولابد أن يكون لهذا الشاهد مستند علم وان يكون شاهدا بما يتيقنه ويعلمه ولذلك قال الفقهاء : على مثل الشمس فاشهد ، وانه لا يجوز للشاهد ان

يشهد بغلبة الظن الا فى صور لا يمكنه عادة أن يصل الى اليقين ، ولذلك يقول المتحف ابن عاصم فى تحفته :

وغالب الظن بـه الشهادة بحيث لا يصح قطع عادة

هذه الشهادة كلنا يعرفها ، تقول : هذه شهادة البكالوريا ، وهده شهادة العالمية ، فلا شك وانها أشياء تشهد وتدل على شيء فكذلك آيات الله الآيات الكونية التى نصبها للدلالة على وحدانيته ، شهادة بوحدانيته وانه لا اله الا هو ، قالوا هنا : شبهت هذه الآيات بالشهادة فى اثبات الحق واثبات الاشياء للدلالة عليه ثم حذف المشبه وهو الآيات واقتصر على المشبه به وهو الشهادة ثم اشتق من الشهادة شهد فكانت استعارة تصريحية اصلية فى المصدر ، تبعية فى الفعل .

هذا تخريج من عدة تخريجات للنحويين والمفسرين فى هذا المقام ، « شهد الله » فشهادة الله سبحانه وتعالى بتحقيقه لوحدانيته بالدلائل التى نصبها على هذه الوحدانية للرد على المشركين من اليهود والنصارى والجاهليين الذين يشركون بالله ، وهذه الآيات كما قلنا هي الكون كله .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

اذن الوحدانية هى المقصود هنا بهذه الآيات لا اصل وجود الله لان ذلك مقام آخر ، وموضوع آخر وقد قالوا بأنه معلوم بالضرورة وليس الوصول الى اعتقاد وجود الله بنظرى فلا يحتاج الى دليل عقلى ، وذلك لان السير يدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير كما قالوا ، الا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟ ولكن المتكلمين ابوا الا أن يتكلموا على وجود الله بالادلة العقلية والبراهين القطعية والآيات الكونية فجاؤا بعدة دلائل مما لم يبق معه لقائل ما يقول .
اما الذين يريدون أن ينكروا الوجود فانه لا يمكنهم ذلك الا اذا احاطوا

بجميع الاشياء حتى يمكنهم الحكم بالنفى على انه لا شىء ولكن قلنا فى البداية ، هذا ليس بموضوع درسنا ، ولنرجع الى الموضوع .

وشهادة الملائكة ، بتحقيقهم وحدانية الله فيما بينهم وتبليغ بعضهم ذلك للرسل ، والملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يومرون ، وكلهم علماء أى يعلمون ما علمهم الله بخلاف الخلق الآخر فمنهم عالمون ومنهم جاهلون ، اما الملائكة فكلهم عالمون بما علمهم الله ، وهم يبلغون رسالة الله الى عبيده الذين اصطفاهم لان يكونوا من انبيائه ورسله ، فاذا جاؤا بما امرهم الله بتبليغه الى بعض المصطفين الذين اصطفاهم الله ، فان من لم يؤمر بتبليغ ذلك الشرع فهو النبى وان أمر بتبليغه فهو الرسول ، فالرسول : اوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه وهو أعم من النبى الذى اوحى اليه بشرع ولم يومر بتبليغه فبينهما العموم والخصوص بالاطلاق هذه وظيفة الملائكة فى هذه الشهادة التى يشهدون بها على انه لا اله الا هو ، وانه الواحد الاحد الفرد الصمد أما شهادة اولي العلم ، فلا شك وانها ايضا بايمانهم بهذه الوحدانية ، واعتقادهم انه سبحانه وتعالى لا شريك له وانه الواحد الفرد الصمد ، ليس له شريك لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله ويرشدون الناس ويدعونهم الى ذلك بما اهلهم الله له بالدلائل والحجج التى يثبتون بها ما يأمرون به وما يبلغونه امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع عندما قال : الاهل بلغت اللهم اشهد . ثم قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فالعلماء هم الذين يبلغون هذا الدين وهم مأمورون بذلك محتم عليهم أن يقوموا بهذا الواجب لانهم ورثة الانبياء ، ففى ابى داود عن ابى الدرداء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لو يورثوا مالا ولا دينارا وانما ورثوا العلم) فالعلماء ينبغى لهم اذا ورثوا عن الانبياء هذا الارث وهو تبليغ الدين وارشاد الناس اليه وبيانهم له لابد أن يقوموا بهذا الواجب والا كانوا آثمين .

بقي علينا ان نقول : هنا مضاف ومضاف اليه هنا أولوا وهو مضاف والعلم مضاف اليه ، والاضافة تكون لادنى مناسبة ، فما المراد بالعلماء وما المراد بالعلم هنا ، فالمراد بالعلماء ، اختلف المفسرون فى المراد بالعلماء فقال بعضهم : العلماء هنا الانبياء والرسل ، وقال بعضهم : العلماء هنا الصحابة ، وقال بعضهم : العلماء هنا اهل الكتاب ، وقال جار الله الزمخشرى العلماء هنا علماء المعتزلة قال الفخر الرازى العلماء فى هذه الآية المراد بهم هم علماء الاصول ولكن السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار قال لا معنى للاختلاف فى المراد بالعلماء ذلك ان المراد بالعلماء كل من كان قادرا على أن يبلغ بالدليل والبرهان فقال وهم اهل العلم بالبرهان القادرون على الاقناع فهم موجودون فى هذه الامة أى الامة المحمدية وفى الامم السابقة لان هذه الآيات القرآنية تجر ذيلها على الجميع وكان هذا الرأى الذى أبداه السيد محمد رشيد رضا رحمه الله رايا حقيقيا ينبغى الا يقصر لا على الانبياء ولا على الرسل ولا على أهل الكتاب ولا على علماء المعتزلة ولا على علماء الاصول بل كل من كان قادرا على البرهان وعلى الاقناع وعلى التبليغ فهو من أولى العلم المرادين هنا وأولوا العلم لا شك وان هذه الاضافة ايضا بالنسبة الى الانبياء لانهم اصحاب العلم والعلم هنا الوحى ، ومناسبة الاضافة هى انه نزل عليهم ولانهم بلغوه كما أمرهم ربهم ان كانوا رسلا أو عملوا فى انفسهم ان كانوا انبياء وبالنسبة الصحابة لانهم حملوا الدين عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوا اليه وهم من العلماء العظام وبلغوه كذلك وكذلك ايضا أهل الكتاب المومنون الذين بلغوا الدين على حقيقته ولم يحرفوه فلذلك قال هنا وان المراد بأولى العلم هم من لهم علم ومقدرة من البشر ، وقال غيره من الثقلين حتى الجن يعني من الجن والانس لان الجن مكلفون ومخاطبون يدخلون الجنة ان آمنوا وعملوا الصالحات ويعاقبون بالنار ان استحقوا ذلك فهم مكلفون ولذلك قال بعضهم أولوا العلم هنا يمكن أن يراد ما يشمل الثقلين وقال أبو حيان رحمه الله فى « البحر » والمراد بأهل العلم من كان عالما من البشر . وكيف ما كان الحال فالذي يدل عليه عدة آيات وعدة احاديث وما يعرف من الدين هو الا يقصر أولوا العلم على

خصوص علماء أهل الكتاب ولا على الانبيـاء ولا على الصحابة ولا على علماء المعتزلة ولا على علماء الاصول بل على البشر أو علـى الثقلين اى على كل من يستطيع أن يبلغ بالدليل والبرهان انه لا اله الا هـو .

أما الوحي فقد قالوا بأنه يطلق على ما يوحي الله به من كتب بواسطة الملائكة الى الانبياء والرسل ويقال : اوحى اليـه بكـذا أى ارسل اليه رسالة ويطلق الوحى على الالهام كما يطلق الوحى ايضا على الكتـابة .

أما بالنسبة الى الانبياء فالوحى على انواع فمنهم من يأتيهم به الملك ومنهم ما يحدث فى روعهم ومنه ما يتلقونه عن الله عنـد سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ومنهم من يرى الرؤيا الصالحة ، فتجـيء كفلق الصبح كما قالت عائشة رضى الله عنها ، فالوحى بالنسبة الى الانبياء والرسل انواع والوحى كذلك ايضا كل ما يطلق على الالهـام ولا يختص بالانسان ، ومنه قول الله : واوحى ربك الى النحـل بمعنى انه الهمها : « واوحى ربك الى النحل ان اتخـذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » هذا الهام ، ويطلق الوحى ايضـا على الكتابة ويصغر على وحي ومنه قول لبيد بن ربيعـة رضـى الله عنه فى معلقته وقد اسلم وحسن اسلامه ، ولم يقل من الشعر بعـد اسلامه على الاصح الا قولـه :

الحمد لله اذ لم يأتنـى اجلـى حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

يقول لـبـيـد :

عفت الديـار محلهـا فمقـامها بمنى تـابـد غولهـا فرجامها

فمدافع الريان لم يعف رسمهـا خلقا كما ضمن الوحى سلامهـا

يقول : اننى مررت على ديار العشيرة والاحبة وقد فارقناها منذ سنين عديدة ومرت عليها الرياح والديم ولكن بقيت الاثار بقيت فى مرابـط

الابل وبقيت فى الاثافى وبقيت فى مجالسهم آثار كأنها كتابة منقوشة على الحجر ، والسلام هى الحجارة ؛ ومن المعلوم ان الكتابة اذا كتبت على الحجارة تبقى اثرا من الآثار فهو يقول : انما سودوه فى تلك الارض لطول مكثهم فيها بقى كأنه كتابة فوق حجارة . خلقنا كما ضمن الوحى سلامها ، اذن أولوا العلم يشهدون كذلك بأنه لا اله الا هو ، وذكر بعضهم هنا ان المراد بالشهادة هى الاخبار المقرون بالعلم ، أو هى عبارة عن الاظهار والبيان ، قال السيد رشيد رضى : وهذا يمكن أن يكون بهذا المعنى بالنسبة لله وملائكته وأولى العلم ؛ فشهادتهم كلهم اخبار واعلام مقرون بالعلم ، أو ظهار أو بيان لهذه الحقيقة وهى ان الله واحد احد فرد صمد .

هذا قول الله تبارك وتعالى : واولوا العلم ، ثم ذكر الله بعد هذه الآية ما هو دليل وما هو من الآيات الدالة على انه الواحد الاحد ، فالآيات كثيرة ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ان السماوات والارض وما خلقهما آيات لاولى الالباب ، فقال : « ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » يتفكرون ويتذكرون ولذلك بجب على العلماء ، علماء الطب وعلماء النبات وعلماء الافلاك والنجوم اذا كانوا بصدد تنجيز مهنتهم وبحثهم لابد وان يتأملوا وينظروا الى انهم مطالبون بأن يقووا الناحية الروحية فى نفوسهم فلا ينبغى لهم ان يشتغلوا فى اعمالهم غافلين عن الناحية الروحية مقتصرين على الناحية المادية فاذا فعلوا ذلك اى تأملوا وتفكروا ولم يقتصروا على الناحية المادية فلا بد وان يصلوا الى الحقيقة وهي ان الله موجود واحد لا شريك له قال تعالى : « وفى انفسكم افلا تبصرون » وقال « ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب » وقال « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » ولقد قال ابن رشد الفقيه الفيلسوف الطبيب : من مارس علم التشريح ازداد بالله ايمانا يعنى ، التشريح الجسمانى للحيوان على

الاطلاق انسانـــا وغيره فيقول من مارسه ازداد بالله ايمانـــا . والله تبارك وتعالى يقول فى الآيـــة الكونيـــة الاخرى فى سورة المومنـــون « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفـــة فى قـــرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنـــا العلقة مضغة فخلقنـــا المضغـــة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخـــالقـــين » .

هذه الآيات تدل على الوجود وتدل على الوحدانية معا « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » هنا بيتان حفظتهما فى شرح مقامات الحريري ولكن معناهما غير صحيح وهما :

قال المنجم والطبيب كلاهمـــا لا تحشر الاموات قلت اليكمـــا

ان صح قولكمـــا فلست بخاسر او صح قولـــى فالخسار عليكما

نحن نقول وان الطب وعلم النجوم والنظر فى الآيات الكونيـــة يهدى الى الايمان بوجود الله والى وحدانيته وننسب للطبيب والمنجـــم الاشراك ونفى وجود الله ، هذا شىء غير معقول فلاجل ذلك ربمـــا كانت هذه الابيات من قبيل التنديد بالعلماء الذين يشتغلون بالافـــلاك وبالطب وبالتنجيم وبالكمياء والفيزياء وبالحكمة ولا شك ان هـــذه الاشياء تهدى الى الحق وترشد الى الايمان بالله واعظم دليـــل على ذلك ان الله تبارك وتعالى يقول هنا « شهـــد الله انـــه لا اله الا هـــو والملائكة وأولوا العلم » ثم يقول بعد ذلك قائما بالقسط ، اى حالـــة كونه سبحانه وتعالى قائمـــا بالقسط والقسط والقسطاس : العـــدل وهو العدل باللغة الرومية كما فى صحيح البخارى ويطلـــق القســـط والقسطاس على الميزان « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » فقول الله (قائما بالقسط) حال من الذات العالية وقرىء القائـــم بالقسط على انه صفة وقرىء القيم بالقسط اى بالعدل والله سبحانه وتعالى قائم بالعدل فى كل شىء فى الدين والشريعة وفى الاكوان والطبيعة وفى كل شىء خلقه وفى كل شىء قـــدره ، وقـــدره على اســـاس العـــدل

والتساوى وعدم الافراط والتفريط لان الله سبحانه وتعالى وضع هذا الكون فى وحدة نظام مما يدل على وحدة خالقه فوحدة نظـام الكون تدل على وحدة الخالق فهو سبحـانه جعـل كـل شىء بالعـدل فى الشريعة ، جعل التوحيد بين الاشراك وبين التعطيل ، وما من صفة صفة محمودة الا ويكتنفها صفتان مذمومتـان أى الطرفان وخـير الامـور الوسـط

حـب التنـاهي شـطـط خـير الامـور الوسـط

فالتوحيد وسط بين الاشراك والتعطيل ، والشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين البخل والتبذير وكل من البخل والتبذيـر والتهور ، والاسراف فى الاشياء كلـه مذمـوم والوسط هو الممدوح فلذلك كان قائما بالقسط أى بالعدل فى الديـن والشريعة وفى الكـون والطبيعة « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتـم بين الناس أن تحكموا بالعدل » جعل العبـادات والآداب والاعمال مبنية على أساس العدل بين القوى الروحية والبدنية وبين النـاس بعضهم مع بعض ولذلك نهى عن الغلو والافراط فى الدنيـا والدين ، فقال سبحانه وتعالى : « قائما بالقسط » قلنـا فى الديـن لا ينـبغى التوغل ولا ينبغى الافراط ولا التشدد ولا الرهبانيـة فى العبـادات ، والاعمال ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيح : « لن يشاد احد هذا الدين الا غلبه ، فاوغلوا فيه برفق فان المنبـت لا ظهرا ابقى ولا أرضا قطع » يجب على المسلمين أن يتأملوا فى هذا العدل وفى هذه الآيات وفى هذه الوحدانية . حتى لا يفرطوا ولا يفرطوا ويجب عليهم كذلك أن لا يسرفوا فى الانفاق « ولا تبـذر تبذيـرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » وان لا يسرفوا فى العبادات والاعمال وكل شىء وضعه سبحانه وخلقه ، قد خلقه بتقديـر عجيب وباتقان « صنع الله الذى اتقن كل شىء » فهذا أيضا من الآيات الدالة على وحدانيته وانه واحد فى ذاته وفى أفعاله وفى صفاته .

قال الله تبارك وتعالى : «قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم» بعضهم يقول : ان هذه الجملة مؤكدة للاولـى وبعـض المفسريـن

يقول : انها مؤسسة ، بعدما بين المشهود به والشهادة والشهود ، وهذه الآية قائمة على الآيات الكونية التى خلقها الله ، فلم يبق اذن الا ان يقول السامع أو يقول القارىء أو يقول المعلم : « لا اله الا هو العزيز الحكيم » العزيز القوى الذى لا يغلب ولا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، يا عزيز انصرنا ووفقنا وانصر راية أمير المومنين اينما حلت وارتحلت واينما كانت يا عزيز — العزيز الحكيم فى اقواله وفى اعماله وفى شرعه وفى قضائه وقدره فهو حكيم سبحانه وتعالى فى كل هذه الاشياء ، وأتكلم الآن على مسألة الحكمة فى القضاء والقدر حسب رأيى الضعيف .

ذلك أن مسألة القضاء والقدر شىء يجب الايمان به فالايمان لا يتم الا بأن نؤمن بقضائه وقدره خيره وشره حلوه ومره فلا شك وان هذه المسألة مسألة مفروغ منها وموضوعها هو اننا اذا لم ننجح بعد اتخاذ الاسباب يكون هذا الاعتقاد تسلية لنا ومانعا من اليأس لاننا نعتمد على أن ما قدره الله كان وما لم يقدره لم يكن واذا اقدمنا وغامرنا أو عارضنا أو توجهنا الى اعداء الانسان الى اعدائنا من بنى الانسان أو أعدائنا من الشياطين المردة أو اعدائنا من الزواحف والحشرات السامة فلا شك واننا نعتمد كذلك على القضاء والقدر فنقول « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » فعقيدة القضاء والقدر شىء ضرورى للانسان ومن نعم الله على المسلمين ان يجعل الله هذه العقيدة ويأمرهم بأن يعتقدوها ويعملوا بها وانهم لا يجزعون اذا لم ينجحوا فلا يحملهم الامر على أن يكفروا أو على أن ينتحروا كما انها تشجعهم على أن يذهبوا للاماكن المخوفة لنصر الله ونصر دين الله . ولقد قال سيدنا علي بن ابى طالب كرم الله وجهه وهو فى ميدان القتال :

فى أى يومى من الموت أفر   أيوم لم يقدر أم يوم قدر ؟

فكانت هذه الكلمات تشجعه ويشجع بها نفسه ويشجع بها الاتباع والاصحاب والمجاهدين لان الانسان يعتقد انه لا يمكن ان يموت فى ميدان القتال اذا لم يكن قد قدر عليه انه يموت فى ذلك الميدان

لان الانسان يموت باسباب أخرى كالزلازل والفيضانات والوحوش والظالمين وحوادث السير وغير ذلك :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الاسباب والموت واحد

اذن عقيدة القضاء والقدر نعمة من الله علينا وشيء لازم لابد أن نستحضره في كل حركة وفى كل عمل لنتأسى اذا لم ننجح ولنشجع اذا اقدمنا وأردنا أن نعمل .

اذن هذه ناحية لا دخل لها أصلا في مسألة الجزاء بالعقاب والثواب لان الله تبارك وتعالى عرض الامانة على الانسان « انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » لقد حمل الانسان هذه المسؤولية وهذه الامانة عن رضى وطواعية واختيار فهو التزام ، ومن المعلوم أن من التزم شيئا لزمه أى التزم وفيه اهلية للالتزام فكانت أهلية الالتزام هي التى نشأ عنها ان كان العقاب والثواب عن المعاصى والطاعات يعنى كان الجزاء فهو التزام بيننا وبين خالقنا في الغيب والدليل على ذلك الواقع الذى نحن عليه الآن ، نحن نجد انفسنا أن لنا ارادة وان لنا قدرة نترك ما شئنا ان نتركه ونفعل ما شئنا ان نفعله عن طواعية واختيار لاننا تحملنا الامانة عن طواعية واختيار .

وفرق كبير بين موضوع القدر والقضاء الذى نومن به ولا نعرف ان هذا من الاشقياء او هذا من السعداء ، هذا شيء لا نعرفه استأثر الله بعلمه ولذلك قالوا ما قطع اكباد العارفين الا الخوف من سوء الخاتمة وكان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) وفى الحديث الشريف : ان احدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها الا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . ولهذا لا يمكننا أن نعرف أن هذا سعيد فالانسان معرض

لان يتغير فى كل وقت قـــد يكون صـالحـــا ويصبح طالحــا والعكس « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » فلاجل هذه المسألة لابـــد وأن يكون القدر الذى نومن به موضوعه موضوع آخر بعيد وبعيـد جدا عن مسألة ان لنا قدرة ولنا ارادة لان القضاء والقـدر فى اشياء لا ندرك حقيقتها ولا نعرفها وانما هى لتسلينا وما هى الا لتشجيعنــا ولان نرضى بما وقعنا فيه اما الاخرى فانـــنا تحملنا الامانـــة والتزمنا بها عن طواعية واختيار ومن التزم شيئا لزمه ونحن كاملو الاهليـة هذا قوله تبارك وتعالى : انا عرضنا الامانة الى قوله وحملها الانسان انه كان ظلوما جهـــولا .

ارجو ان اكون قد وفقت فى هذا الرأى فان اخطأت فلا بأس ثم قال الله تبارك وتعالى « ان الدين عند الله الاسلام » روى محمد بن اسحاق ان وفد نصارى نجران دخل المسجد النـــبـــوى فتكلم رجلان وهما السيد والعاقب النصرانيان فقال لهمـــا النبى صلى الله عليـــه وسلم : اسلما فقالا له : قد اسلمنا قبلك ولا نحتاج ان تقـــول لنـــا اسلما ، قال لهما : كذبتما يمنعكما من ذلـــك ادعـــاؤكم ولـــدا لله وعبادتكم الصليب فلذلك قال بعض المفسرين : وان ؛ شهد الله انه لا اله الا هو تمهيد لقوله تبـــارك وتعالى « ان الديـــن عند الله الاسلام » وقلنا ان المقام عندنا ليس فى وجود الله وانما هو فى الوحدانية مـــع اليهود والنصارى الذين يشركون بالله فالآيـــات مرتبط بعضها ببعض « ان الدين عند الله الاسلام » الدين يطلق فى اللغـــة على الجـــزاء ومنه قوله تبارك وتعالى « مالك يوم الديـــن » مالـــك يـــوم الجزاء ويخالف هذا القول آخرون فقالوا المراد بيوم الدين هنا يوم الحساب هكذا فسروه . ولكن اطلاق الدين بمعنى الجزاء كثير فى اللغة العربية منه قولهم : كما يدين الفتى يدان وان كان يديـــن ليســـت من قبيـــل الجزاء وانما ذكر على سبيـــل المشاكلة على حـــد قولـــه تعالـــى : « ومكروا ومكر الله » يستحيل المكر فى حقه فكذالك كما يديـــن هذه ليست نوعا من الجزاء ولكن الثانية وهى يدان بمعنى الجزاء ومنـــه قـــول الشـاعر الحماسى :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم اخوان
عسى الايام أن يرجعن قوم كالذى كانوا
فلما صرح الشر فامسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتخضيع واقران

هذا من شاعر جاهلى يذكر فى حماسته هذه الآراء وهو رأى صائب لا بأس به وانه قد اتخذه كثير من الناس ونقلوه واختاروه واختاره ابو تمام وجعله من بين اشعار حماسته ، اذن يطلق الدين على الجزاء ويطلق على الحساب ملك يوم الدين ، يوم الحساب ومن نوقش الحساب عذب فهو مالك يوم الدين ويطلق الدين على الشرع وعلى الملة وعلى الخضوع والطاعة ، واطلاقه على الخضوع والطاعة اطلاق مجازى من قبيل المجاز المرسل وذلك ان الخضوع والطاعة سببان للجزاء فهو من باب اطلاق المسبب على السبب وعلاقته هنا السببية فهو مجاز مرسل كما هو معروف عند علماء البيان .

اذن يطلق الدين على الخضوع والطاعة ويطلق على الملة . اذن فالدين مجموع عقائد واعمال يلقنها رسول من عند الله يعد العاملين بها بالنعيم والمعرضين عنها بالعقاب . هذا هو مسمى الدين وهو مجموع عقائد من جملتها صفة الوجود وغيرها من الصفات الاخرى وغير ذلك من الاصول فليس الدين العقائد فحسب ولكنها مع الاعمال وقيل ان الدين يطلق ويسمى باعتبار وضعه وبيانه بالشرع وباعتبار جملة التكاليف بالملة وباعتبار انه الخضوع وطاعة الشارع بالدين هذه المجموعة من العقائد والاعمال هى مسمى الدين كما قلنا والدين عند الله هو الاسلام (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم ؛ الى قوله : سريع الحساب) والى هنا وصل هذا الدرس وادعو لسيدنا أمير المؤمنين

بالسلامة والعافية والنصر المبين وندعو له كذلك بأن ينصر الله اعلامه ويوفق أمته وان يجمع الكلمة عليه وان يبلغه كل آماله وأن ينصره وأن يريه الحق حقا فيتبعه والباطل باطلا فيجتنبه وأن يكون له وليا ونصيرا وأن لا يخيب رجاءه فى شعبه ولا فى أسرته الخاصة أو العامة وأن يحفظه فى كل الناس الذين يقومون بالعمل بجانبه والاخلاص فى كل اعمالهم وأن يقر عينه بساداتنا الامراء كلهم خصوصا ولي العهد سيدى محمد وصنوه الامير مولاى رشيد وأن يريه فيهم كل ما يريد آمين ، وأن ينصر المسلمين ويؤلف بين قلوبهم وأن يرد فلسطين على المسلمين وأن يهزم الكافرين وأن يبلغنا آمالنا فى تحرير الارض المغتصبة جنوبا وشمالا وأن يوحد المسلمين وأن يجمع كلمتهم وأن لا يجعلهم متفرقين مختلفين كما اختلف الذين من قبلهم وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وهذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فى مثل ما وقع فيه اليهود والنصارى والذين من قبلهم نرجو الله أن ينجيهم من الافتراق والاختلاف الحقيقى وحتى اذا كان هناك اختلاف وجهات نظر ، نرجو أن يكون كسحابة صيف وأن يجعل من ذلك كله سببا فى الالفة والمحبة والختم لمولانا امير المومنين .

الدرسُ الرابع

9 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

الأمّة الإسلامية
بين ماضيها وحاضرها

" وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس "

صدق الله العظيم

ألقاه :

فضيلة العلامة الدكتور الحبيب بلخوجة
عميد كلية الشريعة بتونس



بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين ، سيدنا الامـــــام الحسن الثانى أيده الله ونصره ، فى هذه المجالس الشريفة ، العلوية المولوية الحسنية التى تتألق سنى ، وسناء بما يفصل فيها من ذكـــر حكيم ويبسط فيها من حكمة نبوية شريفة ، وفى هذا المـــلأ الكريم من رجال الدولة وقادة الفكر واعيان العلماء ، يعجز لسانى ان اتقـــدم بشىء من القول امام جلالتكم ، ولكـــن الذى يشجعنـــى على المضى ، ويرفع الحبسة عن لسانى ، ويحل العقدة عنها انما هو اذنكـــــــم السامى هذا الاذن الذى اجد فيه لى تشجيعا ، وتقوية على الاسهام بجهـــد مـــقـــل .

فاسلم أمـــير المؤمنين لسنـــة ... أحييتها والناس حيرى ضلـــــل
ورعيـــة احسنت رعى فئـــاتها ... حتى غدت والعدل فيها يهمـــل
الله يشكر منك سعيا صادقـــا ... فى حفظهـــا ثم النبى المرســـــل

فاسلم امير المؤمنين لهذه الامة التى جاهدت فى سبيل اعلاء كلمة الاسلام والتى استطاعت أن تنشر حقائقه فى مشارق الارض ومغاربها . اسلم لهذه الامة التى كانت فى عهدها القريب منذ انبلاج فجر هـــــذا القرن ، تقاوم وتكافح وتجاهد من اجل تحقيق العزة القومية فى بـــلاد الاسلام فى كل رقعة من رقاعه وفى كل أرض من أراضيه .

اسلم لهذه الامة التى نجدها اليوم ما زالت تحتاج الى الدعم ، وتتطلب شيئاً من الايد والقوة يعينها على المضى فى تلك السبيل التى شقها لنا اسلافنا ، ومهدوها لنا بما دلونا عليه من خير وما ضربوه من أمثلة البطولات . هذه الامة الاسلامية التى تشكو اليوم ادواء خطيرة ، تشكو حالها فى فلسطين ، وتشكو وضعها فى البلاد التى ما زالت تخضع للاحتلال الاجنبى ، وتشكو ايضا وضعها فى البلاد التى توجد فيها أقليات اسلامية ولا تجد من يسعفها ، فهى فى كل هذه البلاد وفى جميع هذه الاقطار تأخذ من سنن الاولين ومن هدى السابقين والاسلاف ما يعينها على تحقيق غدها الافضل ، ثم ان هذه الامة المتشرفة بالانتساب الى نبيها محمد صلى الله عليه وسلم ، والمتمسكة بالعروة الوثقى هى بعد جهادها الكبير وبعد تحريرها لكثير من أوطانها ، وبعد شعورها بعزتها ، تشعر بتفكك فى داخلها ، وانقسام فى جماعتها ، فاذا هى متكونة من جمهرتين جمهرة تتمسك بالدين وتعض عليه بالنواجد ، وتأخذ بأحكامه ، ولا تريد به بديلا ، ولكن هذه الجماعة كثيرا ما تقف عند الحدود الشكلية للمعانى الدينية ، وكثيرا ما تقف عند الاشكال ، ولا تتعمق الحقائق ، ولا تدرك الاسرار التى جاءت بها الشريعة الاسلامية .

والجمهرة الاخرى ، هى جمهرة يقظة ، جمهرة متحركة وجدت فى حقيقة الحياة فى هذا الوجود الانسانى ما يدفعها لان تكون مواكبة للنهضة ومتطورة ، لكن وأسفاه هى لا ترى فى الدين شيئا يعتمد ولا فى المبادىء الاسلامية شيئا يرجع اليه ، ومن أجل ذلك اصبحت ضالة مضلة وأخذت ريح الاضطراب تعصف بها .

ونحن عندما ننظر للفئتين أو للجمهرتين . . نجد الاولى تتهم الثانية بالانحلال الاخلاقى ، وبالفسوق عن الدين وبالاعراض عن المبادىء الاسلامية ، وتتهمها بكونها انها اصبحت منحلة وانها لا تنتسب الى هذا المقوم الذى يجمع بين افراد الامة الاسلامية ، وتنظر الطائفة الثانية الى الاولى فتتهمها بالجمود وتتهمها بالتحجر وبكونها قاصرة عن ان تحقق اية مواكبة للدول القوية والامم الناهضة التى نشاهدها

فى هذا المجتمع الانسانى فى عصرنا الحاضر وكأنى بهؤلاء واولئك ، وصدق العزم يملأ ما بين جوانح كل فرد منهم ليسوا الا بمتمثلين بقول . . . اليربوعى حين يدعى الى الأمر الخطير :

كنا اذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب

وفعلا فان الخير هو موجود فى الفئتين ، والنعمة التى نريد الحصول عليها متوفرة فى الجانبين ، لكننا نحتاج الى أن نجمع بينها وأن نهديها سبيلها وان نريها الطريق ، وما هذه الاجتماعات التى تعقد بحضور ورئاسة مولانا الامام الا سبيلا لتحقيق هذه الدعوة ، وطريقا للجمع بين هاتين المجموعتين ومنهجا قويما يهدى الناس الى خير السبيل .

واذا كانت هذه الاجتماعات فى شهر رمضان ، الذى هو شهر الصيام ، وشهر القيام ، وشهر الذكر فان التدبر للآيات يكون عوناً على تحقيق هذه الاهداف وعلى معرفة ما فى الشريعة الاسلامية والنصوص القرآنية والحديثية من حقائق لا بد من تدبرها ، ومن تأملها ومن الاخذ باسبابها .

قال تعالى جل ذكره يمدح هذه الامة ، هذه الامة التى اخرجها للناس بصنعه باختياره بارادته فيقول تعالى : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ثم يلتفت الى الجماعة نفسها ، هذه الجماعة التى أوجدها بجعل منه بكلمة كن فيكون ، التى اخرجها للناس لتكون الهادية المهدية ، المزكاة التى تشهد عن العالمين بالحق وبالميزان القويم ، وبالقسطاس ، فماذا هو يقول جل وعلا « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » عندما نلتفت الى الآية الاولى والآية الثانية ، نجد فيها اسرارا عجيبة وحقائق جوهرية ، لا بد من تأملها ذلك أن الله جعلنا خير أمة والله صادق ، وجعلنا امة وسطا وهذا تشريف لنا ، ثم فضلنا على العالمين ، بأن زكانا وجعلنا شهداء على الناس ، ولكونه أيضا جلا وعلا ، علت حكمته قد حملنا رسالة

خطيرة فى هذا الوجود . وهذه الرسالة الخطيرة تتمثل فى الدعوة الى الله ، فى الامر بالمعروف ، وفى النهى عن المنكـــر ، واذا كانت هذه الحقائق هى التى لا بد أن نتدبرها فى هذا المجلس الكريم وان نتصورها على حقيقتها ، لنعلم الى أى مدى وصلت بل استطاعت الامة الاسلامية ان تشق سبل الحضارة وان تقف فى مركز القيادة ، وفى محل الطبيعة توجه الامم وتنير السبل امامهم فان ذلك يقتضى منا أن نقف عنـــد الآية التى اخذناها لتكون موضوع حديثنا قال تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ».

(وكذلك) كما تشعر هذه اللفظة بما أن ما قبلها يرتبط بهـــا وكما تشعر بأن السياق الذى وراءها مشدود الى الآية قبلها اعتبرها كثير من المفسرين عطفا ، واعتبر كلمة كذلك تشبيها ، وذلك ان الله سبحانه وتعالى يقول قبل هذه الآيـــة « ولله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

فالله قد من على هذه الامة بهدايتها وكما من عليها بالهداية ، فانه من عليها بأن جعلها أمـــة وسطا ، فكان جعلهـــا امـــة وسطا ، معصوما على ما ذكر قبل وهو جعل اختيارها وجعلها أمة مهديـــه هداها الى صراط مستقيم وذهب بعض المفسرين الى أن ذلك انمـــا تجرى هنا مجرى التمثيل وهذا موجود فى القرآن الكريم ، وفى الشعر العربى الجاهلى وفى كلام العرب ، ومنهم من يذهب الى أنها تفيـــد تنويها واعظاما واكبارا لهذه الحقيقة التى ذكرتها الآية ، وهى حقيقة الامة الاسلامية — وكذلك جعلناكم أمة وسطا — فهذا تنـــويه بالامة الوسط ، وهذا تشريف للامة الوســـط ، وهذا يجـــرى على حـــد قـــول العربـــى :

كذلك أدبت حتى صار من خلقى   انى رأيت مـــلاك الشيمة الادبا

ثم ان معنى لطيفا خفيا ينبثق من قوله تعالى « جعلناكم » وهو ينظر الى الآية الاخرى وهى قوله تعالى : « كنتم خير أمة اخرجت للناس » فان اخرجت للناس لم يكن فى اعداد هذه الامة شىء من تصويـــــر

المراحل لانها تكونت بمحمد وبأصحاب محمد وتكونت بهذه الثلة القليلة التى التفت من وراء محمد صلى الله عليه وسلم فكان هو الهادى والمبشر والمنذر والذى يأخذ بالناس الى الصراط المستقيم ، وكان اصحابه كما قال عليه الصلاة والسلام : « اصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . فهذا التكوين العجيب السريع للامة التى انشأها نبينا صلى الله عليه وسلم ، هو الذى عبر عنه القرآن بقوله تعالى : « اخرجت للناس » ، وعبر عنه هنا بالجعل الذى يقتضى الارادة والاختيار من الله فى قوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ، فان هذه الامة لم يكن أمرها بيد الجماعات من الناس ، تفكر فى تكوينها وتضع لها المناهج وتأخذ بالمخططات التى تحقق رقيها وتقدمها وجعلها من مقدمة الركب بل كان هذا الجعل من الله لانه ارادها أن تكون كذلك وأراد أن تكون عزيزة وارادها أن تكون شهيدة على غيرها من الناس .

وهنا نقف وقفة قصيرة عند قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » . . الوسط فى اللغة العربية استعمل بازاء معان كثيرة : من بينها ان يقال فلان وسط قومه أى نبيل قومه وصميم قومه وخلاصة قومه ومن ثمة قيل فى النبى صلى الله عليه وسلم ، عند وصفه وذكر ترجمته فى كتب السيرة . . أوسطنا نسبا ، فأوسطنا نسبا معناه اشرفنا وأكثرنا نبلا واحسننا واقومنا فهو خلاصة منا ثم ان معنى الوسط قد يطلق بمعنى الافضل والاكمل والاحسن والخير ومن هنا جاء تفسير هذا اللفظ وهو الوسط فى الآية الاخرى بقوله تعالى « كنتم خير أمة » ، فخير الامة بمعنى الوسط ، ثم نجد كلمة الوسط تطلق فى اللغة أيضا ازاء معنى العدل والانصاف فان الوسط يكون عدلا ويكون حجة ، ويكون منصفا ، ومن ثمة قال الشاعر العربى يصف جماعته :

هم وسط يرضى الانام بحكمهم اذا نزلت احدى الليالى بمعضل

ويدل أيضا على الاعتدال وهو الوقوع بين أمرين متطرفين ، وذلك هو التوسط ، فالامة الاسلامية التى اختارها الله لتحمل الامانة ،

واحياء حقائق التوحيد فى هذه الارض ، والامة الاسلامية التى جعلها الله أمة وسطا جعلها وسطا بين شيئين بين قـومين بين ملتـين ، ملة اعتبرت عند الله مفرطة ، واخرى اعتبرت عند الله مفرطة .

أما الطرف المفرط المذموم فهو يتمثل فى النصارى لأنهم عبـدوا المسيح ابن مريم وغالوا فى دينهم ، وأما المفرطون فهم اليهود لانهم غيروا كتاب الله وغيروا شريعته ، وطمسوا كثيرا من آيات التوراة ، ومن ثم فان الامة الوسط هى التى لم تكن مفرطة ، ولا مفرطة ، وانما كانت وسطا ، ملتزمة الحق والانصاف وهذه المعانى التى نجدها فى اللغة لكلمة وسط ، يمكن أن نطبقها على الامة الاسلامية ، لكن بدون شك على الامة الاسلامية المثالية ، على الامة الاسلامية فى صـدر الاسلام ، ونستطيع ان نتسامح ونجعل هذا حقيقـة ثابتـة للامـة الاسلامية للقرون الاولى هذه الامة الاسلامية كانت امـة وسطـا لاعتبارات كثيرة .

اولهـا اعتبـار مكـانى .
وثـانيهـا اعتبـار زمـانى .

اما الاعتبار المكانى فوجودها بـأم القرى ، واشعـاع الحكمة الالهية والسنة النبوية من هذه الارض المقدسة الطاهرة التى نشرت تعاليم الاسلام شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، بين امم كانت تحيط كلها بسلطانها وقوتها ومذاهبها وافكارها ، واتجاهاتهـا وعقائدهـا بالامة العربية ، فاذا بسلطنة الروم وسلطنة فارس وما اليها التى كانت اقوى الامبراطوريات فى ذلك العهد تأخـذ اكسـير الحيـاة ، وتستمد حقائق التوحيد وتتطلب النجدة للحالة التى وقعت فيهـا من الحيرة والاضطراب فى هذا الهدى الدينى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فهى وسط بين أمم وبين أجناس وألوان وعقائـد ، ومن ثمة استطاعت ان تظهر عليها جميعا وان تتغلب .

أما الاعتبار الثانى وهو الاعتبار الزمانى فان الانسانية مـرت بمراحل الطفولة وبمراحل الضلال وبمراحل التيـه ولم تجد الطريق

السوى الذى تستطيع أن تسلكه لتكون على بينـــة من أمرها حتى اذا جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمل هذه الرسالة وبلغهـا احسن تبليغ وتلقاها المومنون منه عليه الصلاة والسلام ، اصبـح هاؤلاء بعيدين عما كان عليه أولئك من خرافات وأوهام وافتتانا بالعقل الى حد الجنون وخضوع للهوى الى حد الارتكاس فى المادية . ثم هناك اعتبار آخر هو اعتبار هذه الامة وسطا فى التصور والاعتقاد ، ذلـك انها كما قلنا بعيدة على المغـالاة فى التجـرد الروحى وبعيدة عـن الارتكاس فى المادية تعتبر ان الانسان ككائن حى هو متكون من قوتين من عنصرين احدهما الجسد ، والثانى الروح ، ومن ثمـة فالعنايـة بالامرين جميعا بالجسد والروح ، وتغذية الجسد بما يستحق والروح بما تستحق . وتغذية الحياة المادية فينا والحياة الروحية بما يتطلبانها هو الذى يكفل للانسان والمجتمع الانسانى الرقى والتقدم . ثـم نجدها باعتبار آخر امة وسطا ، ذلك انها وسط فى التفكير والشعور لان هذه الامة بعد أن تلقت القرآن كحكمة وهـدى ، واستمعـت للرسول ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاحاديث الطاهـرة التى كانت تأخذ بهم الى مناهج الرشاد ، فتحوا الدنيا وفتحوا الاقاليم ، وانتشرت كلمة الاسلام وظهرت السيادة على كثير من الاقطـار ، فاذا بـدول وامم وجماعات تدخل فى الدين الاسلامى منهم الفـرس والـروم ، والهنود والبربر ، ومنهم غير اولائك ، وهـؤلاء كانـوا قد عرفـوا حضارات ، ولم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفون الحضارة ، ولـولا الذكر ولولا القرآن لما كان لهم ذكرا ومن ثم فان القرآن فتح قلوبهم ، وأمرهم نبيهم بأن يكونوا متفتحين على الحضارة تفتحا كاملا وان يأخذ بكل العلوم ، وبكل اسرار الطبيعة ، وبكل اسرار الكون حتى يجدوا فى ذلك برهانا على وحدانية الله ، وعلى قدرة الله ، وعلى الالوهية التى بيدها كل شىء ثم نجـد هذا التفتـح على الحضارات ، وعلى العلوم المختلفة ، قد مكن لهذه الامة ، فظهر فيها الاطباء وعلمـاء الفلك وعلماء الحكمة والفلسفـة ، وعلمـاء الرياضيـات بأنـواع الرياضيات ، وظهرت فيها الصيادلة ، واخترعت وابتدعت من القضايا الفكرية والعلوم التجريبية مالـم يكـن الرومـان ، ولا اليونـان ، ولا البزنطيون يعرفونه وكانت الامم الاوروبيـة فى ذلـك الوقـت فى

جاهليتها الجهلاء التى اقتضت من الاوروبويين ، ومن الفرنسيين خاصة أن ينعتوا هذه القرون بالنسبة اليهم بالقرون الوسطى وإذا نحن نتبعهم ونعتبر القرون الوسطى ، وهى قرون الجهل والضلالة هى عين القرون التى كنا محكومين فيها بهذه المبادىء السامية ولهذه العقيدة السمحة ، والتى ظهر فيها أثر هذه الحضارة الاسلامية العجيبة ونحن نعلم أن أروبا وبقية الناس فى اقطار الدنيا كانوا يهرعون الى قرطبة والى بلاد الاندلس والى المغرب والى افريقية القيروان والى بلاد المشرق ، دمشق وبغداد ، والى ما وراء النهر يأخذون عن علماء العالم الاسلامى ، ويترجمون كتبهم ونحن نعلم بأن واحدا (كمونتان) فى كتابه التجارب . . . يقول : عليكم بترجمة الكتب التى وقفتم عليها من أسرار الحضارة العربية ، وتعلموا اللسان العربى فهو كفيل بأن يعينكم على اجتياز المراحل أى مراحل النمو والتقدم .

هذه الحقيقة جعلت الامة الاسلامية متقدمة بحكم كونها آخذة باسباب العلوم التى أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بطلابها بأن الحكمة ضالة المؤمن ، ولكننا حين أخذنا فى العصر الاول بهذه العلوم ، وحين أصبحنا مبتكرين للعلوم وحين استطعنا أن نعطى الناس الشىء الكثير ، من الجهد العظيم ، الفكرى والثقافى والعلمى ، حين فعلنا ذلك كنا نطبع هذه الحضارة بالطابع الاسلامى ، وكنا لا نترك مجالا لاستيلاء المادية على قلوبنا ، أو لاستيلاء الذبذبة والضلالة على نفوسنا ، وكنا لا نتبع كل شىء لان المجتمعات التى دخلت فى الاسلام ، دخلت مع تيارات هدامة كثيرة ولكننا ما كنا لنخدع بها ، وما كنا لنأخذ بها ، فلم يكن الاسلام ولا المسلمون يتبعون كل نعت ، فكونهم يأخذون ذلك شىء ، وكونهم يراقبون هذه الاشياء المستوردة والتى يطبعونها بطابعهم ذلك شىء آخر . وهى أمة وسط أيضا فى التنظيم والتنسيق ذلك أن كثيرا من الناس لا يريدون الاحتكام الى الضمائر ، اذا كان للانسان ضمير ، فهو يستطيع أن يراقب سلوكه ، وأن يراقب أعماله ، وهناك من لا يعتمد لان الضمير قد لا يكون خالصا ، وقد لا يكون نصوحا وقد يكون متأثرا بعدة أشياء

تجعله منحرفا وتجعله بلا ضمير ، وهناك لا بد من النظام ومن القوانين ومن الزجر ، ومن الاساليب الكثيرة التى تأخذ الناس بالردع ، اذا ما ارتكبوا السيئات أو حادوا عن الطريق الجادة ، هذا المعنى رعاه الاسلام والتفت اليه المسلمون فى حضاراتهم واعتبروا ان الامة تكون وسطا ، اذا هى أخذت بالامرين جميعا وذلك بتوجيه الضمائر توجيها دينيا ، تكون المراقبة فيه لله ، اذ يشعر الانسان بكونه فى قبضة ربه ، فلا يستطيع أن يأتى بمكروه ، وليس هو الضمير الحر المطلق الذى لا يتقيد بدين ولا يتقيد بعقيدة ، ولكن هذا الضمير لا يكفى أن يوجه حتى يكون فى الارض نظام وتشريع ، يصون تلك الاوضاع المقدسة المحترمة ، فى نظر الملة الاسلامية حتى لا يقع العبث بها ، ولا الاخلال بنظمها .

ثم نجد معنى آخر للامة الوسط يظهر لنا ، فى كل ما نلاحظه من ارتباطات وعلاقات للفرد بالجماعة ، فان بعض النظم تقاوم الجماعة ، فالحكم اما للفرد أو للجماعة ، أما الدين الاسلامى ، والملة الاسلامية والامة الاسلامية فقد اعطت الفرد حريته ، ولكنه بقدر ما اعطى من حرية ، وبقدر ما أكرمه الله به من رشاد وتصرف وحكمة ، وقدرة على الاتيان بما شاء فى حدود الدين ، وفى حدود ما ترسمه العقيدة ، حماه من الأثرة وحماه من الجشع ، ولذلك وضع له قيودا تقف به عن ان يكون متأثرا بهذين الوصفين الذميمين الذين يهدمان الحياة الاجتماعية القائمة على اعطاء الفرد كل الحقوق ، ولكنه مع ذلك يعطى من الطاقات والدوافع ما يكون به خيرا ، وما يكون به مصلحا ، وما يحقق به الفضيلة فيما حوله ، على المعنى الذى أشار اليه النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من كون الفرد لا يكون حقيقة مسلما حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه ، وهو المعنى الذى يحاول ارسطو التعبير عنه ، بما قال : الفضيلة هي أن يفنى الانسان فى سبيل سعادة الغير ولا نقول هنا كما قال الآخر :

مالى غدوت كقاف رؤبة قيدت فى الدهر لم يقدر لها اجراؤها

ولكننا نكون متحمسين ومندفعين بحكم هذه الالتزامات الدينية والاعتبارات السامية الاسلامية لان نشق سبيلنا ونكون خير أمة ، ان هذه المعانى التى جعل الله بواسطتها أو بسببها هذه الامة ، أمة وسطا او اطلق عليها معنى كونها أمة وسطا هو الذى مكنها من الشهادة على الغير ، ولا يمكن أن يقبل شاهد على الغير الا ازكى وافضل وخيرا . . . ومن ثمة فالشهادة من المسلمين دليل قائم على كونهم خير امة ، ودليل قائم على كونهم أمة وسطا ، ودليل قائم على ان الله سبحانه وتعالى اختارهم لهذه المهمة .

وهنا نكون مضطرين لنقف وقفة ثانية امام معنى الشهادة ، هذه الشهادة قد تكون شهادة دنيوية وقد تكون شهادة أخروية ، هى شهادة أخروية وذلك فى المعنى الذى أشار اليه الحديث النبوى الشريف ، الذى يرويه البخارى والترمذى رضى الله عنهما فى صحيحيهما عند ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ذلك ان نوحا عليه السلام يأتي يوم القيامة فيقول لله سبحانه وتعالى : اني قد دعوت قومي فيكذبه قومه ، فيقول له الله هل لك من شاهد ؟ فيقول نعم أمة محمد ، فذلك هو شهادة هذه الامة يوم القيامة على غيرها من الامم ، وأما الشهادة فى الدنيا فهى قائمة أيضا ، والشهادة الدنيوية تحقق ركنا عظيما من اركان التاريخ الدينى بالنسبة للبشرية ، ذلك اننا نعلم ان كل الديانات التى جاء بها الرسل من قبل نبينا صلى الله عليه وسلم من آدم وكان نبيا أو من نوح اذا كان أول الرسل ، فان جميع الرسل والانبياء دعوا الناس لتوحيد الله ، لكن أين هو التوحيد مع النصرانية التى تعبد المسيح والتى تجعل الله ثلاثة ؟ واين هو التوحيد مع اليهودية ، التى تجسم الله ، وتتخذ عزيرا ابنا لله ؟ أين هو التوحيد الذى يستطيع أن يسمو بالانسان المسلم الذى أسلم وجهه لله ليكون بعد ذلك غير مراقب فى الدنيا شيئا الا ربه الذي أعطاه الحياة ورزقه الوجود وحمله الرسالة وأهله لان يضطلع بالمهام التى خلق لها فى هذا الوجود ؟ اذا كانت هذه هى الحقيقة فان الشهادة التى نعنيها فى هذه الدنيا من الناحية الدينية فهو امر خطير وعظيم جدا ، هو ان الامة الاسلامية تشهد للمؤمنين السابقين فى

الامم السابقة بكونهم قد بروا فى طاعتهم ، وكانوا من أهل الحق فى اتباع رسلهم وان الذين ضلوا وابتعدوا عن نهج الرسل والانبياء وعما دعوا اليه من التوحيد أولئك من الظالمين ، ومن الضالين الذين يشهد عليهم المسلمون ، باعتبار كونهم أمة وسطا ، ثم ان معنى الشهادة لا تقف عند هذا الحد فان الشهادة تقتضى من الشاهد العلم بما يشهد له وتعتبر شهادته تأييدا له باعتبار كونها حجة ، هو ان يقيم ميزان الحق ، وأن يتخذ القيم الدينية الاسلامية اساسا لمعاملته ومن ثمة فان هاؤلاء الشهداء الذين جعلهم الله شهداء على الناس لا يكونون شهودا وشهداء على الناس حتى تكون تلك القيم والموازين ، والنظم والاسس التى أرادها الله سبحانه وتعالى أصلا للحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية هى الموجودة بين الناس وهي التي تحكم المجتمع الانساني لان هذه الاشياء جاءت من الله ، ولكونه حين شرفه الله ، وجعله شهيدا على الذين ظلموا انفسهم ، أو شهيدا على الضالين انما جعله شهيدا عليهم ، بحكم كونه يحتكم الى تلك القيم والموازين الدينية الاسلامية التى جاءت فى كتاب الله وفى سنة رسوله ، هاؤلاء الذين يتلقون القيم ويتخذون الموازين والنظم من رجال ومن أمم ومن اغراب عن الحضارة الاسلامية وعن الدين الاسلامى فاذا بكل شيء يختلط فى وجودنا الاسلامى ، واذا بكل شيء ينهار باعتبار كونه يعتمد أشياء وضعها العقل الذى لا يمكن أن يكون كاملا ، ووضعها العقل لجماعة ولامة ، فلا يمكن أن يكون صالحا لكل الامم ، ووضعه العقل الانسانى القوى الذى هو من نور الله بالنسبة لمجتمع معين ، فلا يمكن أن يكون صالحا لكل المجتمعات ، أما الذى ينظر الى الصالح المطلق والى الخير المطلق والى الشر المطلق والى العدل المطلق ، فهو الله سبحانه وتعالى الذى انزل كتابه على رسوله ، والذى أوحى الى نبيه بالحكمة ، حتى يفصل هذا الكتاب ويهدينا سبل الرشاد .

وقد ذهب العلماء الى اعتبار أن هذه الشهادة هى التى تمكن المسلمين من التفريق بطبيعتهم بغاية السرعة بين الحق والباطل ، وهذه القدرة على التفريق بين الحق والباطل هى التى يكونون بها

حجة على غيرهم ولذلك ، قال الامام علي كرم الله وجهه ، ان الارض لا تخلو من قائم لله بالحجة ، والقائمون لله بالحجة الشهداء على الناس ، ليسوا هم العلماء الذين يحصلون على كثير من الشهادات ويختلفون منازل باعتبار ما يتميزون به أو يتفاضلون به من هذه الدلائل على المستوى الثقافى ، ولكن العلماء حقيقة هم اعلام الحق والفضيلة ، ومثل العدل والخير الذين يكون قولهم عدلا ، ويكون عدلهم صالحا وعملهم صالحا وتكون اخلاقهم اسلامية ، وتكون احوالهم دالة على انهم خير أمة . فاننا لو أردنا أن ندعوا ونحن على ما نحن عليه الاوروبيين أو الامريكان أو السوفييت ، أو غير هاؤلاء للدين الاسلامى ، باعتبارنا خير أمة ، وباعتبار كوننا أمة وسطا ، سوف تقوم علينا الحجة لاننا اليوم لم نبق أمة وسطا ، ولاننا اليوم لم نبق خير أمة لاننا لا نمتلك العقيدة امتلاكا كما كان يمتلكها اسلافنا ولا نقوم بالعمل الصالح فى كل المجالات حتى نحقق المعجزات ، ونقوم بما يقتضيه هذا العمران البشرى من تطور ونمو ، ولاننا ايضا لسنا باللذين زكت اخلاقهم زكاة اسلاميا ، فقد اصبحت الاخلاق الاسلامية يضرب بها المثل ويتحدث عنها ولكننا لا نلمسها فى مجتمعاتنا .

ثم هناك شيء خطير ، هو ان الاحوال والملابسات للجماعة الاسلامية التى كانت تعنون على السيادة ، وتدل على العزة وعلى القوة ، وعلى كونها الامة المتقدمة على غيرها من الامم اصبحت الآن غير موجودة فى الامة الاسلامية ، واذا كانت غير موجودة فى الامة الاسلامية فذلك هو الذى يدعونا الى تحسسها ، ولذلك نجد هذا البيان من الله للامة الاسلامية التى جعلها أو جعل افرادها شهداء على الناس ، قد عقب عليها بقوله تعالى : « ويكون الرسول عليكم شهيدا » وبعض المفسرين يذهب الى ان قوله تعالى « عليهم شهيدا » انما يراد به ، ويكون الرسول لكم شهيدا أى يزكى شهادتكم التى تكون لله وتكون للحق بشهادته وانما جرى لفظ عليكم مشاكلة ، للآية قبل ذلك ، وذهب بقية المفسرين ، وأنا أميل الى هذا الرأى الى ان استعمال على فى محله لان النبى صلى الله عليه وسلم يزكينا ويشهد لنا ، اذا كنا على الصراط السوى أما اذا ابتعدنا عن الدين

وانحرفنا عن الجادة ، وغيرنا دين الله واحكام الله فان الرسول صلى الله عليه وسلم ، يكون علينا شهيدا ، وهذا المعنى الذى تقوم به الحجة على الامة الاسلامية هو الذى يجعل ماضينا يختلف عن حاضرنا ، فان الامة الاسلامية كانت فى عهد عزتها ، فى عهد الدولة العباسية ، فى المرحلة الاخيرة أمتد نفوذها وسلطانها امتدادا عجيبا بين قارات كثيرة ، واصبحت تملأ مثلثا قمته العليا فى بامير سقف الدنيا عن التقاء نهر السند ، ونهر الكنغ وعند التقاء سليمان بجبال الهملايا ثم يمتد الضلعان منتشرين شرقا وغربا لتكوين القاعدة لهذا المثلث ، فماذا هو يمتد من الشرق الى جزر اندونيسيا ، والى الفليبين ويمتد من الغرب الى مدغشقر وجزر القمور فالقارة الافريقية والقارة الاسيوية ، والقارة الاروبية ، وجانب أو قسم من القارة الامريكية كل ذلك مشمول للجماعات الاسلامية ، فيه كلمة الله ثم ان النفوذ والكثرة التى تدل على انها وارثة بحق هذه الرسالة ، موجودة بين بحار عديدة وقارات كثيرة لكن هذا انتهى ، وتلف وضاع منا ، ويكون علينا ونحن ننظر فى شأن الامة الاسلامية ماضيها وحاضرها ، ان نبحث عن اسباب التأخر والتدهور .

اول هذه الاسباب هو ، التخلى عن منهج الحق ، منهج الله سبحانه وتعالى ، ذلك المنهج الذى اختاره لنا .

والامر الثانى هو ما أحدثنا من تغيير فى ديننا وابتداع فى حياتنا ، واصبحنا فى كثير من الاحيان ، نتعلق بشكليات ليست من الدين ، انما وضعها الناس فى عصور الجهل وعصور الخمود ، واصبحنا لا نؤمن بالحقائق الدينية ايمانا يهدينا الى الرشد ومن اجل ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم محذرا للذين غيروا دين الله ومحذرا للذين بدلوا أحكامه ، قال عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه امام دار الهجرة ، مالك ابن انس رضى الله عنه فى موطأه وما ورد فى كتب الصحاح (ليذادن اقوام عن حوضى فأقول يا ربى أمتى أمتى فيقال انك لا تدري ما احدثوا بعدك ، انهم بدلوا وغيروا ، فأقول سحقا سحقا لمن بدلوا بعدى) وهذا السحق لا يمثله الجزاء الاخروى ، يوم

القيامة من العذاب الذى يلحق اللذين غيروا وبدلوا دين الله وانما يلحقهم فى الدنيا بما يسلبهم الله من عزة وما يجعلهم فيه من هوان ، بعد أن كانوا أقوياء وسادة .

والسبب الثالث الذى حذرنا الله منه هو تفرق كلمة المؤمنين ، كانوا قوة لانهم كانوا مجتمعين ، ولان وحدة الصف هو التماسك بين الامم والافراد ، كانت هى السبيل للعزة ، ولذلك حذرنا الله من التفرقة ، فقال تعالى جل ذكره : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

والسبب الآخر القوى العظيم العجيب الذى ينبغى للناس أن يقفوا ازاءه ، وان يتأملوه هو اتباع اولى الكتاب أو اهل الكتاب ، اتباع طائفة من أهل الكتاب تضل المسلمين عن دينهم وتقصيهم عن يقينهم ، وتملأ نفوسهم ضعفا ، بعد أن كانت ممتلئة قوة ، وضلالا بعد أن كانت ممتلئة ايمانا ، فهذه الايديولوجيات المستوردة ، وهذه الافكار المهدمة لكيان الجماعة الاسلامية وهذه النظريات والفلسفات التى ظهرت بسبب وجود طائفة معينة فى مكان ما ، فى ظروف وملابسات معينة ، اصبح أولئك على ضلالهم يدعون لها ويشجعون عليها وينظرون بالانتساب اليها ، واصبح العالم الاسلامى بعيدا عن حقائقه ، كأن العالم الاسلامى ليست له فلسفته وليست له مبادئه وليست له نظرياته ، وليست له أصول حكمته ، وهذا ذكره الله تعالى ، ايضا ونبهنا اليه ، وحذرنا منه فقال : « يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » هذا هو الوضع الذى عليه الامة الاسلامية اليوم ، وهو وضع كان سببا فى مخاطر عديدة وفى احداث جليلة كان سببا فى الاحتلال الاجنبى ، وسببا لاستعمار بلادنا واستغلال خيراتها وحكم أهلها وجعلهم تابعين غير متبوعين ، ثم ما حكم به على هذه الامة من التخلف الذهنى والفكرى والعلمى ، حيث جعلهم اتباعا وخدما ولم يرد منهم ان يكونوا سببا يزاحمونه ،

هذا المعنى الذى كان سببا فى اعراض المسلمين عن دينهم وانصرافهم عن كتابهم ، وعدم تفهمهم لرسالتهم فى هذه الحياة هو الذى أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم والذى ورد فى الحديث الذى يرويه ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى ورد فى مسند الامام احمد رضى الله عنه ، وفى سنن ابى داوود ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : (يوشك الامم أن تداعى عليكم كما تداعي الاكلة الى قصعتها) ، فقال قائل : يا رسول الله : أمن قلة نحن يومئذ ، قال : (بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدوركم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن قال احدهم يا رسول الله ، وما الوهن ـ قال : حب الدنيا وكراهية الموت) ، فهذا الحديث يشير الى عدة عناصر تحققت فى الامة الاسلامية ، جغرافيا ولكنها لم تتحقق ولن تتحقق فى الامة الاسلامية . حقيقة تحققت بالنسبة للامة الاسلامية ، جغرافيا لان هذه الامة ابتعدت عن حقيقة دينها ولان الغزو الذى محقها جعل من الكم والكثرة العددية فيها شيئا لا يعبأ به ولا يلتفت اليه لان الآلاف منهم لا يساوون فردا من الغزاة الذين جاءوا لاستعمار الارض واستخلافها من بعدهم ، ثم لحقت المسلمين ذلة ، وتملكهم الخوف ، وانتشر فيهم الترف ، واصبحوا متعلقين بالحياة وهذا كله من الادواء التى تمنع من تحقيق العزة ومن الوصول الى ما تطمح اليه الامة الاسلامية ومن اجل ذلك لا بد ان ننظر الى هذا الاحتلال ، والى هذا التخلف الذهنى والى التحديات التى كانت من عصور الانحطاط بالنسبة للامة الاسلامية والى مضاعفاتها ، ونحن نستطيع أن نلخص ذلك فى كلمتين مختصرتين .

1 ــ ما لحق المسلمين من نتف ، فان الاوروبيين الذين احتلوا أراضينا ، وامتلكوا بلادنا ، استبدلوا بالحقيقة الثقافية الاسلامية كيانات ثقافية جديدة تخضع لاتجاهاتهم وتملى للناس فى اسباب الغلو والاسراف فى الترف ونحوه ، والبعد عن حقائق الاسلام ، وكونت عصبيات جاهلية فاذا بكل فئة تحذر الاخرى ، وتريد مقاومتها ، وقد رأينا ظاهرة فى ذلك ومثالا ، نستطيع أن نشير اليه ، فان الدراسات التى قامت من اجل احياء الآثار ولست من اعداء هذا الفن

المعمارى الخطير ، ولا من اعداء رجال الآثار ، ولكنى اقول بأن احياء آثار الفندال والقرطاجيين والرومان ومن اليهم فى بلادنا اصبح مقدما على احياء الآثار فى بلادنا الاسلامية وكثيرا ما اصبح الناس يتغنون بتلك الامجاد الجاهلية بدل أن يكونوا متغنيين بامجاد الاسلام وبما تركه الاسلام من عهد الفتح الى الآن من آثار دالة على عزته وقوته وشرفه وبعيد أثره .

ثم نجد شيئا آخر من هذا التحدى ومن آثاره ، هو التهديم ، التهديم الذى قام به كثير من المستشرقين وكثير من النصارى المبشرين ، بما كتبوه عن الاسلام ، وبما تناولوا به القرآن الكريم وتناولوا السنة النبوية ، ويقولون القرآن ليس من عند الله وينظرون اليه نظرة بعيدة عن الحق وبعيدة عن الصواب لان هاؤلاء يجعلونهم على طريقهم فى تهديم الحقيقة الاسلامية والمجتمع الاسلامى .

ثم نجد توجيها فان المفاهيم المتحدثة للكون والحياة وللانسان اصبحت تقوم مقام القيم الاسلامية التى كنا ننظر بها الى هذه الاشياء الثلاثة والى مكانة القيم الحضارية التى جاءت بها الديانة الاسلامية والاخلاق الاسلامية .

وآثار هذا النتف والتهديم والتوجيه يظهر فى أمرين : فى نتائج ذهنية وفى نتائج مادية . النتائج الذهنية هو أن كثيرا من المسلمين لسوء الحظ اصبحوا يظنون انه لا قدرة لهم على تغيير أوضاعهم بأنفسهم واستولى عليهم مركب النقص استيلاء خطيرا حتى اصبحوا يؤمنون بأن كل ما عند الغرب خير ، وان ما عندهم شر ، لا يحقق لهم النجاة ولا التخلص مما هم فيه ، وأما النتائج المادية فهى العجز والجهل والذوبان .

مولاى ،

يا أيها الملك الذى عزماته　　فى الدين أعظم أنعم الوهاب

هذه المقارنة بين الماضى والحاضر وان كانت مقتضبة وقصيرة تدفعنا الى أن نقف بين الجامدين والجاحدين ، بين الجانبين ندعوهم لاعمال النظر فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ، وفى الحضارة الاسلامية وفيما يمكن أن يحقق المسلم بايحاء من دينه ، وقوة من يقينه ، وكذلك ننظر الى الفئة الثانية ، ونهديها سبلنا ونقول لها انك مهما تطرفت وانكرت دينك واعرضت عن مبادىء الاسلام تصبحين اجنبية ، وبعيدة عن تحقيق ما يكون الوحدة بيننا ويكون الجامعة المقومة لمتنا ، وهذا يكون بأمرين ، هناك أشياء مسلمة سبيلنا الى العلاج بها سهل وهى قضية الرجوع الى عقيدتنا القوية واسباب العمارة للارض والاستخلاف فيها ، والامر الثانى هو العلوم الطبيعية والعلوم التطبيقية التجريبية والعلوم التكنولوجية ، التى تفوق فيها كثير من العرب والمسلمين لكنهم اصبحوا لا يعيشون فى بلادنا الاسلامية ، واختاروا أن يعيشوا فى البلاد الاروبية وغيرها لانهم يجدون رزقا أوفر ، فنحن اذا استطعنا أن نكون الجماعتين وان نجعل العلم يعتمد الدين وان نجعل الدين قادرا على تحقيق هذه الانطلاقة ، فاننا نكون قد حققنا الرسالة العظمى للاسلام وهو صيانة الحياة من الشر والفساد وتقدم العلم بلا دين لا يحقق سعادة ولا يحقق اطمئنانا ، ولا يكون سلاما وانما هو يملى للناس لان يكونوا فى حيرة واضطراب ، ولان يقعوا فى شقاء وقلق وخوف وامراض عصبية ونفسية وما الى ذلك والعمل على الجمود الشكلى على الدين من أخذ بالعلوم الطبيعية والرياضية ومقتضيات العصر لا يحقق عزة ولا تقدما ومجدا وانما يكون جهلا وهوانا وتخلفا وتبعية ومن اجل ذلك قال الله تعالى منبها الى الطريق السوى فى هذا المنهج هو أن نكون مؤمنين وأن نعمل العمل الصالح وان نكون بعد ذلك معتزين بهذا الدين وبهذه الملة التى تجمعنا وهذا قوله تعالى : « ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » ، ربنا كما كرمتنا بتحمل الامانة شرفنا بمنقبة التبليغ ، واجعلنا ممن دعا اليك ولاذ بك وعمل على اعلاء كلمتك ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ، ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا

ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا وانصرنا على القوم الكافرين

ربنا انزل على مولانا محمد الخامس شآبيب الرحمة واجزه عن الامة خير جزاء ، ربنا واكلأ بعين رعايتك وجميل عنايتك مولانا الامام امير المؤمنين الحسن الثانى ، وسدده فى مواقفه كلها وارزقه النصر والتأييد من لدنك وادم عليه وعلى آل بيته وذريته سوابغ النعمة وتول اللهم ملوك ورؤساء الاسلام كافة بما انت له اهل حتى ينصروا دينك ويعلوا كلمتك ويحققوا الفوز والنعمة ، والسبق فى ميادين السؤدد والمجد لعبادك المسلمين .

اللهم توفنا مسلمين والحقنا بالصالحين واجعلنا من ورثة جنة النعيم وصل اللهم على نبيك ورسولك وصفوتك من خلقك ، سيدنا محمد صلاة تليق بك منك اليك ، كما هو اهله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الدرس الخامس

15 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

حَدِيثُ هِرَقْل وأبي سُفيان
في بدَاية الوحي

★

ألقاه :

فضيلة العلامة الرحالي الفاروقي

عميد كلية اللغة العربية بمراكش



اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم . نحمد الله شاكرين لنعمته ، وذاكرين لربوبيــته ، ونشهد أن لا اله الا الله مومنا بألوهيته ، وموقنا بوحدانيته ، اللهم صل صلاة كاملة ، وسلم سلاما تاما على نبي تنحل به العقــد ، وتــنفرج بــه الكرب ، وتقضى به الحوائج ، وتنال به الرغائب ، ويستسقى الغمام بوجهه ، وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فان اصدق الحديث كتاب الله تعالى ، واحسن الهدى هــدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامــور محدثاتهــا ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

بالسند الواصل الى الشيخ الامام الحافظ الحجة الهمام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم بــن المغيرة بن بردزبة الجعفى البخارى رحمه الله تعالى ورضى عنه وأرضاه .

باب كيف بدء الوحي الى رسول الله صلى الله علــيه وسلم ، وبه اليه قال : حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال : أخبرنا شعيــب عن الزهري قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعــود ، ان عبد الله بن عباس اخبره ، أن أبــا سفيان بن حــرب أخبره ، ان هرقل ارسل اليه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام فى المدة التي ماد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان وكفــار قريش فأتوه ، وهم بايلياء فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الــروم

ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : ايكم أقرب نسبا بهـــذا الرجل الذى يزعم أنه نبي قال ابو سفيان : فقلت : أنا أقربهـــم نسبا . قال ادنـــوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه ، قـــل لهم انى سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبني فكذبوه ، قال فو الله لولا ان ياثروا علي كذبا لكذبت عنه . الحديث .

مولاى صاحب الجلالة ان هذا الحديث الذى اخرجه الامـــام البخارى رحمه الله فى عدة مواضع من كتابه وخرجه أبو داود والترمذى والنسائى كل فى سننه ، والذى ينتظم قصة المناظرة بين هرقل وابـــي سفيان التي كانت فى نائئة الاسلام وبداءة وحيه . هذا الحديث المحفوظ المشهور هو آخر الاحاديث السبعة التى اسندها الامام البخـــارى رحمه الله فى أول باب من أبواب جامعه الصحيح والتي رواها عنـــه خمسة من نجوم الصحابة رضوان الله عليهم .

ابو حفص الفاروق ، عمر بن الخطاب العدوى ، وأبو عبـــد الرحمان الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وأم المومنين ام عبد الله عائشة بنت عبد الله الصديقية التيمية ، وأبو عبد الله جابر ابن عبد الله بن عمرو بن حرام الانصارى ، وأبو العباس عبد الله بـــن عباس بن عبد المطلب الهاشمى الذى رويت الاحاديث الثلاثة الاخيرة عـــنـــه .

والحديث الاول من هذه الاحاديث السبعة يربط الاعمال بالنيات والنتائج بالمقدمات بمعنى ان النهايات تأتـــي على حسب البدايات ، وان الاعمال تتحقق بالعزائم والارادات ، فانه لا عمل بدون نيـــة ، ولا حياة بدون عزة ، ولا جهاد بدون قوة ــ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ــ والحديث الثانى يتحدث عن كيفيـــة الوحي ، والثالث عن بداءة الوحى ، والرابع عن فترة الوحي ، والخامس عن معالجـــة الوحي ، والسادس عن مدارسة الوحي ، والسابع عن المداولة عن صاحب الوحي صلى الله عليه وسلـــم .

وبحول الله وقوته نسرد الحديث مرة أخرى للتمكن من سماع كلماته وللتبرك برجال روايته ، وللتعرف بآفاق هدايته ، قال الامام البخارى بالسند اليه ، حدثنا ابو اليمان الحكم بن نافع ، اخبرنا شعيب عن الزهرى قال : اخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ان عبد الله بن عباس ، أخبره أن ابا سفيان بن حرب اخبره أن هرقل أرسل اليه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى ماد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بايلياء فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه ، فقال ايكم أقرب نسبا بهذا الرجل ، الذى يزعم انه نبي — فقال أبو سفيان ، قلت انا اقربهم نسبا ، فقال ادنوه منى وقربوا اصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : انى سائل هذا عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه . قال — أى ابو سفيان — فو الله لولا ان ياثروا علي كذبا لكذبت عنه الحديث .

شيخ الامام البخاري فى هذا السند هو أبو اليمان الحكم بن نافع القضاعي البهرانى مولى امرأة من بهراء المتوفى سنة 222 هـ . يروى كثيرا عن شعيب بن ابى حمزة الاموى وقليلا عن حريز ابن عثمان الرحبى ، قال الحافظ الذهبى : اما رواية ابى اليمان عن حريز بن عثمان فرواية صحيحة واما روايته عن شعيب فقد اختلف الناس فيها هل هى بالسماع أو بالاجازة الا ان الشيخين رحمهما الله البخارى ومسلم قد احتجا برواية ابى اليمان عن شعيب واكثرا من ذكرها فى الصحيحين وبذلك يكون ابو اليمان قد قطع المرحلة وجاوز القنطرة ، وشعيب هو ابن ابى حمزة ، وابو حمزة اسمه دينار الحمصى الاموى المتوفى سنة 162 وهو من اكثر الناس تثبتا فى الرواية عن الزهرى والزهرى هو محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن مسلم بن شهاب ابو بكر ، احد علماء الاسلام ، وعالم الحجاز والشام . قال ابو عبد الله امام الائمة مالك بو انس رحمه الله ، كان ابن شهاب من انقى الناس ومن اسخى الناس ، وهو أول من دون علم الحديث بأمر عمر بن عبد العزيز الاموى رحمه الله على راس المائة كما قال بل كما قيل ، أول

من دونه بالامر ، ابن شهاب المدنـــى الزهرى مـــات سنـــة 124 ه وعداده فى صغار التابعين ، وشيخه هو عبيد الله بن عبد الله بـــن عتبة بن مسعود بن غافل الهذلى ، ابو عبد الله الاعمى واحد الفقهاء السبعة الذين اشتهروا بالمدينة المنورة ، كان من أهل الحفظ والضبط والفقه ، مات رحمه الله سنة 94 وعداده فى كبار التابعين ، وشيخه هو الصحابى الجليل ابو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم وجـــد الخلفاء العباسيين ، واحد الرواة المكثرين ، واحد العبادلة المعدودين ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشر سنين . دعا له النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ، فكان حبرا وبحرا وترجمان القرآن ، وكان افصح لفظا وافخم نطقا واوسع علما وأدق فهما . واردفه النبى صلى الله عليه وسلم خلفه يوما وقال : (يا غلام انى اعلمك كلمات . . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده امامك ، تعرف الى الله فى الرخـــاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن الامة لو اجتمعوا على أن ينفعـــوك بشيء ، لم ينفعوك الا بشيء كتبه الله لك ، ولـــو اجتمعـــوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفع القلـــم وجفت الصحف ، واعلم أن ما اخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وان الفرج مع الكرب ، وان مع العسر يسرا) ، لم يرو رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم الا خمسة وعشرين حديثا ، والباقى من حديثه وهو كثير رواه عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد اتفق علماء الحديث على أن مرسل الصحابى مقبول بدون توقف ولا تردد ، وكان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب يستشيره مع صغره فى المشكلات ويعده للمعضلات ، ويقول ابن عباس رجل غـــواص ، عمي رضى الله عنـــه فى آخـــر عمـــره ، وقـــال :

أن يأخذ الله من عيـــني نورهما   ففى لسانى وقلبى منهما نـــور

قلبى ذكي وعقلى غير ذى دخل   وفى فمي صارم كالسيف مأثـــور

مات ابن عباس رضى الله عنه بالطائف سنة ثمان وستين ، وصلى عليه من آل البيت الشريف محمد بن الحنيفة ورثاه بقوله مات رباني هذه الامة ، وروينا فى صحيح الامام مسلم عن سعيد بن جبير ، رحمه الله قال : مات ابن عباس فى الطائف فشهدنا جنازته فجاء طائر ابيض فدخل فى نعشه ثم لم ير خارجا منه بعده ، ولما دفن تليت هذه الآية الكريمة على شفير قبره لم ندر من تلاها « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتي » .

اما ابو سفيان فهو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الاموى اسلم فى فتح مكة وشهد حنينا والطائف وتوفى فى المدينة الطيبة سنة 31 وجاء فى صحيح الامام مسلم عن ابى زميل عن ابن عباس رضي الله عنه قال كان المسلمون لا ينظرون الى ابى سفيان ولا يحادثونه لما صنعه بالنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين فى حال شركه . . ثم اسلم فى فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم ، اعطاه النبى صلى الله عليه وسلم من غنائم حنين مائة بعير واربعين اوقية من الذهب ، ومن ثم اختلف الناس فى شأنه فمن قائل ثبت ايمانه وحسن اسلامه وهو الحق والصواب ومن قائل كان ضدا للمسلمين ، وردءا للمنافقين ، ولما احس ابو سفيان بهذه الوحشة والجفوة قال للنبى صلى الله عليه وسلم ثلاث اعطنيهن يا رسول الله ، فقال نعم ، قال عندى احسن العرب واجمله ام حبيبة أزوجكها ، قال نعم قال ومعاوية ابن ابى سفيان تجعله كاتبا بين يديك ، قال وتؤمرني حتى اقاتل الكفار كما كنت اقاتل المسلمين ، قال نعم . قال أبو زميل ، ولولا انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، ما اعطاه اذ لم يكن صلى الله عليه وسلم يسأل شيئا الا قال نعم ، هذا وما قاله أبو زميل الراوى عن ابن عباس من ان ابا سفيان زوج ام حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلاف ما عرف فى السيرة النبوية من ان النبى صلى الله عليه وسلم تزوج ام حبيبة وهى فى الحبشة بعد أن مات عنها زوجها وذلك قبل فتح مكة وقبل اسلام ابى سفيان . . فالله اعلم بحقيقة الامر وبما كان ، وأما هرقل وهو من اشهر ملوك

الروم ، ملكهم احدى وثلاثين سنة ويلقب بقيصر ، وفى عهـده توفى النبى صلى الله عليه وسلم وهو اول من احدث البيعـة ، واول من ضرب الدنانير والدراهيم بسكة الروم وكانت هذه السكة تروج رواجا ظاهرا فى بلدان الاسلام ولما ولى الخلافة عبد الملك بن مروان الاموى ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام ، وكان ذلك باشارة من محمد بن الحسين بن علي المعروف بالباقر رضى الله عنه ، ولذلك قصـة ماثورة ذكرها صاحب المحاسن والمساوىء ابراهيم بن محمد البيهقى من اشتاق الى مطالعتها والوقوف على حقـيقتـها ، فليرجـع الى المصـدر المذكـور .

هذا وان خلاصة القول فى بواعث هذه القضية هو انه قد اتفق فى هدنة الحديبية ، وفى آخر سنة ست (6) من الهجـرة النبـوية ، ورود كتاب النبى صلى الله عليه وسلم على هرقـل ، ذلك الكتـاب الذى حمله دحية بن خليفة الكلبى رضى الله عنه ليدفعه الى هرقل بواسطة الحارث بن ابي شمر الغساني كما اتفق ايضا اذ ذاك وجود جماعة من قريش بالشام فيهم ابو سفيان ولما علم هرقل بوجودهم ارسل من ورائهم ليباحثهم فى شـأن النبى صلى الله عليه وسلـم ، بمناسبة ورود الكتاب عليه ، وكان هرقـل وعظماء دولتـه اذ ذاك يوجدون ببيت المقدس جاءوا اليه شكرا لله على غلبة جنودهم لجنود فارس فاستجابوا دعوته ، وحضروا ندوتـه ، ثم دعاهم بواسطـة ترجمانه فقال ايكم اقرب نسبا ، بهذا الرجل الذى يزعم انه نبي ، فانبرى ابو سفيان قائلا ، انا اقربهم نسبا فقال قربوه مني ، وقربوا اصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم انـى سائل هذا عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه ، فقـال ابـو سفيان : فوالله لولا الدياء من ان ينقلوا عنى كذبا ، لكذبت عنـه اى لاخبرت عن حاله بالكذب ، لما كان عليه من شدة ، البغض والعداء للاسلام . وقول أبى سفيان هذا يعطي ان الكذب قبيح بحكم العقل والعادة ، كما ان سؤال هرقل عمن هو اقرب نسبا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، يبدى ان الاقارب اكثر اطلاعا على الجوانب من الاجانب ، وانما امر بجعل اصحابه عند ظهره ، ليمنعهم من السكوت حياء عند مجابهته ، وهذا ادل دلالة على فطنة الرجل ونباهته .

هذه هي عوامل المقابلة ، ووسائل المداولة بين عظيم الـــروم وزعيم العرب ، للتحقق من احوال النبى المبعوث صلى الله عليه وسلم.

وبما ان هذا الحديث المدعو ، حديث هرقل وابي سفيان ، قــد طال وتضمن كثيرا من المعانى الجميلة والمقاصد النبيلة التى لها صلة وثيقة ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم فانه من الممكن طبقا لمراميه ، وحفظا لمعانيه ان يفصل الى عدة فصول وان يقسم الى أقسام قــد تبلغ احد عشر قسمـــا :

القسم الاول ــ الدواعى التى دعت الى هذه المناظرة العلنية ، وقد مرت الاشارة اليها آنفا فى خلاصة القضية .

القسم الثانى ــ ذكر ما دار فى هذا المجلس الحافل من اسئـــلة واجوبة اجمالا وتفصيلا .

القسم الثالث ــ تعليق هرقل على اجوبة ابى سفيان الخالية من الغموض والبعيدة من الزور .

القسم الرابع ــ النتيجة التى خرج بها هرقل من هذه المبـــاحثة الحاسمة ، حيث قال لابي سفيان : فان كان ما تقــول حقـــا فانـــه سيملك موضع قدمي هاتين .

القسم الخامس ــ قراءة الكتاب النبوى ، الذى جاء به دحيـــة الكلبى ليدفعه الى هرقل بواسطة ملك غسان وبمحضر خبراء الدولة وعظمائهم ، وما تركته هذه القراءة من أثر فى نفوسهم .

القسم السادس ــ ملاحظة ابى سفيان بعد فراغه من السؤال والجواب وبعد قراءة ذلك الكتاب ، حيث قال لأصحابه ، لقد أمـــــر ابن ابى كبشـه ، انه يخافه ملك بنى الاصفر .

القسم السابع ــ استنكار البطارقة لحال هرقـــل عندمـــا كان ببيت المقدس ، وعلة ذلك الاستنكار .

القسم الثامن — اختلاف الروم فى نظريتهم الى العرب ، ونظرتهم الى اليهود لما تأكدوا من ظهور ملك الختان .

القسم التاسع — توافق هرقل صاحب حمص وضغاطر صاحب رومية على خروج النبى صلى الله عليه وسلم وصحة نبوءته ، وهما من زعماء المسيحية ، ومن علماء النصرانية .

القسم العاشر — كيف عرض هرقل الاسلام على الروم . وماذا كانت نتيجة هذا العرض .

القسم الحادى عشر — بعد أن توافق هرقل وضغاطر فى البداية، اختلفا فى النهاية ، حيث آثر هرقل البقاء فى رئاسة الرومان وفضل ضغاطر الالتحاق برسالة القرآن ، وبهذا القسم الحادى عشر ، تنتهي الاقسام وكل قسم له شأن ومقام .

وبعد ما انتظم الحفل والتأم الجمع ، كان اول سؤال القاه ، هرقل على ابي سفيان ان قال : كيف نسبه فيكم قال : ابو سفيان . . هو فينا ذو نسب ، اى عظيم لأنه ابن عبد المطلب ، كما قال عليه الصلاة والسلام .

(انا النبى ، لا اكذب انا ابن عبد المطلب) وعبد المطلب كان من اشهر قادة قريش وسادتهم ، ثم قال : فهل قال هذا القول منكم احد قط قبله ؟ قال ابو سفيان : لا ، ثم قال : اشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ . قال ابو سفيان : بل ضعفاؤهم ، وهذا الجواب كان من ابي سفيان باعتبار الغالب ، والا فعمر وحمزة من اهل الشرف والنخوة وقد كانوا اسلموا من قبل هذه القضية ، ثم قال : أيزيدون ام ينقصون ، قال : بل يزيدون ، ثم قال : هل يرتد احد منهم سخطة لدينه بعد ان يدخل فيه ، قال ابو سفيان : لا ، ثم قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ ، قال ابو سفيان : لا ، ثم قال : هل يغدر اى ينقض العهد ، ويخلف الوعد ؟ ، قال أبو سفيان : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال ابو

سفيان ، ولم تمكنى كلمة ادخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، ثم قال : فهل قاتلتموه ، قال ابو سفيان : نعم . قال : كيف كان قتالكم اياه ، قال : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه ، ثم قال : فماذا يأمركم ، قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف والصلة.

فهذه جملة ما دار من الاسئلة والاجوبة ، وهى تشكل احد عشر سؤالا ، وكل سؤال له جواب ، ومن نظر وتأمل فى هذه الاسئلة التي طرحها هرقل على أبى سفيان تبين له من تلقاء نفسه ، حسن ما استوصفه من أمره ، وما استبراه من حاله ، وادرك صحة عقله وسداد رايه ، لو ساعدته الاقدار ووفق فى هذا الاختيار ، فانه كاد يسلم ولكنه لم يسلم ، واثر هذه المناظرة الفصيحة والصريحة قال هرقل وهو حزاز الفصوص وفحاص الفحوص ، قال لترجمانه وبحضرة جماعته معلقا على اجوبة أبى سفيان وتصريحاته ، قل له ، أى لأبي سفيان . . سألتك عن نسبه فذكرت انه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

ومن هذه النقطة يمكن ان ننطلق الى القول بأنه ينبغى اعتبار الاحساب والانساب فى تولية الوظائف والمناصب لأن ذوى الانساب احوط الناس على عدم تدنيس نسبهم ، والازدراء بمنصبهم ولذلك جعلت الخلافة فى قريش ، ولذلك سأل ملك الروم على نسبه فى قومه ، ولكن المسلمين قد اعرضوا عن هذا الاتجاه واهملوه مع انه من النقط الحساسة فى الحياة الاسلامية الاجتماعية والاقتصادية . وسألتك هل قال احد هذا القول منكم قط قبله ، فذكرت ان لا ، فقلت : لو أن أحدا قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت ان لا ، فقلت فى نفسى لو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك ، اشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم ــ فذكرت ان ضعفاءهم اتبعوه وهم اتباع الرسل ، يعنى واما غيرهم فان معهم من مادة الشيطان ما يمنعهم من القبول والاذعان لدعوة الحق ورسالة العدل ثم قال :

وسألتك ايزيدون ام ينقصون فذكرت انهم يزيدون ، وكذلك امر الايمان ، فانه ينمو ويزيد حتى يكمل امره ويتم نظامه ، وقد قال سبحانه وتعالى ، مخاطبا لرسوله فى آخر حياته ، « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ثم قال ، وسألتك . . هل يرتد منهم احد سخطة لدينه بعد ان يدخل فيه فذكرت ان لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، اى حينما تذوق حلاوة الايمان فانه يستقر باذن الله ويطمئن بذكر الله ، وفى الحديث الصحيح (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وان يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى أو أن يقذف فى النار) .

وذلك ان من كان على بصيرة من أمره ، وتمكن نور الايمان من قلبه فانه لا يرتد ولا يتراجع عن دينه بخلاف من دخل فى امر لم يتأكد من صحته ، ولم يتمكن من قلبه فان ارتداده متوقع ، وتراجعه منتظر ، ثم قال :

وسألتك ، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت ان لا ، فقد اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، فان من لا يكذب على الناس لا يكذب على الله ، من باب اولى واحرى ، هذا هو المنطق ، وسألتك : هل يغدر ، اى ينقض العهد ويخلف الوعد ، فذكرت ان لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، اى لانها لا تتعلق بحظوظ الدنيا ، وانما تتعلق برضا الله فى مقابلة ، تأدية امانته وتبليغ رسالته والنصيحة لعباده . ثم قال : سألتك ، بماذا يأمركم — فذكرت انه يأمركم ان تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الاوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق ، والعفاف أى الاتصال بالله كل يوم خمس مرات ، فان الاتصال بالله يضمن العدل والانصاف ويمنع من السوء والانحراف ، والصدق مع الله وعباده « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » والعفاف أى كف النفس عما لا يحل شرعا ، ولا يجمل عقلا قولا أو فعلا .

والصلة أى صلة الارحام بحيث تكون موصولة لا مقطوعة ، ومن قطعها قطعه الله .

قال هرقل بعد هذا التعليق السامى الرفيع ، لابى سفيان : فان كان ما تقول حقا فانه سيملك موضع قدمى هاتين أى ارض بيت المقدس ، أو مملكة الرومان ، وانما استنتج هرقل هذا الاستنتاج لأن هذه الاشياء لا يتحلى بها الا أهل الدين والايمان ، وذوو البر والاحسان ، وهى وان كانت ليست بالدليل القاطع على ثبوت النبوة ، وانما القاطع هو وجود المعجزة الخارقة عند التحدى ، فان هرقل كان يعلم ذلك من الكتب القديمة ، وان هذه الاشياء امارات وعلامات فى خصوص هذا النبى الخاتم للرسالات بدليل قوله : وقد كنت اعلم ، اى من الكتب — انه خارج ، لم أكن اظن انه منكم من قريش ، ثم اكد ذلك مبرزا رغبته فى الايمان ولو أعلم انى اخلص اليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، بمعنى لو تيقنت انى أصل اليه من دون أن اتعرض لضرر من قومى لتكلفت الهجرة اليه ، ولو تمكنت من ذلك ، وكنت عنده وبحضرته ، لغسلت عن قدميه اى لأزلت عنهما مما لعله يكون عليهما ، وهذه غاية فى الخدمة والطاعة ومبالغة فى الاعتراف بالنبوءة والرسالة ، الا انه لم يلم بطرائق النجاح ، فلم يكتب له عند الله الفلاح . وبعد انقضاء هذه المناظرة الرسمية والمحاورة المنطقية ، وبعد الوصول الى هذه النظرة الايجابية والنتيجة الحتمية ، جاء دور قراءة الكتاب النبوى بمحضر بطارقته ، وأمر الترجمان بقراءته ، وها هو الكتاب الكريم بنصه وفصه ، كما جاء به الامام البخارى فى جامعه الصحيح .

(بسم الله الرحمان الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فانى ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم يوتك الله اجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الاريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة ، سواء بيننا وبينكم ، ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا ، اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

فهذا اصح مصدر حفظ لنا ، اصح كتاب تاريخى من كتب النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى فاتحته البسملة والمكتوب اليه رجل كافر . وفى خاتمته قرآن كريم ، والبلد الموجه اليها بلد كافر وقد تضمن السلام على من اتبع الهدى ، وتفسيره هو قول النبى صلى الله عليه وسلم ، اسلم تسلم ، فان من اسلم وجهه الى الله سلم من عذاب الله فى الدنيا وفى الآخرة ، وقوله صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم ، أى الذى تعظمه الروم ولم يقل ملك الروم ، لما تتضمنه هذه الكلمة من المعانى التى لا يستحقها الا المسلم ، على ان كلمة عظيم لا تخلو من التكريم وسبب ذلك هو قصد التأنيس والتأليف للاسلام ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، سلام على من اتبع الهدى فيه دلالة على انه لا يبتدأ الكافر بالسلام ، واجاز ذلك طائفة من السلف الصالح مستدلين بقوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » وقولوا للناس حسنا ، أى قولا حسنا ، وبقوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، هذه كلمة قديمة فى العربية ومعناها التخلص من كلام الى كلام ، ومن مقام الى مقام ، ومن الوسائل الى المقاصد ، وقوله صلى الله عليه وسلم (فانى ادعوك بدعاية الاسلام) الدعاية والدعوة كلاهما مصدر ، وبمعنى واحد ، اى ادعوك بكلمة الدعاية الى الاسلام ، والحاثة على الاسلام .

وهى كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : اسلم تسلم ، هذه دعوة ، وهذا أمر وله جوابان . . الجواب الاول بالسلامة ، والجواب الثانى بالغنيمة ، فان من اسلم ، سلم وغنم ، اسلم تسلم فى الدنيا وفى الآخرة ظاهرا وباطنا يوتك الله اجرك مرتين مرة لايمانك بعيسى ومرة لايمانك بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وروى الامام البخارى فى صحيحه عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة لهم اجران : رجل من اهل الكتاب آمن بنبيه

وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل عنده امة ادبها فأحسن تأديبهـا ، وعلمهـا فأحسن تعليمها ثم اعتقها فتزوجها فـله اجـران .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : فان توليـت فان عليـك اثـم الاريسيين ، الخطاب لهرقل بمعنى انه ان اعرض عن الاسلام وضرب عنه صفحا فانه يتحمل أثم اتباعه ورعاياه والاريسيين ، هم الفلاحون والزراعون ، زرعوا بأنفسهم أو بواسطة ، وانما عبر صلى اللـه عليه وسلم عن الاتباع بالاريسيين أى الفلاحين والزراعين ، لأنهـم الاغلب فى كل امة ، وفى كل شعب ، ولانهم أكثـر الناس انصياعـا للخير وانقيادا للحـق .

واذا كان عليه اثم اتباعه ورعاياه ، فلأن يكون عليه اثـم نفسـه وثقل حمله اولى واحرى فهو يحمل الوزر . والاثم مرتين مرة لتلبسه ومرة لتسببه ، والمتسبب كالمباشر فى المتابعة والمسئولية .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم هكذا جاءت الرواية وهى لا توجد فى التلاوة وهى اقتباس من القرآن الكريم ، والواو عاطفة ما بعدها على ما قبلها ، وتقدير الكلام ادعوك بدعوة الاسلام ، وادعـوك بقولـه تعـالى : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، وفى رواية الاصيلى وابى ذر ، يا اهل الكتاب بدون واو فتكون بيـانا لذلـك ، ادعوك بدعاية الاسلام ، يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، والمعنى يا أيها اليهود والنصارى تعالوا وهلموا الى كلمـة مستوية بيننا وبينكم ، لا تختلف فيها الكتب المنزلـة من السمـاء : التـوراة والانجيـل ، والقرآن .

وهذه الكلمة هى كلمة التوحيد ، وكلمـة الاخلاص والتقـوى ، وكلمة لا اله الا الله ، بمعنى اننا لا نعبد الا الله ولا نخضع ولا نركع الا لله ولا نسأل الا الله ، ولا نستعين الا بالله ، ولا نشرك به شيئا ،

اى لا نجعل له شريكا من اى شىء كان لا شمسا ولا قمرا ولا شجرا ولا حجرا ولا بقرا ولا نارا ولا نبيا ولا وليا ولا ملكا ولا ملكا ، انما هو اله واحد ، ورب واحد ، لا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى امره ، ولا تجرى ماهيته ، فى مقال ولا تحضر كيفيته فى بال ولا مثيل له ولا نظير « ليس كمثله وهو السميع البصير » .

ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، كلنا عبيد الله كلنا خلق الله ، كلنا سواء فى الحقوق والواجبات لا فضل لاحد على احد الا بالعلم والتقوى . . كما قال سبحانه « ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » . . فى صحيح البخارى عن مصعب بن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه ، ان سعدا رضى الله عنه ظن ان له فضلا على من دونه من الاصحاب وأراد بذلك ان يتميز عليهم فى الغنيمة لشجاعته وقوته وفتوحاته وهو أول من رمى فى سبيل الله وهو مقدم جيوش الاسلام ، فى العراق الى غير ذلك فظن ان له حقا فى الغنيمة زائدا على اصحاب الغنيمة ، فقال صلى الله عليه وسلم ، انكم تنصرون وترزقون بضعفائكم ، يعنى انه لا فضل لاحد على احد فى الغنيمة فالمقاتلة سواء فى الغنيمة ، واذا كان هذا قويا وشجاعا فهذا ايضا كاف بصلاته وصيامه واخلاصه ودعائه فلكل واحد جانب ، وكما أن النصر يكون بالسيوف كذلك يكون بالكفوف ، فالناس كلهم متساوون ، لا فضل لاحدهم على احد ، الا بالعلم والتقوى ، وبذلك لا نتخذ الاحبار والرهبان ، ولا ارباب القبور ، والاضرحة اربابا يحللون ويحرمون ، ويعطون ويمنعون ، ولا نقول عزير ابن الله ، ولا نقول المسيح ابن الله « ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله انى يوفكون اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون » .

ثم قال : « فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، اى اهل الكتاب اذا اعرضوا عن الاسلام واعرضوا عن التوحيد ، والايمان بالله ، واتخذوا الارباب من دون الله فقولوا لهم اشهدوا بأنا مسلمون لله ومومنون بالله ، وعابدون لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

هذا هو نص الكتاب النبوى ، وهذا هو معناه الاجمالى ، ويمكننا ان نستفيد من هذا الكتاب الكريم ان تبليغ الدعوة الى الخاصة بمثابة تبليغها الى العامة وانه لا يشترط التبليغ الى الاحاد والافراد ، ولذلك نستطيع ان نقول ان تبليغ الدعوة قد وصل الى العالم كله اللهم الا ما كان ممن هو مندس ومتوارى فى بعض الجزائر البحرية التى لا اتصال لها بالعالم فان حكم اهل الفترة ينسحب عليه بمقتضى ، قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

ولقد تناول المؤرخون هذا الكتاب الكريم وذكروا انه ما زال موجودا عند النصارى محفوظا بصناديقهم المصفحة بالذهب يتوارثونه ملكا عن ملك ، ويحافظون على ملكهم بالمحافظة عليه ، فى أكبر صوان واعز مكان حتى آل أمره الى (الادفونس) الذى تغلب على طليطلة وغيرها من بلاد الاندلس ثم كان عند ابن بنته الطاغية المعروف (بسليطين) وهم يجلونه ويعظمونه لمكانته ، ويبخلون ويشحون له لنفاسته ، ومن ثمة قال بعض المؤرخين ان ملوك اسبانيا من ذرية هرقل ، وان اسبانيا من جنس الروم ، والروم هم بنو الاصفر ، لقوله صلى الله عليه وسلم ، فى كتابه الى هرقل ، عظيم الروم ، ولقول ابى سفيان فى ملاحظته ، لقد أمر ابن ابى كبشه انه يخافه ملك بني الاصفر فبنو الاصفر هم الروم ، والروم هم بنو الاصفر ، والروم غير الافرنج ، فاسبانيا من الروم لا من الافرنج وفرنسا من الافرنج لا من الروم ، هكذا ذكروا ونقلوا ، والله اعلم بصحة ما قالوا .

وبعد الانتهاء من قراءة ذلك الكتاب الذى دعا الى الحق والصواب ، وكثرت الالغاط وارتفعت الاصوات واخرج العرب من البلاط ، لاحظ ابو سفيان على ذلك بقوله لقد أمر أمر ابن ابى كبشه انه يخافه اى من اجل انه يهابه ملك بنى الاصفر . وأمر أمره . . كبر شأنه وعظم أمره ، وابن ابى كبشه ، هو النبى صلى الله عليه وسلم ، وابو كبشه كنية ابيه من الرضاعة ، الحارث بن ابى العزى كانت له بنت تدعى كبشه فاكتنى بها .

وبنو الاصفر هم الروم لأن جدهم روم بن عيص ابـن اسحاق ابن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، تزوج من الحبشـة ، فأتى بولـد بين البياض والسواد ، فقيل له الاصفر ، وقيل لابنائه بنو الاصفر .

ثم قال أبو سفيان متأثرا بما رأى وسمع من ملك الروم هرقل فما زلت موقنا انه سيظهر حتى ادخل الله علي الاسلام ، ولما ادخل الله عليه بفتح مكة ابرز هذا اليقين الذى كان يجيش فى صدره ، ويحس به فى قرارة نفسه ــ « والله غالب على امره ، ولكن أكثـر الناس لا يعلمون » ــ قال ابن شهاب الزهرى : وكان ابن الناطور صاحب ايلياء وهرقل ، اسقفا على نصارى الشام ، كان يحدث ان هرقل عندما كان ببيت المقدس ، اصبح يوما خبيث النفس ، هـذه اشارة الى قصة اخرى تتمم القصة الاولى ، فقصة ابن شهاب مـع ابن الناطور تتم قصة ، هرقل مع ابى سفيـان ، والـواو عاطفـة والعطف ينبىء بالوصل ، فهى معطوفة على القصة السابقة وموصولة بسنـد القصة السابقة .

وتقدير الكلام حدثنا ابو اليمان الحكم بن نافـع قال : اخبرنـا شعيب عن الزهرى قال : اخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الى آخر حديث ابى سفيان ، قال ابن شهـاب بسنـد ابى اليمان ، عن شعيب وكان ابن الناطور ، صاحب ايليـاء وهرقـل على نصـارى الشـام .

هذه الاوصاف التى اعطاها ابن شهـاب الزهرى لابن الناطور يقصد بها تأكيد صحة الخبر ، الذى حدث بـه ابن الناطور لأن ابـن الناطور هذا كان يتمتع برئاسة دينـية وبرئاسة مدنية ، فكان رئيس بيت المقدس وكان اسقفا على نصارى الشام ، والاسقف بضم القاف ، وشد الفاء ، هو رئيس دينهم ، وقيم شريعتهم ، وهو لقب لمـا فوق القسيس ودون المطران ، والمعنى ان ابن الناطور هذا كان يحـدث ان هرقل ، اصبحت يوما نفسه خبيثة ، ليست نشيطة ولا منبسطة ، بل مهمومة ومغمومة ، بمقتضى ما اداه اليه علم النجوم .

وهنا نأخذ بالزمام ، ونختم هذا المجلس الشريف ، فنسأل المولى سبحانه أن يشكر لأمير المومنين جلالة الحسن الثانى هذا المظهر الاسلامى ، وهذا الحفل الديني الكبير الذى اتاح الفرصة بدروسه ، ومحاضراته للمواطن المسلم فى اى مكان وجد من هذه المملكة الشريفة ، أتاح له الفرصة ليتلقى بواسطة الاذاعة والتلفزة تعاليم الدين الحنيف واسرار الدعوة الاسلامية ، وان يتصل بمعانيها المادية والادبية اتصالا مباشرا اتم الله على جلالتكم نعمته الكبرى ، وجعلكم من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، كما نسأله جل جلاله ان يجمع كلمة المسلمين ، وان يبعث نور الاسلام فى العالمين ، وان يوفق الامراء والرؤساء لرفع الراية باليمين وان ينصر عباده المجاهدين ويثبت اقدامهم فى سائر الميادين ، وفى اى بلد من بلاد المسلمين ، وان يشدد وطأته على القوم الكافرين المعتدين ، كما نسأله ونضرع اليه سبحانه ان يحيط جلالتكم بعنايته الربانية والطافه الخفية وان يحفظ جلالتكم فى سائر حركاتكم ، وفى كل مرحلة من مراحل كفاحكم ، وان يقويكم ويوفقكم ويعينكم على ما أنتم بصدده ، وعلى ما انتم عازمون عليه من مواجهة القوة الغاشمة فى تحرير الاجزاء الباقية ، وتحرير الاقاليم الصحراوية تلك الاقاليم التى اصبحت ، وباتت فى تنازع كافر وفى تآمر سافر مع دولة استعمارية صليبية .

ابقاكم الله عزا للاسلام وركنا للايمان ، وفخرا للاوطان ، وجعلكم اماما يقتدى بكم فى الدعوة والجهاد ، وملجأ لقمع الظلم والالحاد ، واصلح ولي عهدكم الامير الجليل سيدى محمد ، وصنوه المولى رشيد وسائر الامراء ، وحفظ اسرتكم ومملكتكم من كل مكروه وبلاء ، ورحم الله مولانا محمد الخامس الذى عاهد الله فأوفى بعهده والذى جاهد فى سبيل الله وفى سبيل شعبه ، حتى ادرك المبتغى ، وحقق المرتجى رحمه الله رحمة واسعة ، وانزله منزلة عالية ، وامتعه برفقة النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين .

وانه لواجب ان نتحرك على قدم هذا الامام الصالح الذى قصد فحرر شعبه ، وارشد فأيقظ اهله ، وان نسير من وراء الخلف البار

الامام القائد الخبير الهمام لنشــد على الغاصب شــدة صادقــة ، ولنحمل عليه حملة صاعقــة .

وقد قال سبحانه : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليــم » .

وهذا بعد استنفاذ جميع وسائل الاقناع ، واستشهاد شواهــد الاجماع ، فان المحاجزة قبل المناجزة لقوله تعالى : « وان جنحــوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » .

وان منطق القوة هو منطق هذا العصر ومن نطــق من دونهــا فمئاله الخيبة والفشل والخــزى ، ومن مكــر فالله ماكــره ، ومن استطال فالله قاهره ، اللهم انا نتوكل عليك فى انتزاع حقنا وانتصار جيشنا ، ونعوذ بك من ظلم الظالمين ، وشر المعتدين فانك ذو القــوة المتين وذو فضل على العالمين ، والختــم بعد هذا لأمــير المومنين ، والســــــلام

الدرس السادس | 15 رمضان المبارك 1395

موضوعه:

المنهج الإسلامي وخصائصه

من قوله تعالى:

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه »

صدق الله العظيم

ألقاه:

فضيلة العلامة الدكتور الحبيب بلخوجة

عميد كلية الشريعة بتونس



بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير النبيئين امام المتقين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

حضرة صاحب الجلالة امير المؤمنين مولاى الحسن الثانى :

يا واحد الدنيا وسوف اعيدها ... مثنى وان اغنى غناؤك موحدا

الناس انت وسر ذلك انه ... اصبحت فيهم بالعلا متفردا

شيم تفوق شذى المديح وان غدا ... مسكا بأقطار البلاد مبددا

وجميل ذكر قد تضاعف ذكره ... مما يعاد به الحديث ويقتدى

بهذه الرعاية الدائمة واللفتة السامية التى ترفعون بها قدرى وتعلون بها من منزلتى وتشرفونى للمرة الثانية بالجلوس اليكم فى هذه الدروس الحسنية لاتحدث فى موضوع يكون له صلة بتراثنا الاسلامى وبعلومنا الاسلامية اجدنى جد متأثر لهذه الاريحية الكريمة واجدنى معتزا كل الاعتزاز بالانتساب الى هذا المجلس والى صاحبه وانى حين اذكر ذلك اذكر ما كان لكم من قبل ، قبل مقام والدى وشيخى واستاذى محمد الفاضل بن عاشور تغمده الله برحمته الواسعة واذا كنت قد تحدثت قبل عن الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه واثرهما فى المؤمنين ثم انتقلت الى الحديث عن الامة الاسلامية بين ماضيها وحاضرها

فانى اذا اذن مولاى اتحدث اليوم عن هذا الامر الذى يشد الامة الاسلامية بأصولها ويبعث امجادها ويحقق مستقبلها كما حقق نشأتها وهو القرآن العظيم .

وكتاب الله القرآن العظيم وحي انزله سبحانه وتعالى على نبيه ليرفع بذلك المجتمع الانسانى وليكون بين الناس هدى ورحمة وليأخذ بأيديهم الى السبيل الاقوم ، « كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . كتاب جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي وبلغه هو بكل امانة وتلقفه المسلمون عنه جيلا بعد جيل وبقى محفوظا فينا حفظا لهذا الدين وحفظا لهذه اللغة وحفظا للملة الاسلامية وهذا الكتاب الكريم الذى هو وحي من الله والذى هو هداية قد اعجز المخلوقات اعجازا كاملا فلم يستطيعوا الاتيان بمثله ولا بشيء منه ، فكانوا مرهوصين لهذه المعانى الاعجازية التى اشتمل عليها كتاب الله العظيم . وقديما وحديثا تحدث الناس عن جوانب الاعجاز فيه ، فمنهم من تحدث عن الجانب اللفظي والبيان اللغوى حتى جعله شيئا لا يمكن ضبطه ولا حصر جوانبه لكثرتها ودقتها وجمالها ولكونها لا تخلق على طول الرد ولا تنقضى العجائب منها فكان ذلك هو الذى اشار اليه مصطفى صادق الرافعي : رحمه الله بقوله : القرآن آيات منزلة من حول العرش فالارض منها سماء هي منها كواكب بل هو الجند الالهي قد نشرت له من الفضيلة علم ومن الرئاسة تاج، ثم يقول : الفاظ اذا تتالت فكأنفاس الحياة الآخرة «واصحاب اليمين ما اصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب » الخ الآية . واذا هى اشتدت فكأمواج البحار الزاخرة « واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم » . ثم ان هذا الكلام المعجز لم يأت على أى وجه ولا على أى نوع من الانواع المتعارفة عند العرب فليس هو بالشعر وليس بالنثر ولكنه ضرب مبتدع غريب حارت عقول الناس فيه ولم يستطيعوا مضارعته ولا الاتيان بشيء من مثله وكانوا قد وقع تحديهم بذلك وتظاهر بعضهم مع بعض فلم يستطيعوا الاتيان بشيء . وهناك من نواحى الاعجاز جانب الاخبار عن الغيبيات وعما سيقع فقد

اخبر بنصر الروم واخبر بفتح مكة واخبر المسلمين بكثير مما كانوا يتوقعونه ولما يقع فكان هو المبشربحدوث تلكاشياء كما اخبر باحوال الامم الماضية والقرون السالفة وهى اشياء لم يكن يعرفها النبى صلى الله عليه وسلم باعتبار كونه أميا ولم يكن يعرفها عامة العرب لكونهم اهل بداوة ولكونهم كانوا بعيدين عن المجتمعات الحضارية ، ثم عد العلماء جوانب اخرى من الاعجاز كثيرة ، ولعل من هذه الجوانب التى تشير الى اعجاز القرآن وتنطق به الجانب الذى لم يجد عناية الا من بعض الفقهاء عندما نظروا فى الاحكام الشرعية وضبطوا القواعد الاصولية وذهبوا بعد ذلك الى البحث عن الاسرار التشريعية والمقاصد والقواعد الكلية المتعلقة باحكام هذا الدين ، ولكننا لو تأملنا هذه الاحكام نفسها وتدبرنا الآيات القرآنية المنزلة بها وتدبرنا كل الايات القرآنية لكونها تمثل المنهج الدينى الذى ينبغى أن يكون عليه المومنون وتمثل ايضا النظام الربانى ، النظام الاسلامى الذى ينبغى ان يسير عليه المهتدون ، لوجدنا فى ذلك مظهرا جديدا من مظاهر الاعجاز لم يعطه العلماء حقه من البحث والدرس ونحن نكتفى فى هذا الحديث بالالماع اليه الماعة خفيفة راجين من العلماء اصحاب العلم الالهى والعلم الدينى ان يتعمقوا هذا الموضوع وان يعطوه حقه .

فكتاب الله سبحانه وتعالى وهو وحي كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم فيفصله ويبينه للناس ومن هنا كانت السنة النبوية شرحا له ثم يتلقفه اصحاب رسول الله والائمة المهتدون فيجعلونه منهاجا لهم ويطبقونه وبذلك استطاع المسلمون ان يخرجوا من العدم وان يكونوا دولة فى فترة قصيرة وان تنتشر دعوتهم وان تكتمل اسباب الحضارة فيها فى ظرف قليل وقريب جدا .

ما ذلك الا للاعجاز الذى يكتنف هذا النظام وهذا المنهج الذى لا يمكن ان يشبهه فى ذلك اى نظام واى منهج آخر لان الانظمة الاخرى والمناهج الاخرى مناهج وانظمة بشرية وهذا نظام الهي قد اختاره للناس بحكمته ووضع له كل ما يمكن ان يحققه بينهم وراعى فى تحقيقه الطاقات والحاجات والقدرات التى يمكن أن تتوفر فى الانسانية وفى البشر عامة .

ونحن حين ننظر لكتاب الله العزيز يتلى فينا وحين نتطلع الى هذا المنهج الدينى والى هذا النظام الربانى نجد القرآن نفسه يعبر عن وظيفته ثم يتحدث عن اهدافه فاذا هو قرآن ، واذا هو مع ذلك شفاء لما فى النفوس لما فى الصدور ، واذا هو مع ذلك موعظة وهو الى كل ذلك هداية . واما الوظيفة فهي تحقيق هذه الهداية للناس لمن اتبعه واخذ به ، ثم بعد ذلك نجد الاهداف التى يرمى اليها هذا النظام .

وقد استعرضت بعض آيات من الذكر الحكيم فوجدت بعضها يشير الى جوهر القرآن وحقيقته والبعض الآخر يشير الى وظيفته والبعض الثالث يشير الى الحقيقة والوظيفة معا مع ذكر الاهداف وتحديدها من قبل الله سبحانه وتعالى .

أما الجانب الاول وهو معنى القرآن وجوهر القرآن وكنه القرآن فقد نطقت به آيات كثيرة منها قوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » ـــ « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

وهنا تومىء الآية الكريمة الى وجوب ملاحظة ما ينبغى أن يتحقق فى ذهن المسلم وفى ذهن غير المسلم عند ما يقرأ القرآن ويتدبره من مقارنة بين الحال التى يحرص الناس عليها والحال التى هم مطالبون بها لان هذه الحال التى يطالبون بها من قبل الله العلى العظيم هى اكمل واحسن وهي التى تستحق منهم ان يفرحوا وتقتضى منهم البهجة لانها تمثل فضل الله ورحمته وشفاء ما فى نفوسهم وصدورهم .

والآية الثانية هى قوله جل وعلا : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . واما المعنى الثانى الذى يشير الى المنهج والقصد والى السبيل التى على المؤمنين ان يتخذوها فذلك قوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون

الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » . وأما الآية التى تجمع بين الكشف عن حقيقة القرآن وكنهه وعن الهدف منه وعن الحقائق التى يريد الله سبحانه وتعالى ان يجليها لنا حين نتبع هذا القرآن وحين نتمسك به وحين نتخذ ما جاء به هدى وبيانا ومنهجا وطريقة ونظاما فذلك قوله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » .

هذه الآية الكريمة حين نقف وقفة قصيرة ازاءها نجدها تبين لنا الحقيقة القرآنية فى القسم الاول منها وهو قوله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ثم هى تشير الى الاهداف الثلاثة : الهدف الاول بقوله تعالى : يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، والهدف الثانى بقوله تعالى : ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، والهدف الثالث : بقوله تعالى : « ويهديهم الى صراط مستقيم » .

وهذه المعانى لم تكن تخفى على احد من المؤمنين الاولين الذين اكرمهم الله بأن عاشوا فى تلك الفترة العظيمة فترة نزول الوحى وفترة الاتصال المباشر بمنقذ الامة المبعوث رحمة للعالمين محمد صلى الله عليه وسلم فكان هذا الاتصال وكان هذا التلقي بوحي منه وكان هذا الاهتداء المباشر بما يأمر به والانتهاء بما ينهى عنه كان ذلك كله سبيلا لترويض النفوس وتربيتها وتطبيق النظام وجعله سائرا بين الناس ونشره فيهم ثم الوصول الى تحقيق المعجزات الكبرى . ولذلك عند ما سئل جعفر بن ابى طالب رضى الله عنه ما سأله النجاشى عن حقيقة الاسلام لما جاء قومه يطلبونه من عند النجاشى قال له : ايها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الارحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن من دونه من الحجارة والاوثان وامرنا بصدق الحديث وأداء

الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

هذه الثورة البناءة فى المجتمع القروى البدوى الجاهلى الذى عكف على عبادة الاصنام فكان يرضى بتحكيم الحجارة وكان يأخذ باسباب الامتهان للمرأة والرجل جميعا وكان يقوى على الضعيف قوة لا تردع ولا يمكن مغالبتها اذا كان سيدا فى قومه ، ويأتى الفواحش ما ظهر منها وما بطن كل ذلك تحول الى نظام رائق عجيب بديع سنه الله بتشريعه واوحى به الى نبيه وجاء به كتابه العظيم فكان هذا الانقلاب فى الامة العربية فى جاهليتها ووصولها وبلوغها الى درجة القيادة التى استحقتها بحق لكونها تولت أمر الانسانية ردحا من الزمان وعلمت البشرية اصول الحضارة والحكمة والهداية والتوفيق فكان ذلك سببا لانتشار الاسلام فى اطراف الدنيا وهذا المعنى كما قلنا يدركه المؤمنون الاولون لانهم عاشوا هذا الظرف ولانهم مروا بالتجربة بأنفسهم ولانهم وجدوا حلاوة الايمان فيما ظهر على ايديهم من خيرات وفيما نما على منهجهم من بركات ولكننا اذا تأملنا الآية الكريمة وجدناها فى الواقع قد مهد اليها ووطىء لها بآية أخرى تجعل الخطاب فى هذه الآية موجها لغير المومنين لان المومنين ليسوا فى حاجة الى معرفة هذه الاحقاب ولكن الخطاب موجه الى اهل الكتاب الذين يخفون كثيرا من آيات الله ولا يريدون اظهارها طمسا للحقيقة ويكون موجها ايضا للمسلمين اليوم الذين ابتعدوا عن حقيقة الايمان التى كان يتمثلها الصدر الاول والتى عصفت بهم رياح الايديولوجيات عصفاً جعلهم بعد ذلك لا يجدون الطريق التى يسلكون ولا السبيل التى يأخذون بها ليكونوا من المهتدين .

تقدم هذه الآية قوله تعالى : يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير واذا كان هذا الخطاب موجها الى أهل الكتاب الذين كانوا يخفون بهن الآيات

وموجه الى بقية المومنين من اهل هذه الملة لبعدهـم عن حقيقة هذا الدين وعدم تصورهم لذلك الظرف العجيب الذى مر بـه اسلافنـا ورجال مجدنا ومؤسسوا هذه الحضارة العظمى فانه يكون علينـا لزاما ان نقف عند هذه الآية وان نتبين بشيء من الدقـة المعانى التى تومىء اليها ، قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » . ذهب علماء الاسلام والمفسرون الى ان المقصود من النور فى هـذه الآية قد يكون احد امور ثلاثة يجوز ان يكون المراد بالنـور القرآن ، ويجوز ان يكون المراد بالنور النبى صلى الله عليه وسلم كما يجوز ان يكون المراد بالنور هنا الاسلام وذهبت طائفة الى انه لا يجوز ان يكون المقصود من النور هنا القـرآن لان العطف يقتضى المغايـرة ، فقوله تعالى : « وكتاب مبين » معطوفا على نور بواسطة الواو يشير الى ان المعطوف عليه غير المعطوف ولكن بقية العلماء يذهبون الـى ان المقصود بالنور هنا هو القرآن وان العطف قد يكون عطف بيـان او من نوع عطف البيان ، ويكون تأكيدا للمعنى الاول خصوصا وقد وردت آيات كثيرة وقع الاطلاق فيها اطلاق لفظ النور فيها على القرآن الكريم فسمي القرآن نورا ، قال تعالى : « فالذين آمنـوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه اولئك هم المفلحون » ، النـور الذى انزل معه هنا هو القرآن ، وقوله تعالى : « فآمنوا باللـه ورسوله والنور الذى انزلنا » فهو القرآن ، وكذلك قوله جل وعلا : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا » . والنور المبين هو القرآن . وكون القرآن نورا منزلا من الله سبحانـه وتعالى متصلا بالمومنين الذين يتلقفونه ويتعرضون لنفحاته يجعـل هؤلاء المومنين شاعرين بحقيقته عند ما يخالط هذا القرآن ضمائرهم وعقولهم وكيانهم وحياتهم وكل ما يلابسهم فى هذه الحياة ، فكـون القرآن نورا للضمير ، لانه يطهره من كل ما يلابسه من الغرائز ومن الشهوات ، ومن الميول والانحرافات ، وكونه يتصل بالعقل فلكونه يقيه الضعف والخطأ والاضطراب والفشل وكونه يتصل بالكـيان ، فلأن المومن اذا كان مومنا فان القرآن يكون هو الذى يملى عليـه تصرفاته ، ويملى عليه حركاته ، فلا يصدر عنه شيء الا وهو مراقب من نفسه التى امتلأت اذعانا وخضعت انقيادا لحكم الله ولكلام الله

مطيعة لله ، وهذه المعانى اذا ثبتت واذا تمت بالنسبة للمومن يكون خيرا ويكون قائما على العمل الصالح ويكون حقيقا بأن يصل بنفسه وبجماعته من حوله الى تحقيق الخير العظيم أما هذه الاهداف التى تحدثت عنها الآيات الباقية فانها أولا كما قال تعالى : « يهدى به الله من اتبع رضوانه » ولا شىء فى الرضوان المقصود من هذه الآيــــة غير الاسلام ، فالمقصود من هذا الرضوان أن يكون الناس على دين الاسلام ضرورة ان الله سبحانه وتعالى قد حصر الدين فيــه قــال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » وهو لا يقبل غيره من الاديان ودليل ذلك قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » ثم صرح جل وعلا بكونه قد ارتضى هذا الدين للمؤمنين لكونه منهاجا ظاهرا كريما علويا يستطيع أن يرتقى بهم الى اعلى الافاق ويحقق على ايديهم كل الاشياء التى يطلبونها فاذا هو تعالى يقول : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » . ويقول جل وعلا : « وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » هذا الدين هو الاسلام ثم ان الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية اشار الى انــه يهدى بالقرآن من اتبع رضوانه أى المسلمين سبل السلام . ومــا هي سبل السلام ؟ سبل السلام هى نقطة الاستفهــام فى هــذا العصر ، سبل السلام هى التى يبحث عنها كل معسكر من المعسكرات الموجودة فى العالم وتبحث عنها كل أمة وكل دولة وكل طائفة وكل جماعة وهم مع ذلك لا يجدون سبل السلام وكلما فكروا فى طريق يصل بهــم الى السلام الا قامت مضاعفات من حول هذا الطريق تحيد الناس عن الوصول وتمنعهم من بلوغ ذلك الهدف الذى يمنون به انفسهم منــذ عهد طويل ، واذا أردنا أن نبحث عن حقيقة هذا السلام فان السلام له مظاهر كثيرة وله مجالات عديدة فالسلام يكون بالنسبة للفــــرد شاعرا بالراحة والاطمئنان شاعرا بهناءة البال شاعرا بكونــه قادرا على ان يتحرك وانه لا شىء يمنعه أو يصرفه عن قصده اذا هو اراد أن يحققه ذلك القصد الطيب الخير ، وسلام الجماعة وسلام العالم وسلام الضمير وسلام العقل وسلام الجوارح كلها وسلام البيــت والاسرة التى تعتبر خلية من الخلايا التى لا بد من العناية بها وتحقيق السلام فيها تحقيق السلام بالنسبة للاطفال وتحقيق السلام بالنسبة

للزوجين وتحقيق السلام بالنسبة للاقرباء وتحقيق السلام لهذه الخلية حتى تعيش عيشة طيبة وتنمــو وتترعــرع وتكون بعد ذلك خليــة صالحة فى مجتمع صالح ثم السلام فى هذا المجتمع كله فى الامة بأسرها ثم السلام فى البشر والانسانية والسلام هذا يكون مع الحياة عندمــا نستطيع أن نجعل هذه الحياة سبيلا للآخرة عندما نستطيع ان نجعل من الدنيا متجرا كما قال على بن ابى طالب كــرم الله وجهــه : هى متجر أولياء الله ، ثم ان يكون السلام متمثــلا مع الكون والســلام المتمثل فى الكون ومع الكون هو باستثمار الكون ، باستــثمار كــل ما سخره الله لنا من ملكوته فى هذه الارض لنعبــده حــق العبــادة ولنشكره حق الشكر ولنكون بعد ذلك من المستخلفين بحــق فى هذه الارض ثم السلام مع الله وهذا السلام لا بــد لتصــوره من ادراك ما يجب على المسلم من احوال كى يكون فى حالة سلام مع الله وقد آذن بهذا المعنى واشار اليه قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنــــوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم » ، فالله سبحانه وتعالى يدعونا الى السلام معه وذلك بالاستسلام الكامل اليه استسلام طاعة ، واستسلام وثوق فى الله واستسلام اطمئنان لحكمه وقضائه واستسلام رضاء بحكمه وقضائه وهذا لا يكون الا متى تصورنا حقيقة الله تصورا تاما بكونه واحدا لا يشاركه فى ملكه احد وبكونه قويا لا يستبد بشىء دونه احد وبكونه قادرا لا يستطيــع أن يضارعه فى قدرته احد ، وبكونه عزيزا وبكونه قاهرا وبكونه عــادلا وبكونه حكيما وبرا ورحيما ، فاذا اصبحت هــذه الاسماء الحسنى التى هى اسماء وصفات للذات العلية باعتبار كونها تدل على حقائقها الكاملة من هذه الذات فان المسلم المنقاد الى ربه الذى يمثل أمــــره بعبادته قال تعالى « وما خلقت الجــن والانــس الا ليعبــدون » . وليست العبادة صلاة فقط ، وليست العبادة صيامــا فقــط وليست زكاة فقط ولكنها قيام بالواجب الذى امر به الله تحقيقا لطاعة اللــه ووصولا من هذه الطاعة الى ابراز الارادة الالهية التى يريدها فى الامة الاسلامية وفى الجماعة الاسلامية أمة قوية عزيزة منيعة يمكن لها أن تبلغ أعلى الدرجات لا بشىء الا بفضل امتثالها أمر ربهــا وخضوعها

لحكمه وتتبعها وانتمائها للمنهج الذى وضعه لها وهو الحكيم العزيز ، اما الهدف الثانى فهو يتمثل فى قوله تعالى : « ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » يخرجهم من الظلمات والشبه والخرافات والاساطير والاوهام التى تقتسم المجتمع الاسلامى اليوم ، بين بـــدوى وجاهلى وامى وبين حكيم وفيلسوف وعالم ، ولكن هؤلاء ، واولئـــك امـــا ان يكونوا خاضعين للاوهام والاساطير واما ان يكونوا خاضعين للشبه والخرافات ، ولهذا فانهم يضلون الطريق ويشعرون مع ذلك بحرج وبكونهم فى ظلمة لا يهتدون السبيل ، ثم هناك ظلمة اخرى هى ظلمة الشهوة وظلمة النزعات النفسية ، وظلمة الاندفاع فى التيه ، وظلمة الحيرة والقلق اللذين يساوران المرء وظلمة البعد عن الهدى وظلمة الاضطراب فى القيم وفى الاحكام والموازين وعدم تصور القيم والاحكام والموازين على النحو الذى شرعه الله ووضعه للناس ، فاذا بهـــذه الاحكام والقيم والموازين مختلفة بين الشرق والغرب بين العرب وغير العرب بين المومنين وغير المومنين فاذا هى بحكم اختلافها تجعـــــل الناس حيارى لا يعرفون السبيل الموصل الى الخروج من ذلك الظلام الذى ينير لهم الطريق فاذا بالقرآن الكريم يخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، وقوله تعالى (باذنه) فسرها علماؤنا رضى الله عنهم بقولهم : بعلمه ، وانا ــ تفسيرا وتجلية لهذا العلم ــ اقول : بأن العلم يكتنـــف ويجمع التقدير الالهى ، لان العلـــم من الله تقديـــر لاسباب ومسببات وتركيز لنتائج على مقدمات ، فاذا كان الله قد كتب للناس النجاة والخروج من الظلمات الى النور باذنه اى بتقديره وعلمـــه ، لانه يقول : اذا اتبعوا هذا المنهج كان نجاتهم وكان خروجهـــم الـــى النور ، وبذلك يتحقق الهدف الثانى .

وأما الهـــدف الثالث فهو قولـــه تعالى : « يهديهـــم الى صراط مستقيم » . وهذا الصراط المستقيم هو الصراط الذى يكون مستقيمـــا غير معوج ، مستقيما ومتماشيا مع الفطرة ، فطرة الانسان والنواميس التى تخضع لها هذه الفطرة ، وفطرة الكون والنواميس التى يخضع له هذا الكون ، والفطرة مع الله فى انجذاب الفـــرد والعبـــد والكون وما فى هذا الوجود الى الله طائعا وممتثلا أمره لكونه فى قبضتـــــه

يتصرف فيه كيف يشاء فاذا تحققت هذه المعانى وشعر المؤمن بدرايته وروأيته بقراءته للقرآن وتلاوته وبتحكيم القرآن فى نفسه وفى سلوكه ، فانه لا بد بالغ لهذه الحقيقة وواصل الى أن يتمسك بالعروة الوثقى التى هى هذا المنهج الاسلامى .

فالمنهج الاسلامى اذن هو ما جاء به الكتاب ما جاء به القرآن ولا يمكن بحال ان نتصور بلوغ الناس بالقرآن الى الاهداف التى يطمحون اليها اليوم الا اذا كانوا مدركين لما اشتمل عليه هذا النظام من احكام وقوانين الا اذا كانوا واعين بما فيه من خير لانى ارى ان المجتمع الانسانى اليوم بعد هزات عنيفة مثل الثورة الاقتصادية ومثل الثورة الصناعية وكل الاطوار التى مرت بأوربا وبغيرها من المراحل التى جعلت الناس عقب تلك الهزات يضعون فلسفات جديدة ويضعون مناهج جديدة ، فاذا بمذاهب فلسفية مثل الوجودية ومثل المثالية والواقعية والسريالية وما اليها ثم هذه المذاهب بعضها يصبح عمليا مطبقا فى نظريات مادية وبعضها يجنح الى طريقة اخرى فاذا نحن مثلا بين رأسمالية وشيوعية وبين الوان من الاشتراكية كل واحدة منها تتجه بالناس اتجاها وهى تقول ان سلامتكم بيدى وان مستقبلكم عندى وانى كفيلة بتحقيق السعادة والخير والامن والرخاء ، وهذا ما يطلبه الناس لكن الواقع وان هذه المذاهب عند الذين انتحلوها مشكوك فى صحتها ومشكوك فى كونها موصلة الى الغايات التى تهدف اليها بدليل ما ينشأ فى كل اقليم وفى كل بقعة من تنكر بعض من تلك المذاهب ومن رد عليها وانتقاد لها وبدليل ما ينشأُ فى هذه المجتمعات الانسانية من حيرة ومن اضطراب يؤدى احيانا الى طلب الموت والى الانتحار وفى مرات أخرى الى ألوان من الظلم والطغيان التى لا قبل للناس بها .

والمخلص من هذا كله ان نعود الى النظام الالهى وبحق لا نستطيع أن نعود الى النظام الالهى حتى ندركه وهذا النظام الالهى النظام الربانى النظام الاسلامى المنهج الذى جاء به القرآن هو الذى يهدى المسلمين سبلهم وهنا الاعجاز لان هذا المنهج من وضع

الله وليس من وضع الانسان فالانسان عاجز تعترضه الغفلة ويكون خاضعا لبعض النوازع ومتأثرا ببعض الشهوات وناظرا لبعض المصالح ومتأثرا بالمصلحة الشخصية .

أما الحكم الالهى فهو فوق ذلك كله لكونه من عند الله ولكون الله هو الذى خلق البشر ولكونه يعرف الطاقات التى أودعها فى هذا البشر ويعرف الامكانيات التى بأيديهم ويعرف الاهداف التى يمكن أن تحقق لهم الخير فهو يضع لهم المنهج ولكن المؤمنين ينبغى أن يبحثوا عن اسرار هذا المنهج لتبينه وادراكه على وجهه ، وفى هذا ظاهرة الاعجاز للمنهج الالهى الذى وضعه للمسلمين لكى يتبعوه وكى يكونوا بعد ذلك من الفائزين .

وقد تذهب بعض الاتجاهات الايديولوجية فى احتكامها وحكمها على الاسلام ، لان الاسلام الآن فى عصرنا يقف موقف الدفاع ولا يقف موقف الدعوة ولا الهجوم لكونه ضعيفا اما اذا قوى اهله فانهم يستطيعون دعوة الناس الى الخير اما وهو فى موقف الدفاع فان كل المذاهب الايديولوجية الاخرى تقول ان النظم التى وضعناها واصطلحنا عليها تحقق الخير للانسان لاننا بحكم تقدمنا العلمى فى الوان المعارف الطبيعية كلها نستطيع ان نقوم بتجارب اجتماعية كما قمنا بالتجارب الطبيعية ونحقق من وراء ذلك ما لا يمكن للدين الاسلامى ولا لبقية الاديان ان تحققها . ولكننا نقول : ان التجربة الطبيعية قريبة من الواقع وقريبة من اليقين ويقوم بها الفرد ويكون موضوعيا أما التجربة الاجتماعية فهى ابعد من ذلك ونحن لا نستطيع ان نتصور الجانب الرائع فى هذا المنهج الالهى ، انما متى التفتنا الى جملة اشياء لا تقف عند استيعاب الحكم الالهى والمنهج الربانى لجميع الاشياء بل تتجاوز ذلك الى قدرة النظام الاسلامى على انشاء القيم الاخلاقية والى ارتفاع النظام الاسلامى عن الواقع وهيمنته عليه والى عدم حتمية ارتباط النظام الاسلامى بالعامل الاقتصادى والى الثبات فى هذا النظام الربانى الذى لا يعرف تراجعا ولا تقهقرا ولا اختلافا ولا تناقضا ، فاذا عدنا الى هذه النقط وجدنا ان الاستيعاب

بالنسبة الى هذا النظام الاسلامى يجعل كل محاولة بشرية وكل تجربة اجتماعية واقفة دونه ، لان التجربة الاجتماعية معرضة للخطأ لكونها لا تستوعب كل الاشياء ، فالمجرد للقضية الاجتماعية هو جزء منها وهو حين ينظر اليها ، ينظر اليها من جانب وتغيب عنه جوانب اخرى ، وهو لا يستطيع ان يصبغ كل الافاق التى تمتد اليها ابعاد النظام الانسانى الذى يراد كفالته بكل ما يحتاج اليه من حرز ومنعة ؛ ولذلك فان التجربة الاجتماعية ليست استنتاجا منطقيا وهى بحكم كونها تتطلع الى نظام اصلح لا يمكن أن تتصور هذا النظام الاصلح الا بشمول هذه التجربة لكل هذه المجتمعات وعندئذ ينبغى أن نلغى كل هذه الانظمة الاجتماعية واستبدالها بشىء آخر ويكون البديل من غير شك هو النظام الاسلامى ثم نجد ان العاطفة وان الجانب الذاتى وان النواحى الشخصية التى تملى على واضع التجربة ومكتشفها ومبتكر اصولها ومبادئها لا يمكن أن تغيب ، ولذلك فهو يدافع عنها وان كان يعلم ان نتائجها الخسران ، لماذا ؟ لكونه يعز عليه أن يظهر ضعيفا أو ان يدعو الناس أو أن يجعل الناس متبعين لغير مذهبه .

فالدين الاسلامى والمنهج الاسلامى منهج مستوعب لكونه موضوعا من الله بحكمه وتقديره لحماية المجتمع الانسانى ، ولحماية الملة الاسلامية على الخصوص التى رضيت باتباع هذا الدين وتمسكت به ، واما الظاهرة الاخرى التى توجد فى هذا المنهج ولا توجد فى غيره ، فان كل الايديولوجيات الاخرى لا تستطيع أن تغرس فضيلة ولا أن تقتلع رذيلة الا بصفة تكون حاملة للناس زجرا وقسرا على الاتجاه فى سبيل معينة أو على مخالفة ذلك الاتجاه ، وهذه القسرية وهذا الالزام أو الجبرية ليس بالامر الذى يطمئن اليه الاسلام لان كل شىء يكون قسرا وجبرا لا يمكن أن يستمر الناس على الامتثال اليه وطاعته ، ولكن الاسلام وضع المثل الاخلاقية فى نفس المؤمن باعتبار كونها دينا يمارس وباعتبار كون الله رقيبا عليه حين يمارس هذه القضايا وباعتبار كون النفس النزاعة الى الشر والاهواء التى تسيطر على النفس والميول التى تغرى بها تكون مكبوحة مرة وتكون مدفوعة اخرى والذى يكون متوليا لحركة الدفع والكبح انما هو العقل الذى

اودعه الله فى الانسان مستنيرا بالهداية الاسلامية والمنهج الاسلامى ولهذا فان النظرة الى الدنيا كما ذكرنا باعتبار كونها مرحلة نقطعها وبأن الذى ننتظره فى الآخرة اعظم مما نجده فى الدنيا ، ذلك يحمل المومنين على التضحية فى سبيل وهو أمر لا تجده أبدا بالنسبة لغير المومنين الا مرتبطا بشيء مادى فاذا ذهب ذلك الامر المادى ذهبت التضحية وانقلبت المقاييس خاضعة للذة وللمصلحة الشخصية وللكسب ولغير ذلك من الاشياء التى يميلون اليها ويتحولون نحوها صراعا وأما الظاهرة الاخرى فهى ارتفاع النظام الاسلامى عن الواقع ، فبقية التجارب وبقية الانظمة تنظر الى هدف واحد هو اصلاح المجتمع الاسلامى الانسانى اصلاحا سطحيا والدين الاسلامى أو النظام الاسلامى لا ينظر الى المجتمع الاسلامى أو الانسانى ليصلحه اصلاحا سطحيا فيسوى بين الناس ويحقق العدالة فى المجتمع ويوزع الارزاق توزيعا محكما ولكنه ينظر الى شيء آخر الى هدف ابعد هو تربية النشيء الاسلامى وتربية المجتمع الاسلامى تربية دينية يكون ذلك الاساس فيها قمينا بأن يحقق للاجيال فيما بعد ما يمكن أن تحقق به هذه القوة العجيبة التى يدين لها الناس ويخضعون اليها ولا يكونون بعد ذلك مستلحقين او من التابعين والذى يدل على هذا ما أخذنا الله به سبحانه وتعالى من لزوم اتباع كتابه حتى نكون على بينة من هذا الهدى وحتى نكون مشاركين فيه بعقولنا وقلوبنا وجوارحنا بحكم تربيتنا الاسلامية وبحكم تكويننا للمجتمع الفاضل هذا لا يكون الا اذا انتبهنا الى الاسرار العجيبة التى تضمنها قوله جل وعلا : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ». الدين القيم الذى له قيمومة الذى له سيطرة ، الذى له نفوذ الذى لا يستطيع الانسان أن يتخلص منه لكونه ملتزما بهذا الدين ، ملتزما بأن يكون مسلما فاذا كان ملتزما فهو يرعى الله ويراقبه فى تصرفه وفى اعماله وفيما يقوم به لانه فى كل ذلك يحقق اشياء خاصة لذاته واشياء تتصل بالجماعة الاسلامية من حوله .

وأما الناحية الاخرى وهى الرابعة فهى تتمثل فى كون النظام الاسلامى لا يخضع للعامل الاقتصادى وكثير من الناس يسيئون

فهم هذه الظاهرة فنحن عندما نقـول أن النظام الاسلامى لا يخضـع للعامل الاقتصادى ليس معنى هذا اهمال العامل الاقتصادى ، وانما فهم العامل الاقتصادى على الوجه الحقيقى . ان الله سبحانه وتعالى دفع بنا الى مراعاة أمرين اثنـين :

الامر الاول : فيما يعود الى صلتنا بالطبيعة

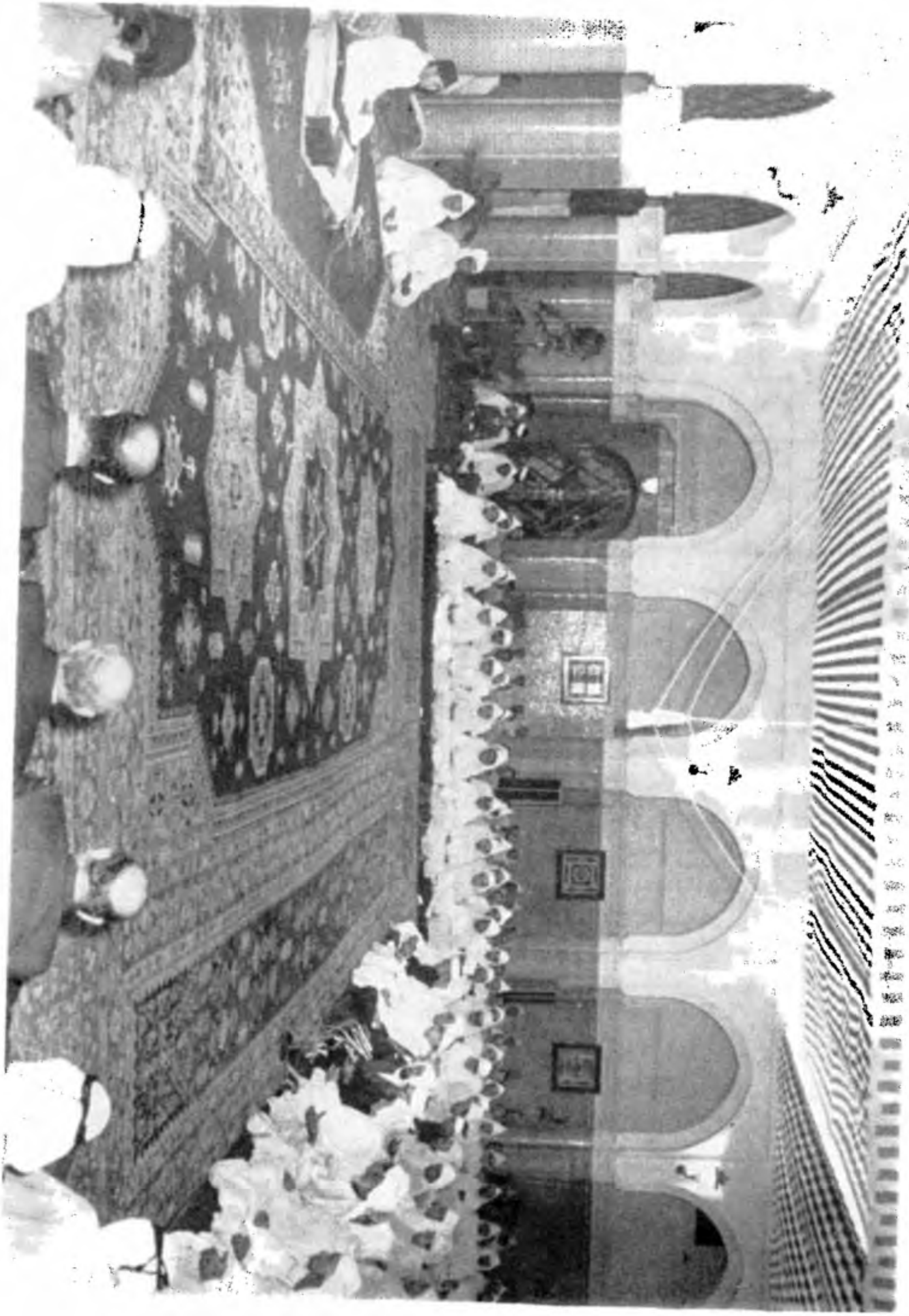
والامر الثانى : يعود الى صلتنـا بالانسان .

اما الصلة الاولى بالطبيعة فهى تقتضى أن نفجر الخيرات وان نكون مستخلفين فى الارض بحق وان نكثر من اسباب التنمية والثروة حتى نصل الى العزة والسيادة والقدرة وان نكـون امـام القافلـة لا وراء القافلـة .

واما العامل الآخر او الجانب الثانى فهو الجانب الذى يربـط الانسان بأخيه الانسان وهنا ينبغى ان يرعى كرامته وان ينظر الى حرمته وان لا يستهين به وهناك جانبان اذن : كرامة الانسان مـن جهة وتحقيق اسباب المنعة والعزة والسيادة والتقدم والرقى المادى ونحن حين نقول هذا لا نقول بأن العنصر الثانى خاضـع للاول لان الذين ذهبوا الى هذا اى الذين اعتبروا ان النظام الانسانى ينبغى أن يكون خاضعا للعامل الاقتصادى بلغوا فى بعض الاحيان وفى بعض المجتمعات الى اهدار كرامة الفرد واهدار كرامة الانسان وجعـله تابعا للآلة وتابعا للمال وتابعا للانتاج وهو بعد ذلـك لا يسـاوى الا ما ينتجه ، أما الدين الاسلامى فقد كرم الانسان وحثه من جهـة أخرى على هذا الخير . ثم ان الدين الاسلامى فى وثبـته الفعلية وفى تكوين دولته الشاهقة الضخمة لم يكن خاضعا لهذا العامل بدليل ان الامة العربية الجاهلية التى تكونت منها الفئة المسلمة واستطاعـت ان تكون الدولة الاسلامية لم يختلف وضعها المادى فى شىء عن احوال السابقين لكن القرآن والنظام الاسلامى جاء مهيمنا وموضحاً للمنهـج ومبينا للطريق وللمسلك الذى ينبغى أن يأخـذ به المؤمنـون للتحقق فى هذه المعانـى .

ثم نجد بعد ذلك ان الظاهرة الخامسة هى الثبات فى النظام الاسلامى ، وهذا الجانب عظيم جدا ، لان الاحكام الالهية تنظر الى جانبين : تنظر الى الحاجات الاكيدة الماسة فى الانسان فهى تضع الاحكام على وفقها وتحقيقها للمراد منها ، ومن احكام الزواج واحكام الميراث واحكام النظام الاجتماعى الى غير ذلك . وهناك اشياء تتغير من ظرف الى ظرف ومن وضع الى وضع ، ومن طور الى طور فماذا بالمسلمين اهتداء بالقوانين الاساسية والقواعد الكلية فى دينهم ، وبالاحكام الاخرى مثل لا ضرر ولا ضرر ، ومثل انما الاعمال بالنيات ، ومثل الضرر يزال وما الى ذلك تكون محكمة فى التشريعات التى يحدثها الامام ، أو فى التشريعات التى يستنبطها الفقهاء ، وبذلك ضمنا الاستقرار والثبات لهذا النظام باعتبار كونه منزلا من الله ، واجتهدنا فيما لا نص فيه ، اجتهادا يمكننا من جعل هذا النظام باعتبار كونه منزلا من الله ، مرنا متماشيا مع متطلبات كل عصر تحقيقا للسعادة وتحقيقا للخير الذى يتطلبه وينشده المسلمون . ومتى تبين لنا ان الانظمة البشرية قاصرة مهما بلغت من الرقى ، وانها لا تبلغ بحال النظام الربانى الذى وضعه بحكمته وتقديره ليكون سياسة للبشر وحماية لآمالهم وسبيلا لتحقيق مأربهم ، واذا تقرر ان النظام الاسلامى فوق الواقع يهيمن عليه وتقرر ايضا ان الدين الاسلامى والنظام الاسلامى بقادر على أن يكون أسسا اخلاقية يعود اليها المجتمع فى سلوكه ويحتكم اليها فى تصرفاته ، واذا اعتبرنا ان الاحكام الاسلامية ثابتة وان المجالات الاخرى منها تحتاج الى الاجتهاد ، ونظرنا الى ان الاقتصاد مطلوب ملاحظته ولكنه لا يكون مهيمنا على الانسان هيمنة تذهب بكرامته التى نوه بها الله ، تبينا ان الواجب علينا أن نعي هذا النظام الاسلامى وان نتصوره على وجهه حتى اذا سعدنا به ، وليس غريبا ان نسعد به ، كما سعد به اسلافنا الاماجد فقمنا بالدعوة اليه وكتبنا فيه ونبهنا الناس لان المسلمين مسؤولون يوم القيامة عن التبليغ واذا ما استطعنا ان نبلغ الناس سبيلا تنقذهم من الشر ومن الوهدة التى يندحرون فيها اليوم فاننا نكون بسبيل الى تحقيق هذه العزة القومية ، ومن اجل هذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف هذا النظام بل فى وصف هذا الكتاب الذى جاء بهذا

النظام الاسلامى (كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره اضله الله ، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على طول الرد ، ولا تنقضي عجائبه . هو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم) . اللهم ارحمنا بالقرآن العظيم واجعله لنا اماما ونورا وهدى ورحمة ، اللهم ذكرنا منه ما نسينا ، وعلمنا منه ما جهلنا ، واجعله لنا حجة يا رب العالمين ، اللهم انت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام ، اللهم انا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل اثم والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، اللهم ارحم جلالة الملك المقدس محمد الخامس الذى استجاب لدعوتك وآمن بك وجاهد فى سبيلك حتى أتاه اليقين . اللهم تول بجميل عنايتك ولطيف رعايتك مولانا الامام الحسن الثانى وأسرته وآل بيته وسدده فى اعماله كلها واعز لواءه وانصر جنده وامدده بالتأييد والتوفيق حتى يرد على البلاد صحراءها ويضم اليها اطرافها من أيدى الغاصبين اللهم انه قام ويقوم بنصرة دينك ونشر تعاليمك والحفاظ على أمتك والصيانة لملتك فامدده يا رب بتوفيق منك وأيده من لدنك ، واجمع كلمة المسلمين على الحق ، اللهم اجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عدانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وصل اللهم على نبى الرحمة وقائد الامة عبدك ورسولك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .



الدرس السابع

16 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

علم الغيب
كما يصوره القرآن الكريم

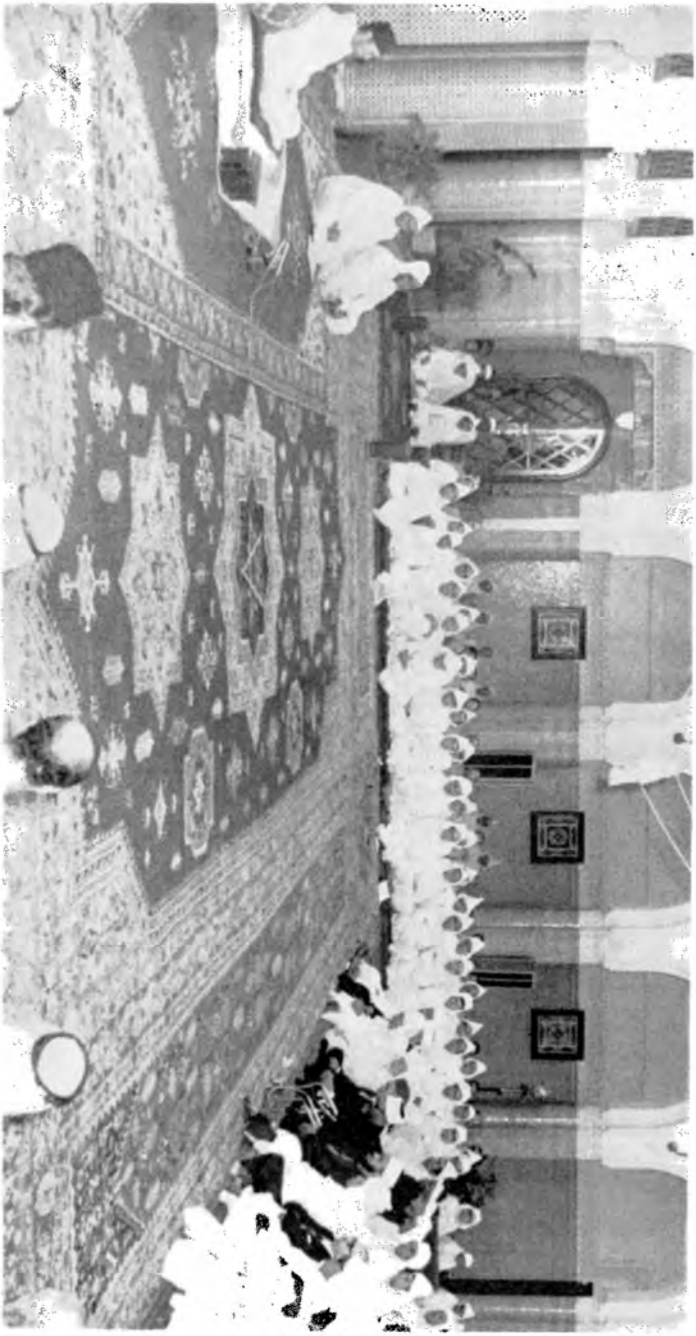
" عالِمِ الغيبِ فلا يُظهر على غيبهِ أحداً إلا مَن ارتضى من رسولٍ... "

صدق الله العظيم

ألقاه :

فضيلة الشيخ اسماعيل صادق

مدير الشؤون الدينية في أبوظبي



بسم الله الرحمن الرحيم ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين ، حضرة صاحب الجلالة امير المؤمنين الملك الموفق الحسن الثاني حفظه الله .

من الخليج العربي أحمل بين جوانحي اجمل ما يحمل محب الى احبابه ، احمل تحية الخليج العربي في شعب دولة الامارات العربية المتحدة ورئيسه المحبوب صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وكذلك احمل تحية معالي وزير الشؤون الاسلامية والاوقاف الذي سارع في المشاركة في هذه الدروس الحسنية الشريفة .

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الامين وعلى آله وصحبه أجمعين .

في هذا اللقاء الشريف الذي تتفتح فيه القلوب وتتنور فيه العقول وتتطهر فيه الارواح بما افاض الله على البشرية من هدى وبما اعطاها من فضل وكرم واحسان اتناول هذا الموضوع حتى تشفى القلوب وحتى تتحرر العقول من كل وهم ومن كل ضياع . ان الله سبحانه وتعالى خلق الكائنات جميعا ونوعها ولم يخلقها على نمط واحد وانما هو البديع وهذا الاسم يتجلى به فينوع وتختلف الالوان في كل كائن وفي كل خلق وفي كل الوجود نرى العجب العجاب ونرى كيف يصور الله سبحانه وتعالى بعد خلقه كيف يصور ويبدع كيف يصور

ويبهر العقول بما خلق وبما صور وبما ابدع ، واذا اخترنا مثالا لهذا الاختلاف ان الله خلق الابصار فى الكائنات خلــق البصر فى الحيــوان وخلق البصر فى الانسان وخلق البصر فى الطير والسمك والديدان والنـمـــل .

البصر حاسة يبصر بها الكائن المخلوق ، يبصر بها مـــا حولـــه ولكن تختلف حاسة البصر من الانسان الى الصقر مثلا فالانسان يرى على بعد والصقر يرى على بعد وما يراه الصقر ابعد فلذلك يعتبـــر الانسان ان عدم قدرته على هذا الابصار هو حده وما وراءه ذلك هو غيب بالنسبة له ، أما الصقر فلا يعتبر ذلك غيبا عنده وكذلك حاسة الشم عند الانسان تختلف عند الهرة وعند الكلب وعند بعض الحيوان فيشم الانسان عن قرب معين ويشم هذا الحيوان ابعـــد منه فهـــذا الانسان له حده لا يمكن أن يتعداه فما بعد ذلك هو غيب بالنسبة لـــه أما الكلب واما القط أو الهر فلا يعتبر ذلك غيبـــا انمـــا هى خاصته الطبيعية التى كونه الله عليها .

وهكذا فى سائر الحواس كل كائن له خاصيته ولـــه قدرته التى كونه الله بها لا يمكن أن يتعداها بأى صورة من الصور واذا انتقلنـــا الى شىء آخر وهو اكثر قدرة ، الجن ؛ الجـــن هو ابعد قـــدرة من الانسان وهو ابعد بصرا ولا تحجبه المادة فـــيرى مـــالم يـــر الانسان فيمكن أن يرى شيئا فى طنجة أو شيئا فى تـــازة أو شيئـــا وراء هذه الحوائط والانسان لا يستطيع ولا نقول أن الجن يعلم الغيب ، وانمـــا هى خاصته وقدرته الطبيعية التى هى فيه ، والله سبحانه قد أجرى على لسان حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلـــم الآيـــات النـــيرة الواضحة التى تزيل الوهم والاوهام ، فالله سبحانه وتعالى يذكـــر الحوار الذى دار بين واحد من الجـــن وبين سيدنـــا سليمـــان عليه السلام « قال عفريت من الجن انا آتيك به من قبل أن **تقوم من مقامك** وانى عليه لقوى أمين » فلا يمكن أن يأتيـــه بـــه الا اذا رآه وهو فى الشام ، والكرسى فى اليمن فى سبأ مسافة بعيدة ، ولكن اراد اكثـــر من هذا « قال الذى عنده علم من الكتاب ، انا آتيك به قبل ان يرتد

اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده ، قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » فسيدنا سليمان عليه السلام نسب هذه القدرة وهذه الخاصية الى الحق الذى وضعها فى الجن لان الجن هو الذى يستطيع ذلك ، وعندما ننتقل من الجن الى الملائكة فالملائكة أكثر ، ولكن هذه وظيفتها وهكذا كونها الله سبحانه وتعالى لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون — ان الطائر يرى فى حدوده والانسان يرى فى حدوده وكذلك الجن ، ولا يمكن أن يبعد اكثر من هذا ، ولكن الملائكة وليست كل الملائكة ملائكة خاصة اختصها الله سبحانه وتعالى ان تعلم ما يدور فى الكون وما يريده الله سبحانه وتعالى من سنة الى سنة ، فهذا شيء هيأه الله لهم ولكن لم يعطهم علما ولكنه أظهر لهم ذلك دون أن يعلموا انما هو علمهم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى « حم والكتاب المبين انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم » ويقول الله سبحانه وتعالى فى هذه الليلة « انا انزلناه فى ليلة القدر » والقدر هو ما يقدره الله سبحانه وتعالى من اعمال الخلائق فيطلع الملائكة عليه ، فيعلم عزرائيل ما يقبض من الارواح من السنة الى السنة ويعلم جبريل كذلك ما يفعله طول السنة وكذلك مكائيل وكذلك اسرافيل وما اراد الله من الملائكة ان يطلع او ان يعرفه هذا ، اذن ليس لمخلوق قدرة ولا استطاعة الا كما رتب الله فيه كذلك ، ولا يتعدى وظيفته الا اذا هيأ الله له ذلك ، وعندما نقف عند هذا الحد يجب أن نسمع الحق سبحانه وتعالى وهو يتحدث عن نفسه ، « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » « ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعلمون » « ولله غيب السماوات والارض » « ان الله يعلم غيب السماوات والارض والله بصير بما تعلمون » « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم»

فكلمة غيب ما غاب عن المخلوق ادراكه واحساسه بغير ما وضع الله فيه من طبيعة وما هيأه لذلك وانما يطلق العلم وهذا هو المراد فى درسنا هذا يطلق العلم لله وحده فهو وحده الذى يطلق عليه هذا اللفظ بكل ما فيه من معنى فهو الذى يعلم كل شىء بكل ما فى هذه الكلمة من ابعاد ولذلك يقول الله فى حق نفسه « ان الله بكل شىء عليم » « وكان الله بكل شىء عليما » واقتضت حكمته بعد هذه الحقيقة أن يظهر على لسان خلقه ما غاب عنهم وذلك حتى ينتبه الناس اذا كان الانسان عاجزا عن الادراك ، واذا كان الانسان عاجزا عن الاحاطة بغير قدرته ، فاذا اظهر ذلك فأين المصدر ، ومن الذى ساق هذه العصا ومن الذى اجرى هذا العلم هى قضية عجيبة وهى التى تشد العقول شدا الى حقيقة الايمان ، فالغيب هو مدار حديث الناس ومدار أوهامهم وهو الذى يشغل بالهم كثيرا فالله سبحانه وتعالى أراد أن يكون اجراء الغيب على يد خلقه آية من آياته ليؤمن الناس ، وكما لا يخفى على الافاضل الكرام أن الغيب ينقسم الى قسمين ، ينقسم الى غيب مكانى والى غيب زمانى ، وكل كائن مقيد بهذا ، الآن الساعة الخامسة والنصف وخمس دقائق ، هذا الوقت لا يمكننى أن أكون فى وقت غيره ، وهذا المكان الشريف الذى أجلس فيه أمام جلالتكم لا يمكن لى أن أكون هنا واكون فى مكان آخر ، هذه استحالة ، وقدرتى محدودة فاذا كان الانسان مقيدا بالمكان المعين والزمان المعين ، فمن أين له أن يرى غير مكانه وأن يعلم غير زمانه اذن هنا علامة استفهام لا بد وأن يتدبرها العقل الانسانى والقرآن الكريم قد حدثنا عن الامرين حديثا كريما ففى حق سيدنا يوسف عليه السلام يقول : « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » ثم ختم ذلك بقوله « ذلكما مما علمني ربي » اذن هو لا يستطيع أن يرى ولا أن يدرك اكثر من قدرته لان الهدهد قال له : « أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » فثبت عجزه ، فاذا ظهرت هذه القدرة لا بد وان تنسب الى صاحبها الحق والى المتفضل بها ، وهو الله سبحانه وتعالى ، « ذلكما مما علمنى ربى » وسيدنا عيسى عليه السلام أيضا أخبر الحق بأنه كان يحدث بالغيب المكانى « وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآيات لكم ان كنتم مومنين »

فختمت بقول الحق سبحانه وتعالى ، « ان كنتم مومنين » ، أى ان هذا لا ينسب الي من طريق أو من آخر وانما ينسب للذى يجب أن تومنوا بأنه اجرى ذلك على لسانه وهو الحق سبحانه وتعالى والغيب الزمانى القرآنى فيه عجب ، آية واحدة من آيات القرآن فيها مجمل حياة الانسان من أولها الى آخرها وعندما جاء سيدنا يوسف عليه السلام فأخبر اباه بالرؤيا ، « أنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين » ثم لخص حياته فى الآية الآتية من أولها الى آخرها ، « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم » فأخبره أبوه بحياته كلها فى آية واحدة من أول ذلك الى نهاية الامر ، ثم ختم القول بأن نسب الحق الى صاحبه « ان ربك عليم حكيم » وقد حقق الله ذلك وعلم الله يوسف عليه السلام ما نبأ به أبوه وما أجرى الله على لسانه من القول فحدثت الرؤيا التى كانت الملك فجاءه رسول الملك فتحدث يوسف عليه السلام بمجريات الزمن الآتى على مدى خمسة عشر عاما فى أقل من دقيقة واحدة ، « يوسف أيها الصديق افتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ، قال : تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » فحدث فى هذا المدى البسيط بالمدى البعيد وأيضا بلا تطويل ولا تفريع فالقرآن يحدث العقل مباشرة والآية فيها نورها وفيها علمها ، وقد ذكر سيدنا يوسف ذلك كله ووصفه لصاحبه : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض انت وليي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » .

بهذا المنوال يعلمنا القرآن ان كلمة علم لا بد وان تنسب الى صاحبها والى المتفضل على الكون بالخلق والى المتكرم على عبيده

بالعلم لقاء ولقاء عجب ، ولا يخفى عليكم لقاء سيدنا موسى عليه السلام بسيدنا الخضر عليه السلام هذا اللقاء العجيب الذى يظهر الحق سبحانه وتعالى فيه كيف يعطى وكيف يظهر على لسان عبده من لدنه من العلم والفضل « فوجد عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » فالخضر معلم ولا يعلم الا بما علمه الله سبحانه وتعالى فبدأ سيدنا موسى الدرس بأنه اقر انه سيصبر قال له موسى : هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ، قال انك لن تستطع معى صبرا ، وهنا وقفة جميلة اخبر الخضر عليه السلام موسى بأنه لن يستطيع أن يصبر معه وهذا كشف من الحق اجراه على لسانه وفعلا موسى لم يصبر وتحقق قول الخضر فى بداية الامر قال له موسى : « هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ، قال انك لن ـ لنفي التأبيد ـ تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك أمرا قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى احدث لك منه ذكرا فانطلقا » ثم كان هناك عقل كل آية التذكير من الخضر الى موسى فقال له : « قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا » أما كشفتك فى بداية الامر بما كشف الله لى ثم قال له فى المرة الثانية بعد مسألة الغلام « قال الم اقل لك انك » فأكد ذلك ليؤكد كيف اعطى الحق سبحانه وتعالى وكيف أجرى على لسانه ما لم يستطعه أحد قال الم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا ، ثم كانت مسألة السفينة والامر لا لبس فيه ولا يريد توضيحا وكانت مسألة الغلام وكانت مسألة الجدار ، فنسب القول فى الاول الى الله وفى ختام الامر قال الخضر المعلم لم يعلم بكتب ولا بقرطاس ولا بشىء وانما كان الهاماً من الحق وكان اظهار على لسانه ليبين قدرة الله سبحانه وتعالى « وما فعلته عن امرى ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبرا » .

العقل البشرى قد يتساءل أو قد يسأل هذا من صنع العقول فرد الله على العقل ردا عجيبا وقال له سآتى لك برضيع لم يدرك بعد ان السمع والبصر والفؤاد « كل أولئك كان عنه مسؤولا » فأعطى السمع والبصر أما الفؤاد فبعد ، هذا هو سيدنا عيسى عليه

السلام انطقه الله سبحانه وتعالى وهو رضيع حتى يحسم الامر وحتى يرد على العقول فى أى زمان وفى أى مكان ، أين التخمين ؟ أين التأليف ؟ أين اين الى ما شاء الله فلا سؤال هنا ولا تساؤل هنا انما هو الرد القطعى ، كيف ينطق هذا الرضيع ، « فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ قال : انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلني نبيا وجعلنى مباركا اينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » .

صاحب الجلالة وفقكم الله دائما حتى يتغذى الناس وحتى يتعلموا من هذه الساحة العلوية الشريفة المزيد من العلم ، لا حديث لى انما هو القرآن يحدثكم ولا تأليف من عندى ولا ابتكار : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدادا » .

ننتقل فى شرف وفى عزة وفى كرامة ورفعة الى الحضرة المحمدية حيث بعثه الله سبحانه وتعالى بعثه الى يوم القيامة « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » فكانت الرحمة بلا أوهام ، وكانت الرحمة بلا زيغ وكانت الرحمة واضحة نقية طاهرة لامعة بيضاء ، رحمة لا لبس فيها رحمة هى نور لا يأتيه الظلام ، وهى نهار لا يتخلله الليل فمستحيل ان يجتمع النهار والليل فى وقت واحد ومستحيل ان يكون الظلام والنور فى فؤاد واحد وفى رسالة واحدة — « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ، ان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بدأ هذه القضية بداية مريحة « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى قل : هل يستوى الاعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون » ، فكانت البداية بأنه لا يعلم الغيب اطلاقا وهذه هى الحقيقة التى صدق بها الرسالات السابقة فى كل شرائعها وفى كل ما جاءت به فنطق بها حتى يريح العقول ومن الخطر هنا

انه اخبر بذلك وقد اختاره الله أميا لا يقرأ ولا يكتب « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » « وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به نشاء من عبادنا وانك لتهدى به الى صراط مستقيم » فكانت أميته هى بداية الاعجاز لا بد وأن تكون الرسالة وان يكون ما ينزل عليه هو علم حتى يعلم هذا الامى وحتى يواجه التحديات الفكرية من أوله الى يوم القيامة وان يكون على علم وعلى معرفة ودراية ، وأن يعطيه الله كل شىء ومن هنا الانطلاقة المرادة من درسنا ، لا علم عنده وقد اعترف بذلك لا علم عند السابقين وقد اعترفوا بذلك ، وانما يجرى على لسانهم ما يظهره الله سبحانه وتعالى من الآيات ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى « وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » وعلمك أى انه المعلم وانت المفهم وانت الملقى عليك ، ليس بذاتك حتى تكون آية من الآيات يوم القيامة فتعالى الله الملك الحق ، « ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » وهنا كان الصراع الشديد لاعجاز هذا الرسول ، لانه لا يعلم شيئا ، فهم يحتكون به حتى يقول وهما أو خرافة او ضلالة وهنا تكون عليه الحجة « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » مهما كانت الاحتكاكات فالعلم ينسب الى صاحبه اذن فلا عجب وكان الله بكل شىء عليما ، أى شىء تسألنيه يا محمد فأنا حاضر اى شىء يراد منك فأنا العليم ، أعلم كل شىء بلا حدود وبلا خفاء « يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور » وهنا بدأ السؤال للاعجاز حتى ينطق الرسول شيئا ليظهر انه رسول وحتى يتباهى بذلك « والله يعصمك من الناس » فهو متنزه عن ذلك تمام التنزيه ، جاءوه مرة فسألوه فقالوا ، ما هى الروح ؟ ومن هو ذو القرنين ؟ ومن هم أهل الكهف ؟ فنطق بسرعة ، وقال ، غدا أجيبكم ، ثم يقول الله ، من اين لك هذا فلا تحديد منك يا محمد ، انا الذى أعلمك فأنت تسأل فاذا سألت فانتظر حتى أزيل كل شبهة من أن يكون هناك وهم لعلم غيب أو التحدث فيه ، ديننا

واضح وقرآننا نير لا لبس فيه فهناك قضية لا ثانى لها أنا وأنا وحدى أنا المعلم وانا الموحى وأنا المهيمن وانا المعطى ، أنت تنتظر كبقية الخلق فتأخر الوحى يوما وتأخر يومين وتأخر اكثر فكان هناك حرج لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اليهود وقال المنافقون هذا محمد يقول أعرف ثم ينتظر لو كان ربه يصدقه لاجابه ولكن لله أخر ذلك لحكمة حتى يتفهم أن ينسب العلم الى صاحبه وان ينتظر العليم القدير فبدأه سبحانه بقوله : « ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لاقرب من هذا رشدا » ثم اجابه عن الروح واجابه عن ذي القرنين واجابه عن أهل الكهف ، وتدور الاسئلة والله يجيب « يسألونك عن الاهلة » ثم ينتظر « قل : هي مواقيت للناس والحج » « يسألونك عن المحيض قل : هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث امركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

صاحب الجلالة ان الاسئلة اذا كانت لمجرد العهد الذى يعيش فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لانتهت القضية ولكن الاسلام لا يتوقف على هذا العصر وانما هو نور مستمر ومدد متصل لا بد وأن يصل الى آفاق الدنيا والى اعراضها واطوالها والى شرقها والى غربها والى جبالها واوديتها وبحارها والى كل هذه الكائنات التى تعيش فى المعمور ، اذا اخترنا من القرآن الكريم من قضايا الغيب التى لا تنسب الى محمد ولا الى موسى ولا الى عيسى وانما تنسب الى الذى اجرى ذلك وهو الله سبحانه وتعالى ، فقضية علم الغيب هى قضية سريان الايمان الى يوم القيامة . حيثما وجد الاقتناع بأن ينسب العلم الى صاحبه تولد الايمان ووجد الايمان بلا لبس وبلا ظلام وبلا ظلم ، والقرآن يحدثنا فى قول الله سبحانه وتعالى : « ومعارج عليها يظهرون » ، هذه الكلمة فقط السلم هو الذى يصعد عليه الانسان باستطاعته وبرجليه ، اما المعراج فهو الشيء الذى يصعد بالانسان مثل ما يعرف الآن (بالاسانسير) يفتح الباب ثم تدخل فيصعد بك الى الطابق الذى تريد ، ثم بعد ذلك الطائرة ، ولم يحدد

الله نوعا معينا من أنواع المعارج وانما اطلقها ، فكلما أكتشف الانسان شيئا من هذه فليس بجديد انما هو ينسب الى صاحبه الذى اخطر به ، ان هذه الامة سيأتى فيها المعراج وسوف يصعد بها بالسرعات المختلفة وكلما تقدم الزمان كلما كانت السرعة على حسب ما يريده وعلى حسب ما اكتشفوا « ومعارج عليها يظهرون » يظهرون اى يصعدون أو يظهرون ، أى كما قالوا : يتوضحونه للناس بعلمهم ويتبينونه ، اذن تبين من ذلك أن هذا اللفظ لو وقف أى فكر امامه لوقف مندهشا فى صحراء وفى جبال ولم يكن هناك مصنع واحد ولا معمل ولا شىء وينطق بهذا اللفظ الذى يتحدى القرون جميعا الى يوم القيامة « ومعارج عليها يظهرون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » ، وعندما جاءت كتب الجغرافية تحدثنا ان كريستوف كولمبس هو الذى اكتشف أو ماجلان هو الذى اكتشف أن الارض كروية ، شىء عجيب أفلا يتدبرون القرآن ، ان الله سبحانه وتعالى ذكر فى آياته العظيمة « رب المشرق والمغرب » ثم قال فى آية أخرى « رب المشرقين ورب المغربين » ثم قال : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب » ، هذا الانتقال أو هذه الانتقالية من آية الى آية تشعرنا بشىء لا احتياج لنا الى من يقول ان الارض كروية أو هى دائرية أو هى غير ذلك وانما الحق انطق رسوله « وعلمك ما لم تكن تعلم » انطقه بهذا العلم وسيظهره للناس . ان اختلاف المشارق فى كل مجموعة من المجموعات الشمسية واختلاف المشارق فى كل مجرة واختلاف المغارب أيضا ، ولكن يهمنا نحن فى ارضنا أن نراعى اختلاف المشارق والمغارب من مكان الى مكان ، فلو كانت الارض منبسطة لكان هناك شروق واحد وغروب واحد ولكن عندما أقسم « فلا أقسم برب المشارق والمغارب » اذن توضح لنا انه لا احتياج لنا الى أحد فى أى مكان .

صاحب الجلالة ، ان هذا شرف عظيم الذى اكرم الله به المومنين شرف لا يتناهى ولا يقف عند حد والنبى صلى الله عليه وسلم الذى اجرى الله على لسانه فى القرآن الكريم نبأ السابقين واخبر بما يأتى وهذا واضح وبين لكل من يقرأ ولكل من يتدبر ، اذا انتقلنا الى نهاية المطاف ان فضل الله سبحانه وتعالى لم يقف عند الانبياء فقط

وعند المرسلين فقط وانما اذا قصرنا ذلك عليهم فقد حددنا فضل الله تعالى واوقفناه عند حده « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » « ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله واسع عليم » للحق سبحانه وتعالى ان يجرى على لسان خلقه من غير الانبياء أن يجرى مثل ذلك كرامة لهم ولكن حدد هؤلاء الناس حتى لا نتحير فى اهل الاستدراج ، فالله يجرى على المجوسى ويجرى على الهندوسى ويجرى على الكافر والوثنى والصابئى ويجرى أشياء غريبة ولكن المقياس حدده الله تعالى وبينه حتى لا يضل الناس « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » واذا ختم ذلك بمثال يسير كما ورد فى الصحيح عندما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الاسراء والمعراج ووقف فى صبيحة ذلك اليوم وكذبه الناس وقد حدثهم بالاسراء فقط ثم كذبوه فقام سيدنا ابو بكر الصديق رضى الله عنه فقال ، اتكذبونه ، والله انى لاصدقه فيما هو ابعد من ذلك انى لاصدقه بخبر السماء وهو صلى الله عليه وسلم لم يتحدث بخبر السماء بعد ، فكان ذلك كرامة لسيدنا ابى بكر الصديق حيث اجرى الله على لسانه ما لم يحدث به المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، ومثال لطيف ، سيدنا حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه بتعبير اهل الطرافة كان شماما ، كان يشم المنافق من غير المنافق فكان يأتى اليه سيدنا عمر رضى الله عنه ويقول : يا حذيفة بالله عليك شمنى فهل ترى فى نفاقا فيقول له : زادك الله ايمانا يا اخى . وفضل الله سبحانه فى ذلك كثير فلا علم لانس ولا لجن ولا للملك ولا لرسول ولا لولى وانما هو بما اجراه الله سبحانه وتعالى كما أخبر فى الآية الشريفة التى بين أيديكم « عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول » ويقول فى الآية العامة للرسل ولغيرهم « ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السماوات والارض ولا يؤدوه حفظهما وهو العلى العظيم » . فى هذا الدرس نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعله شفيعا لنا يوم القيامة ، وان نكون فى هذه الساحة اخوانا على سرر متقابلين ، كما نسأله جل شأنه أن يبارك فى امتنا وان يعلى شأنها

ويجمع شملها ويقوى شوكتها وان يجعل الحق رائدهـــا والاســـلام نورها وان يجعل القرآن ظلها وان يبارك فى حكامها وفى مسؤوليها فى مشارق الارض وفى مغاربها وانى اختم درسى بالدعـــاء لجلالتكـــم زادكم الله توفيقا أن فتحتم صدوركم للعلماء وفتحتم قلوبكم للعلـــم ، زادكم الله نورا وجعلكم دائما رائداً للحق حاميا للدعوة الاسلامية حتى يقيم الله هذا الحق بما امدكم الله به من عنده كما نسأله جل شأنه ان يحرر أرضنا ببركة اخلاصكم واخلاص حكامنا ورؤسائنا وان يجعل لهذه الارض فى مشرقها ومغربها عليها راية لا اله الا الله محمد رسول الله ونسأله جميعا أن يحرر بيت المقدس وأن يجعلنا ان شـــاء الله نذهب اليه فى معيتكم حتى نلقى درسا ان شاء الله والسلام عليـــكم ورحمة الله تعـــالى وبركاتـــه .

الدرسُ الثامن | 17 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

مفهوم الربا

في ظل التطورات الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة

★

ألقاه :

الدكتور محمد فاروق النبهان

أستاذ بكلية الحقوق والشريعة بجامعة الكويت



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

مولاي صاحب الجلالة : من منطلق الشعار الذي رفعتموه مـــن انبعاث اسلامي جديد ومن منطلق الفكر الذي رعيتموه ليكون منطلقـــا لقاعدة فكرية مستقبلية رائدة أتحدث في مجلس جلالتكم عن موضـــوع اشتد حوله الخلاف بين العلماء القدماء والمعاصرين ، هذا الموضوع هو (موضوع الربا) ولا أعتقد انني قادر على حسم هذا الخلاف الا اننـــي سوف أعرض لآراء العلماء السابقين ثم اعرض اتجاهات العلماء المعاصرين وأناقش أدلتهم ثم اطرح وجهة نظري الخاصة لهذا الموضوع في ظـــل التطورات الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة وقد تأثرت في رؤيتـــي لهذا الموضوع بالعوامل التالية :

أولها : روح النص الشرعي الذي يحرم الربا والذي يربط الربـــا بالظلـــــم .

ثانيها : مصالح الامة الاسلامية التي يجب ان تراعى في العصـــر الحديـــث .

ثالثها : مبادىء العدالة الاجتماعية التي ما جـــاءت الشريعـــة الاسلامية الا لتبنيهـــــا .

وقبل ان أبتدىء بالموضوع أود ان أقرر الحقائق التالية

أولها : الربا محرم بنص قطعي صريح ولا مجال بعد ذلك للحديث عن حرمة الربا ، فالقرآن الكريم يقول : « وأحل الله البيع وحرم الربا » فكلمة التحريم هنا واضحة وبالتالي فان الربا محرم .

ثانيا : الآراء الواردة عن الفقهاء فيما يتعلق بالربا لا تخرج عن نطاق الآراء الاجتهادية المعرضة للخطأ والصواب لانهم لم يختلفوا فى حرمة الربا وانما اختلفوا فى موضوع آخر وهو ما المراد بالربا ؟ فالربا محرم ولكن النص القرآني لم يحدد معنى الربا والمراد بالربا المحرم ، وبالتالي فان الخلاف قد ابتدأ من تحديد هذا المعنى ما يدخل ضمن الربا وما لا يدخل ولو استطعنا ان نحدد بشكل دقيق ما المراد بالربا فعندئذ نكون قد قطعنا شوطا كبيرا بتحديد المراد بالربا .

العلماء السابقون عندما تعرضوا لموضوع الربا نجد ان لهم اتجاهات مختلفة فى هذا الموضوع قبل ان اعرض لآرائهم اود ان ابتدىء بالنص القرآني لا لكي أدلل على ان القرآن قد حرم الربا ولكن لكي أبين منهج القرآن فى التحريم ، فقد نزلت فى الربا أربع آيات من القرآن آيتان منهما لا تفيدان التحريم الاولى من الآيتين تريد التنفير من الربا قال تعالى : « وماأتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . هذه الآية لا تفيد التحريم وانما تشير الى التنفير توجه الانظار وتهيىء النفوس الى مرحلة أخرى ثانية لاحقة .

ثم جاءت الآية الثانية وهي لا تفيد التحريم ايضا الآية التي تشير الى ان الله تعالى قد حرم الربا على اليهود « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل » ، وهنا نلاحظ ان الآية القرآنية تربط الربا بالظلم وتربطه بأكل اموال الناس بالباطل لم تحدد المراد بالربا وانما تشير الى معنى الظلم حيثما يكون الربا . ثم

جاءت الآية الثالثة وفيها تحريم جزئي ومرحلي للربا قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » « لا تاكلوا الربا أضعافا مضاعفة » هذه الآية تفيد التحريم ولكن التحريم الجزئي والمرحلي لان المحرم فى هذه الآية هو الربا المضاعف وليس جميع أنواع الربا . ولو اقتصر التحريم على هذه الآية لما كان التحريم شاملا الا للاضعاف ولكن الآية الرابعة جاءت لتحسم الموضوع ولتقول : « الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا أنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » ثم يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » ، هنا (وذروا ما بقي من الربا) وهذا تحريم قاطع وحاسم و (لكم رؤوس اموالكم) دون زيادة ولا نقصان لا تظلمون اشارة واضحة الى ان الربا هو ظلم وان كل ظلم هو صورة من الربا .

وللعلماء السابقين اتجاهان اساسيان : الاتجاه الاول هو الذي قال به علماء الاحناف ، نظروا فى النص القرآني « وأحل الله البيع وحرم الربا» ، الربا محرم ولكن ما المراد بالربا ؟ هل نأخذ بالجانب اللغوي بالكلمة فنقول الربا يفيد الزيادة وكل زيادة فهي حرام ؟ المعنى اللغوي غير وارد لان البيع فيه ايضا زيادة وبالتالي فاذا أخذنا المعنى فمعنى ذلك كل زيادة فى بيع او فى نوع من انواع التعامل فهو محرم اذن فالمعنى اللغوي ليس بالمراد . ان ننطلق لمرحلة ثانية لنجد هل هناك مجال لفهم الربا الوارد فى القرآن . علماء الاحناف استطاعوا ان يتجاوزوا هذه المرحلة فقالوا كلمة الربا فى القرآن مجملة والمجمل عند علماء الاصول هو الذي لا يعرف المراد منه وبالتالي فعلينا ان ننطلق لما يبين لنا هذا الاجمال ، والذي يبين لنا هذا الاجمال هو الحديث الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم « الذهب بالذهب والفضة بالفضة » فقالوا : التقدير هنا بيع الذهب بالذهب وبيع الفضة بالفضة وبالتالي فقد وصلوا الى نتيجة فى منتهى الخطورة وهو ان الاصل فى المعاملات الربوية هي البيوع وتقاس القروض عليها ، ووصلوا فى النهاية الى

تحريم البيوع الربوية والقروض الربوية ؛ ولكن سنجد فيما بعد بعض العلماء المعاصرين قد انطلقوا من هذا المنطق ليصلوا الى نتائج أخرى مغايرة .

هناك اتجاه آخر للمفسرين وللفقهاء لا يذهبون الى ما ذهب اليه علماء الاحناف ، من حيث القول باجمال النص القرآني وهذا حق ، فالنص القرآني ليس مجملا ، ولو كان مجملا اما عرف المراد به ولقام الصحابة بالسؤال عن هذا الاجمال للرسول صلى الله عليه وسلم ، كيف يكون مجملا والناس قد يتعاملون به ، صورة الربا موجودة فى العصر الجاهلي ، وهناك أشخاص يتعاملون بالربا فكيف نقول : انه مجمل وليس بمجمل وانما (وحرم الربا) . الربا المعهود . الالف واللام للعهد ، اى هذا الربا الذي كان قائما فى العصر الجاهلي وبالتالي فاننا ننطلق لمرحلة أخرى ونقول : علينا ان نبحث فى الجانب التاريخي لنبحث عن الربا الجاهلي ، فالربا الجاهلي هو الربا المراد فى القرآن .

الروايات التاريخية التي بين أيدينا تعطينا لمحة توضح لنا معنى الربا . اول هذه الروايات : سبب نزول الآية تقول : نزلت آية الربا فى قبائل وأشخاص كانوا معروفين بالتعامل بالربا وكانوا معروفين بالتجارة كبني ثقيف وبني المغيرة والعباس بن عبد المطلب ، ورواية تقول : عثمان بن عفان وخالد بن الوليد معظم هؤلاء قد عرفوا بالتجارة وهذه نقطة هامة . ايضا مكة كانت معروفة بأنها مركز تجاري كبير ، فكانت القوافل تخرج بالمئات بين الشام واليمن فتنقل بضائع اليمن الى الشام وتعود مرة ثانية عبر مكة .

هناك بعض المؤرخين يقول : كانت مكة تعتمد على نظام مصرفي فى غاية الدقة . هذه المعاملات التاريخية توضح لنا معنى الربا الجاهلي . وهو أن هؤلاء التجار كانوا يقترضون من الناس ليمولوا القوافل التجارية الكبيرة ، يمولوا قوافلهم بالقروض التي يأخذونها من الناس ، وبخاصة اذا عرفنا ان العربي فى ذاك الحين فى الجزيرة لا يمكن ان يقترض بالربا لاجل أشياء استهلاكية لبساطة الحياة فى ذلك الحين ، فالربا لم يكن

استهلاكيا وانما كان استثماريا . العربي كان يتفاخر بالكرم ويتفاخر بالمرءة ، وحاجات العربي حاجات محدودة . العباس بن عبد المطلب الذي كان معروفا بالتعامل بالربا لا يمكن ان ياتي الى فقير فيستغل حاجته الى الطعام والشراب فيفرض عليه الربا وهو الذي كان يطعم الحجيج ويسقيهم .

اذن الربا فى العصر الجاهلي كانت له صفة الاستثمار وليست صفة الاستهلاك .

ننتقل الى آراء العلماء المعاصرين نستطيع ان نجمل هذه الاراء فى خمسة اتجاهات :

1) الاتجاه الاول : يقول باباحة القروض الربوية وتحريم البيوع الربوية هذا الرأي قد قال به عالم هندي فى بداية هذا القرن نشر فتوى وطبعتها حكومة حيدر آباد الهندية ووزعتها على الاقطار الاسلامية ووصلت نسخة من هذه الفتوى الى الازهر وقد اطلعت عليها فى كتاب مع الرد عليها للاستاذ محمد رشيد رضا فقد رد على هذه الفتوى .

يعتمد هذا الفقيه فى قوله على ما ذكرناه مما ذهب اليه علماء الاحناف عندما قالوا بأن الربا فى القرءان مجمل وانتقلوا بعد ذلك الى النص الحديثي الوارد بالذهب فقدروا بيع الذهب اى المراد هو البيع الربوي وليس القرض الربوي . ثم انتقل قال الاحاديث الواردة فى تحريم القرض الربوي ليست صحيحة (كل قرض جر نفعا) قال هذا سنده ليس بصحيح وبالتالي فلم يقف عند الحدود التي وقف عندها علماء الاحناف وانما تجاوز ذلك فقال القروض الربوية ليست محرمة المحرم هو البيوع الربوية كل معاملة تحمل ربا الفضل وربا البيع هي فى البيوع وليست فى القروض .

هناك دليل آخر على هذا الرأي يقول القرض عقد تبرع والربا يكون فى عقد التبرعات ، وهذا الرأي هو ليس بصحيح لان القرض ليس

عقد التبرع هو عقد معاوضه ولو كان عقد تبرع لما التزم المقترض برد بدل القرض هو له صفة التبرع ولكنه عقد معاوضة . الهبة عقد تبـــرع اما القرض فهو عقد معاوضة وبموجب المعاوضة فعلى المقترض ان يرد بـــدل القـــرض .

أما الدليل الاول الذي ذكره فهو مرفوض ، حيث قلنـــا نحـــن لا نسلم بما ذهب اليه علماء الاحناف من القول بأجمال النص القرآنـــي ، وبالتالي فان هذا الرأي مرفوض وما بنى على مقدمة مرفوضـــة فهـــو مرفـــــوض .

قلنا : الربا القرآني هو الربا الجاهلي ، قد حددنا ان الربا الجاهلي كانت الديون ، والديون منها ما ينشأ عن بيع ومنها ما ينشأ عن قرض ، فكان المقرض يأتي الى المقترض فيقول له : اما ان ترد هذا المبلغ واما ان تربي أي تضعف ، فهذا دليل على ان الربا المحرم لم يكن فى البيوع دون القروض ، وانما كان فى الديون جميعا ، ما كان ناشئا عن بيع وما كان ناشئا عن قرض .

الاتجاه الثاني هو الاتجاه الذي ذهب اليه العلامة القانوني الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهوري وقد كتبه فى الجزء الثالث من كتابه : مصادر الحق فى الفقه الاسلامي ، قال : ان الاصـــل فى المعامـــلات الربوية هي البيوع والقروض تقاس على البيوع انطلاقا مما ذهب اليـــه علماء الاحناف ولكنه وصل ايضا الى درجة كبيرة قال : البيوع الربوية محرمة لذاتها فلا تباح الا عند الضرورة ، اما القـــروض الربوية فهـــي محرمة ليس لذاتها وانما هي وسيلة وبالتالي فتباح لمجرد الحاجة .

هذا الرأي الذي ذهب اليه الدكتور السنهوري قد تأثر بما ذهب اليه علماء الاحناف الذين كانوا واضحين فى هذا الاتجاه ، وقد قلنا ان علماء الاحناف لم يحالفهم الحظ فى هذا الاتجاه ، وبالتالي فان الدكتور قد تجاوزهم عندما فرق بين ما هو محرم لذاته وبين ما هو محرم لغيره فلم يقل علماء الاحناف بهذا القول .

الاتجاه الثالث : هو الاتجاه الذي يفرق ما بين القرض الاستهلاكي والقرض الانتاجي ، فيقول : ان القرض المحرم ليست له صفة الاستثمار والانتاج وانما هو قرض استهلاكي ممن ذهب الى هـذا الرأي معروف الدواليبي فى محاضرة القاها عام 1951 فى المؤتمـر الاسلامـي فى فى باريس وقد ترجم الى اللغة العربية ونشر فى مجلة الجامعة السورية يقول : ان القرض المحرم ليست له صفة الانتاج وانمـا هـو قرض استهلاكي وقد أوضحنا قبل قليل ان القرض الجاهلي لم يكن قرضـا استهلاكيا وانما كان قرضا انتاجيا استثماريا وانه لا مجال لوجود قرض استهلاكي فى العصر الجاهلي لبساطة الحياة فى ذلك الحين وبالتالي فان هذا الرأي لا يمكن ان نسلم به ايضا .

الاتجاه الرابع : وهو الذي نادى به الاستاذ عبد العزيز الشاويش من زعماء الحركة الوطنية فى مصر فى العقد الثاني من بداية هذا القرن عندما اصطدمت مصالح البنوك الاجنبية مع مصالح البنوك الوطنية فى مصر ، فألقى محاضرات عدة هو وعدد من الرجال الوطنيين ، وقالوا : بأن الربا المحرم هو الربا المضعف وليس الربا القليل ، وبالتالي فان الفائدة فى حدود خمسة ، ستة ، سبعة ، كلها تعتبر جائـزة لان النص القرآني يحرم الاضعاف المضاعفة وكأنه نسي المرحلـة الرابعـة من مراحل التحريم ، ومن الغريب ان المشيخة الاسلاميـة فى الدولـة العثمانية أيضا افتت بهذا الرأي وقالت ان الفائدة القليلة جائزة .

الرد على هذا واضح : قلنا ان التدرج فى التحريـم هناك أربـع آيات فكانت المرحلة الثالثة هي : تحريم الربا المضعف وكانت المرحلة الرابعة « وذروا ما بقي من الربا » « فلكم رؤوس أموالكم » اى البقيـة الباقية فلم يبق هناك مجال بعد ذلك الخلاف .

الاتجاه الخامس : وهو الفتوى التي اصدرها الشيـخ محمـود شلتوت امام وشيخ الجامع الازهر ، والذي أثار ضجة كبيرة فى العالم الاسلامي حول هذه الفتوى لا أود ان ادخل فى التفاصيل ، وانما ارد على نقطة علمية وردت فى نص الفتوى ، الذي يقول ان الفائدة القليلة تباح

للحاجة والضرورة ، الضرورة يباح بها كل محظور دون حاجة الى نص ولكن الاباحة تبقى محدودة مؤقتة بمقدار الضرورة وينتهي الحكم بانتهاء الضرورة . اما الحاجة فلا يباح المحظور بناء على الحاجة لان الحاجة لا تتوقف عليها حياة الناس بخلاف الضرورة وبالتالي فان ما يباح الى الحاجة يحتاج الى نص فاذا ورد هذا النص فعندئذ تباح اباحة عامة مطلقة دائمة ،ويمثل الفقهاء على هذا الرأي بأن عقد السلم في الاساس محرم قياسا ، وقد أبيح لحاجة الناس اليه الا انه قد ورد فيه نص ، وبالتالي فان الاباحة فيه مطلقة واباحة دائمة .

هذا مجمل آراء العلماء السابقين وآراء العلماء المعاصرين فى موضوع الربا .

بدون شك اننا نحتاج الى رؤية جديدة الى موضوع الربا ، لا نريد ان ندرس الربا من خلال دراسة علمية بعيدة عن المعاملات الجارية فى عصرنا الذي نعيش فيه ، فواقعنا المعاصر يحتاج الى ان نبرز مواقف الاسلام ومعاصرته لكثير مما نحتاج اليه فى حياتنا ، فعندنا مشاكل اقتصادية ومشاكل اجتماعية ، ويجب ان نخرج من عزلة الابحاث الفقهية لعناصر المجتمع ومشاكله ، ومن هنا فانني قد تأثرت فى رؤيتي لموضوع الربا بروح النص الشرعي الذي يربط بين الربا والظلم فى كثير من نصوص القرآن وقد تأثرت ايضا بمبادىء العدالة الاجتماعية التي ما جاءت الشريعة الاسلامية الا لاقرارها ولتدعيمها وتأثرت بمصالح الامة الاسلامية .

فالشريعة الاسلامية قد جاءت لكي تحل مشاكل الناس ولكي تقيم مبادىء العدل الاجتماعي ولكي تنهي الظلم الاجتماعي الذي كان قائما وبالتالي فعلينا ان نبرز دور الاسلام فى هذا المجال .

النص يجب ان نفهمه في أطر ثلاثة

الاطار الاول : مصالح الجماعة .

الاطار الثاني : الزمن الذي نعيش فيـــه .

الاطار الثالث : روح النص ، لماذا حرم الربا ؟ نريد ان نفهم لماذا حرم الربا ؟ ما الغاية من التحريم ؟ من هنا نستطيع ان ننطلق الى مجالات جديـــــدة .

هناك موضوعات أود ان أطبقها على هذا المعيار : أنا استطيع ان اقول : ان كل صورة من صور الظلم فهي نوع من انواع الربا. الربـــا ليست له صورة محددة ، وانما تدخل كـــل صورة من صور الظلـــم الاجتماعي هي صورة ونوع من أنواع الربا ، فالربا ليس قاصـــرا على البيوع او القروض ، وانما يدخل فى كل معاملة تحمل معنى الظلم قـــد يقول الفقهاء والعلماء : قد خرجت عن المفهوم التقليدي الـــذي كتبـــه الفقهاء ، أقول : قد أكون خرجت قليلا ، وانضم هذه الصور التي نراها فى مجتمعنا من صور الظلم هي نوع من الربا المجازى ، هناك الربا الذي كان موجودا فى العصر الجاهلي ولكن هل الربا كان مقصورا على تلـــك الصور التي كانت قائمة أم اننا نستطيع عن طريق القياس وعن طريـــق العلة التي حرم الربا من اجلها وهي الظلم ، ان ندخل صورا جديدة من صور الظلم الاجتماعي ضمن الربا فيكون حينئذ تحريم الربا هو المعيار الذي نستطيع به ان نبرز مواقف الاســـلام التي تدعـــو الى العـــدل الاجتماعي وبالتالي فانني استميح العلماء عذرا اذا خرجـــت قليـــلا ، وادخلت بعض الظلم القائم الآن ضمن مفهوم الربا ، واذا لم يقبلوه بأنـــه الربا الشرعي فليكن صورة من صور الربا بالمعنى المجازي .

أ) الاجور : الاجر هو ثمن العمل ولكن كيف نحـــدد مقـــدار الاجر ؟ قد يقول قائل الاجر يتحدد بالاتفاق والاتفاق يمثـــل العقـــد ، والعقد شريعة المتعاقدين وبالتالي فان الاطراف : الاجير ورب العمل ملزمان بأن يلتزما بما اتفقا عليه ، ويضيفون ما المعيار الذي يحدد هذا الاتفاق فيقولون : لنا معيار العرض والطلب ، فاذا كان العرض كثيرا انخفضت قيمة الاجور ، واذا كان العرض قليلا ارتفعت قيمة الاجور ، أقول : هذا معيار ظالم لانه يريد ان يكرس الفقر فى المناطق الفقيرة ،

والغنى فى المناطق الغنية ، فالعامل فى بلاد العالم هو عامل يحتـــاج لحاجة واحدة فلا يكن العامل فى البلاد الغربية يأخذ عشر امثال العامل فى البلاد الاسلامية لماذا ؟ حاجاتهما واحدة وبالتالي فلماذا هذا المعيار، بل نحن نريد ان نضع معيارا اسلاميا يقوم على أساس العدل ، والمعيار الاسلامي هو مقدار الكفاية قانون العرض والطلب قد وضع ليكرس الفقر فى المناطق الفقيرة والغنى فى المناطق الغنية فعندمـــا نجد الفقـــر منتشرا فى المجتمع فالاجور والبطالة منتشرة ، فالاجور منخفضة مع ان هؤلاء يحتاجون الى أجور أعلى وبالتالي فان المعيار الاسلامي هو يقوم على اساس الكفاية فلا أجر يقل عن حاجة الانسان وكل أجر يقل عن حاجة الانسان فهو اجر ظالم ، وهنا نلاحظ ان الاسلام يحدد الحد الادنـــى للاجور بالكفاية ، وكل أجر يقل عن حاجة الانسان فهو اجر ظالم ، قـــد يعترض بعض رجال القانون والشريعة ايضا علينا اعتراضا آخر فيقولون: وما تفعل بسلطان الارادة العقدية ؟ هنا عقد وهنا اتفاق ، والاتفاق قـــد انبنى على ارادتين وبالتالي فكيف نتجاوز هذا العقد ، فأقول : هذا كلام صحيح ومسلم به ، ولكن يشترط للزوم العقد أن ينبني على ارادتيـــن ليس فقط ارادتين متوازيتين فى القوة ، فاذا كانت احدى الارادتيـــن تمثل قوة وتملك قدرة ارادية واستغلالية تمارس من خلالها دورا ضاغطا على الارادة الثانية فعندئذ لا يمكن ان احترم هذا العقد الذي بنـــى على طرفين غير متوازيين فى القوة ، فعندما نقول رب العمـــل والعامـــل ، عندما يتفقان على أجر . العامل طرف ضعيف ورب العمل طرف قوي ، وبالتالي فاذا كان العامل يستحق عشرة دراهم فى اليوم وفرض عليـــه رب العمل ان يعطيه درهما واحدا فيوافق على الدرهم على وجه التأكيد لانه لا يجد مجال العمل ، وبالتالي فهو لا يملك ارادة حرة ومضطر على ان يوافق على اى أجر ، وبالتالي فاننا لا نستطيع ان نلزمه بمقتضى هذه الارادة التي بدت منه هي ارادة ليست صحيحة هي تحت ضغط الاكراه وتحت ضغط الحاجة وبالتالي فان هنا مسؤولية الدولة التي تحمـــي الطرف الضعيف وتحمي الطرف المذعن عندما تلزم ترتقي بارادة الطرف الضعيف لتكون مساوية لارادة الطرف القوي وينبني على هذا :

اولا : تحديد الحد الادنى للاجر بمقدار الكفاية فلا اجر يقل عن حاجة الانسان لان حق الحياة للانسان ثابت وكل اجر يقل عن حاجة الانسان فانه يعرض حياته للخطر وبالتالي فان الانسان الذي يعيش يجب ان ينال حقه فى عيش كريم وكل اجر لا يوفر له هذا العيش الكريم فهو اجر يعرضه للموت وبالتالي فان أقل حد لاجر يجب ان يفي بحاجة الانسان .

ثانيا : التأمينات الصحية : حق الحياة ثابت للانسان وما يوفر له هذه الحياة فيجب ان يكون موفرا وبالتالى فان العلاج هو حق المواطن لانه يوفر له الحياة ويكفلها ولا يجوز ان يكون هذا الفرد مخيرا بين ان ياكل او ان يتعالج فالاجر يجب ان يوفر له الاكل والعلاج .

ثالثا : مراعاة الجوانب الانسانية فى موضوع العمل : فالعامل انسان وبالتالي فان الاسلام يصون له كل ما يوفر له الشروط الانسانية فى العمل من حيث حجم العمل ، من حيث الاجازات التي يحتاج اليها الانسان عادة ، الاجازات المرضية التي لا يملكها الانسان ، اجازات سنوية يحتاج الى حقوق أخرى فالاسلام يوفر للعامل هذه الحقوق الانسانية .

رابعا : الضمانات الاجتماعية للعمال ولاصحاب الدخل المحدودة للعجزة والشيوخ ، انطلاقا من حق الانسان فى الحياة ، اذا كان عندنا رجل عاجز عن العمل فماذا نصنع به ؟ حقه فى الحياة ثابت وبالتالي فان حقه فى ضمان اجتماعي يصون له هذه الحياة ايضا ثابت ، يؤكد لنا هذه الحقيقة ، حادثة تاريخية نعرفها جميعا مرت فى زمن عمر بن الخطاب عندما وجد يهوديا ، لم يسمح له بالتسول واعتبر ان الدولة مسؤولة عنه قال : ما انصفناك ان اخذنا منك الجزية وانت شاب ثم نتركك فى سن الهرم ، اخذه الى بيت المال واجرى عليه مالا ووفر له ضمانة تكفيه حتى الموت .

وحادثة ثانية : جاء فى كتاب العهد الذي ارسله عمر بن الخطاب الى اهل الحيرة ، قال فى هذا العهد : وجعلت لهم ـ ايما شيخ ضعف عن العمل او اصابته آفة تسقط جزيته وعيل من بيت مال المسلمين .

أولا : تسقط الضريبة وهي الجزية وثانيا : يعال اى تكفل الدولة له حياة كريمة . هذا فيما يتعلق بالاجـــر .

هناك جانب آخر يتعلق بالبيع والربح ، قد يقول قائل الاسلام أجاز البيع واجاز الكسب عن طريق البيع واجاز الربح وبالتالي فان « وأحل الله البيع » فكل كسب يحصل عليه الانسان فهو كسب شرعي جائز ، وهذا صحيح ولكن الا نعتقد ان البيع اذا رافقته صفات اخرى يعتبـــر بيعا خبيثا وكسبا خبيثا كالتاجر الذي يحاول ان يحتكر سلعة من السلع او يستغل ظرفا معينا ليرفع الاسعار على المستهلكيـــن او يحاول ان يستغل ضعف المشتري او جهله بأنواع البضاعة فيبيعه البضاعة على انها من صنع كذا فيكون من صنع كذا الا تعتبر مثل هذه الصفات مبررة لكي نجعل هذا الكسب هو نوع من أنواع الربا ؟ اعتقد اننا نحتـــاج الى هذا ونستطيع ان نقول ان الربح الذي يتجـــاوز الاعراف والتقاليـــد الاجتماعية والتقاليد التجارية يعتبر نوعا من انواع الربـــح الفاحش فى البيع الذي يتجاوز به البائع ، الاعراف ، التجارية وينتهك به مصالـــح الجماعة يعتبر كسبا خبيثا وهو نوع من انواع الربا . قد يقول قائل ولكن هذا حق للبائع ومن حق البائع أن يبيع بأي سعر فأقول ان الحقوق فى الاسلام مرتبطة بمصالح الجماعة وليس هناك حق فردي مجرد عن مصالح الجماعة فالحقوق مرتبطة بالمصالح وكل حق ينتهك به حقوق الجماعة فعند ئذ يعتبر هذا الحق مقيدا لأن هناك عاملين : عامل او دافع أنانـــي للفرد ودافع اجتماعي واخلاقي له ، فاذا استطاع الفـــرد ان يحقـــق التوازن بين الدافع الاناني والدافع الاخلاقي فعند ئذ يعتبـــر البيـــع صحيحا ، اما اذا حاول البائع ان يغلب الجانب الانانـــي على الجانـــب الاخلاقي والاجتماعي فعند ئذ لا يمكن اعتبار هذا الكسب كسبا صحيحا

القروض : لو حاولنا ان نطبق هذا المعيار على القروض لاضطررنا الى ان نفرق فى البداية بين القرض والوديعة والاستثمار ، ما هي طبيعة

المعاملة ؟ عندما اعطى لفرد من الناس مبلغا من المال فيجب ان أتصور مقدما ما ذا أريد بهذا ، هل أريد به القرض ؟ وعند ئذ على ان ألتـــزم بعقد القرض واركان القرض ،واذا أردت به الوديعة فعلى ان ألتـــزم وان اخضع لشروط الوديعة ،واما اريد به الاستثمار وعند ئذ تخضع هـــذه العلاقة لعقد الاستثمار وبالتالي اذا أودعت مالا فى مصرف فهو ليـــس بقرض على وجه التأكيد لانني لا أقرض المصرف فهو اما ان يكون وديعة واما ان يكون استثمارا ، فاذا اردت به الحفظ فعند ئذ يعتبر وديعـــة لدى المصرف وعلى المصرف ان يلتزم بأحكام الوديعة اى اردت بـــه مجرد الحفظ واذا أودعت هذا المال بنية الاستثمار وهذا ما يكـــون فى معظم الاحيان فيجب ان يخضع لمبدأ المشاركة التي يقررها الاسلام وبالتالي فلا مجال للفائدة فى هذا النوع من انواع التعامل اما ان تكـون وديعة واما ان تكون استثمارا فاذا كانت هذه العلاقة هي علاقة استثمار فيجب ان تخضع لمبدأ المشاركة بين المدخر وبين المستثمر بنسبـــة ليست محدودة الاربـــاح .

هذا فيما يتعلق بالقروض الداخلية . اما فيما يتعلـــق بالقروض الخارجية فهنا نعرض للقروض التي تعطي للدول الغربية المتقدمة ، انني أستطيع ان أقول وارضي ضميري بهذا القول : ان كـل قرض يعطـــي للدول المتقدمة صناعيا هو قرض حرام سواء كان بفائدة او بغير فائدة، لان مثل هذه القروض مضرة بمصلحة الامة الاسلامية فضلا عن هـــذه الاموال سوف تكون عرضة للخطر فى أحسن الظروف وسوف تكـــون أداة استغلال يمارسه اعداؤنا فى يوم من الايام ومهما كانـت الامـــوال المستثمرة فى الساحة العربية معرضة للخطر فان الاموال التي تستثمر فى البلاد الغربية سوف تكون فى خطر أكبر وبخاصة اذا ادركنـــا ان مواجهة حاسمة لا بد من ان تكون فى يوم من الايام بين الدول الاسلامية التي تملك الثروات والاموال وبين الدول المتقدمـــة اما فيما يتعلـــق بالدول المتقدمة ، فهنا يجب ان نفرق بين نوعين من انـواع القروض او الاستثمارات . العلاقة اما ان تكون قرضا واما ان تكون استثمارا نفس القاعدة التي وضعناها ، فاذا كانت الامور الاستهلاكية كتدعيم الجيوش وانشاء المرافق العامة والمدارس والمستشفيات ، فهذه قروض ويجب

ان تكون خالية من الفائدة تدعيما وتأكيدا لروابط الاخوة التي تقوم بين البلاد الاسلامية ، اما اذا كانت بنية الاستثمار فيجب ايضا ان تخضع لمبدأ المشاركة بين الدول التي تملك المال وبين الدول التي يراد الاستثمار فيها تحقيقا للمبدأ الاسلامي الذي يحدد الربح والذي يجعل هذا العقد عقد استثمار يخضع لمبدأ المشاركة هذه رؤيتي الخاصة لموضوع الربا .

صاحب الجلالة انني أطرح أمام جلالتكم هذه الرؤية الخاصة لمفهوم الربا فى ظل التطورات الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة واعتقد اننا بحاجة ماسة لابراز مثل هذه الرؤية المعبرة عن روح الاسلام والملائمة مع مبادئه ومقاصده الشرعية ، ونستطيع من خلال هذه الدراسة التي قدمناها أمام جلالتكم ان نضع أسسا اسلامية لتطلعاتنا المستقبلية فى ظل واقعنا المعاصر ، ومن أهم هذه الاسس :

1) تحريم الظلم والاستغلال بجميع أشكاله وصوره واعتبار الربا شاملا لكل صورة من صور الظلم الاجتماعي .

2) ضرورة وضع تشريعات اجتماعية مستمدة من تعاليم الاسلام تحدد حقوق العمال وترعى مصالحهم فى ظل العدالة الاجتماعية التي اقرتها الشريعة ، ولا شك ان تشريعات السماء اكثر عدالة وسموا من التشريعات الوضعية الطبقية .

3) ضرورة اشراف الدولة على جباية اموال الزكاة وتوفير الخدمات المجانية والضمانات الاجتماعية والصحية للعجزة والشيوخ وأصحاب المداخيل المحدودة من اموال الزكاة .

4) انشاء مؤسسات استثمارية بديلة عن البنوك التجارية نستطيع من خلالها ان نمتص الاموال من المدخرين ونستثمرها لهم وتشرف الدولة على هذه العمليات الاستثمارية تنشيء هذه المؤسسات وتكفلها لهذه الافراد تستثمرها فى المشاريع الانمائية التي تحتاج اليها

الدولة ثم تعطيهم من ارباحها ولو حددت المقدار المدفوع انما تخضع هذه العلاقة لمبدأ المشاركة وليس مبدأ الفائدة المقطوعة .

5) ضرورة انشاء اليونسكو الاسلامية لتدعيم المؤسسات الثقافية والمؤسسات الصحية فى الاقطار الاسلامية الفقيرة وتوفير الخدمات الثقافية والعلمية لهذه الاقطار الفقيرة .

6) ضرورة قيام الدول النفطية بتحمل مسؤولياتها القومية والدينية عن طريق تكثيف استثماراتها فى الاقطار الاسلامية ودعم مخططات التنمية الاقتصادية فى هذه البلاد وفق معايير انسانية تعبر عن مضمون المشاركة الاخوية بين هذه الاقطار ، واذا كنا نطرح مثل هذه الرؤية المعاصرة أمام صاحب الجلالة فاننا نؤكد ان اعداء الاسلام لا يريدون للاسلام ان يقف فى مواجهة التطورات المعاصرة وانما يشككون فى قدرة الاسلام على ان يثب ويقولون : ان هذه التطورات سوف تجعل الاسلام يضعف شيئا فشيئا حتى يصل الى حالة العزلة الكئيبة وانني أؤكد هنا ما قلته للمؤتمر الدولي للعالم الاسلامي الذي انعقد خلال هذه الصيف فى ايطاليا بدعوة من المؤسسات الامريكية قلت ان كل محاولة لاقصاء الاسلام عن واقعنا الاجتماعي والاقتصادي محاولة مكتوب عليها الفشل وان كل محاولة لتدمير الاسلام او تشويهه ستولد فى نفس الوقت تيارا اسلاميا بنفس الحجم والمقدار يدعو الى الاسلام وان الاتجاهات العلمانية التي تحاول ان تفرض نفسها اليوم فى المنطقة العربية عاجزة فى المجال الداخلي عن تحقيق التلاحم بين المجتمع والنظام كما انها عاجزة فى المجال الخارجي عن حماية البلاد والاوطان لان العلمانية فراغ والفراغ لا يمكن ان يحمي المنطقة . الاسلام هو قدر هذه الامة وهو سلاحها الدفاعي الوحيد القادر على حمايتها مصيريا ووطنيا فلولا الاسلام ما ارتفع علم عربي فوق ارض عربية .

واني أخاطب شباب المستقبل الذي يجلس اليوم على مقاعد الدراسة فى الجامعات والمؤسسات الثقافية ان يتعمقوا فى دراسة الثقافة الاسلامية وان يلموا بالنظرية الاسلامية متكاملة فى مجال الفلسفة

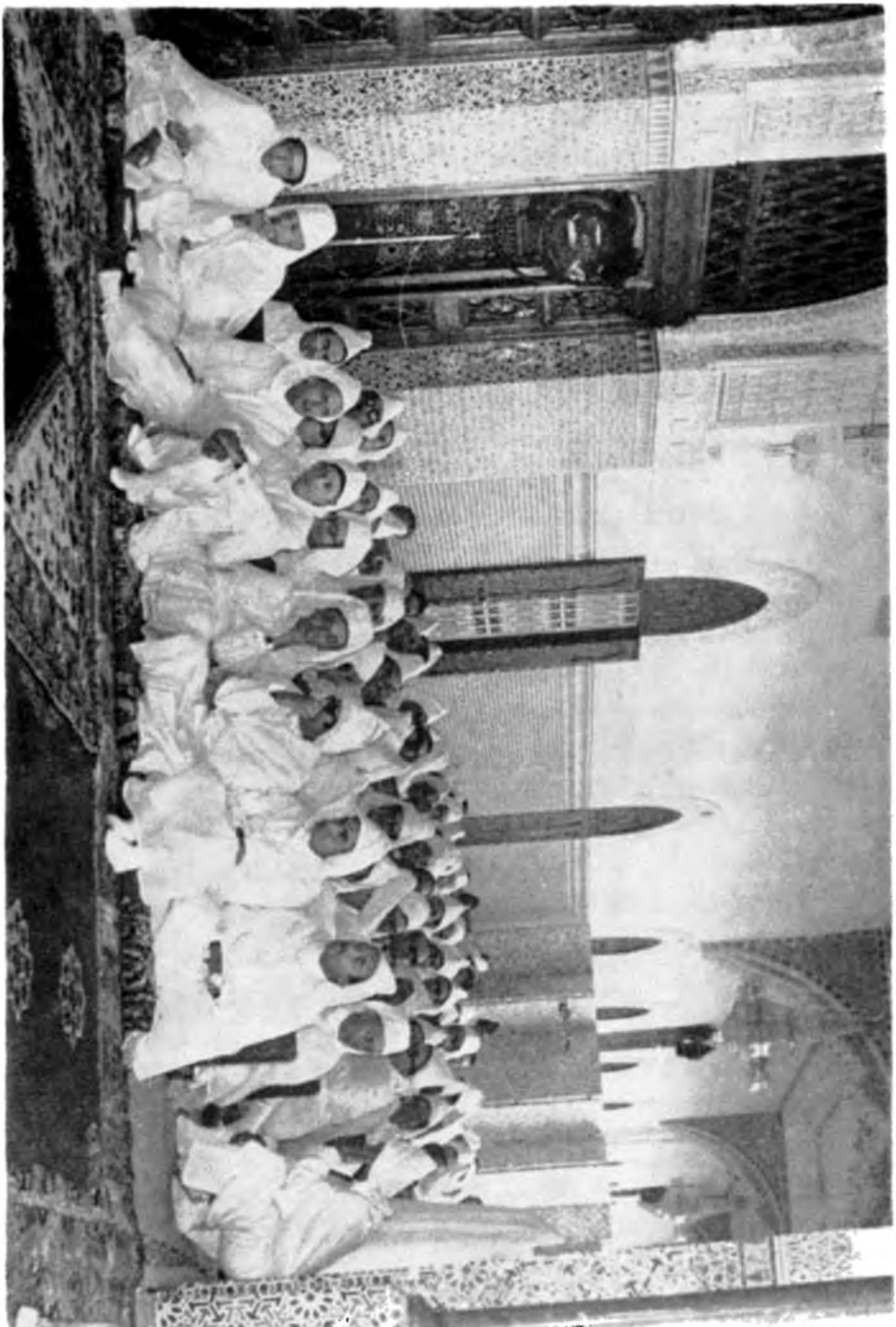
والاقتصاد والحكم والسياسة وان يكونوا اوفياء لامتهم أوصياء على وطنهم دعاة للخير والحق والفضيلة ، وانني اتوجه اليكم صاحب الجلالة بالرجاء وانتم المؤتمنون على شباب هذه الامة الحريصون على مستقبلهم ان توفروا لهؤلاء الشباب الرؤية الصحيحة للاسلام عن طريق ادخال مادة جديدة فى المناهج الجامعية يدرس الطالب فيها النظرية الاسلامية ومكانتها بين النظريات الفكرية المعاصرة فى مجال الفلسفة والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، واذا كانت الجامعات الماركسية تدرس النظرية الماركسية لجميع الشباب والطلاب فيها فنحن المسلمون احق بالوفاء لديننا ولعقيدتنا .

صاحب الجلالة جئت اقطع آلاف الاميال بحثا عن منبر حر افتقدناه منذ قرون ، جئت الى بلدي وكل أرض مسلمة بلدي لكي أعبر عن آلام امتنا وآمالها وتطلعاتها أمام عاهل عظيم لم ترهبه كلمة الحق من ان يستمع اليها من مواطنيه جئت أخاطب الشباب فى المدارس والجامعات اخوتي واحبتي وأقول لهم : انتم الامناء على مصير هذه الامة فاسقطوا الشعارات المستوردة والمزيفة واكشفوا النقاب عن الدخلاء والمشبوهين من دعاة التغريب والتشريق متى كان الاميون والماركسيون انصارا للوطنية والقومية متى كان دعاة الحقد الطبقي انصارا للعدل الاجتماعي ؟ متى كانت مؤسسات التبشير الاستعمار تعد لنا ابطال الكفاح والجهاد والنضال .

مولاي صاحب الجلالة ، لقد اريد للضمير الديني فى عالمنا الاسلامي ان يكون عاجزا ومشلولا لكي تفقد مجتمعاتنا ضوابطها الاخلاقية وقدراتها الدفاعية ، وعلينا ان نعيد لهذا الضمير دوره القيادي والرقابي لكي نستطيع ان نبني به انساننا المعاصر ، عقيدة انسانية متميزة وفكرا علميا متجددا وسلوكا اخلاقيا قويما وانني أؤكد أن معركة قاسية فاصلة لا بد آتية بين الاسلام وبين التحالف الثلاثي المكون من الصهيونية والصليبية والشيوعية ، وضميرنا الديني هو سلاحنا الوحيد فى هذه الحرب الجهادية المقدسة وان معركة المغرب اليوم لتحرير أرضه السليبة هي جزء من معركتنا الكبرى التي يخوضها الاسلام فى وجه

المؤامرات الانفصالية والتمزيقية ، وان شعبنا المسلم فى كـــل أرض مسلمة يقف بكل عواطفه وقدراته القتالية مع هذه الحرب الجهاديـــة ، وعلى الحكومات العربية والاسلامية ان تتحمل مسؤولياتهـــا القوميـــة والدينية وان تقف بكل وضوح وجلاء مع وحدة التراب المغربي وقوفـــا مع ارادة الشعوب المسلمة التي لا ترضى بعد اليوم بمزيد من التشتيت والتفسيـــم والتفريـــق .

وادعوا الله مخلصا ان يحفظ صاحب الجلالة وان يوفقه وينصره لكي يحقق الآمال المستقبلية المعقودة عليه فى قيادة حركة الانبعـــاث الاسلامي التي هي البديل الوحيد عن واقعنا المتخلف لكي ننهي مرحلة جديدة تقوم على أساس رؤية مستقبلية واضحة المعالم اسلامية المنطلق عقلية التفكير عصرية الاسلوب أصيلة فى خصائصهـــا ، طموحـــة فى تطلعاتها تنسق بين الفرد والمجتمع وتقيم أوثق الروابط مع الانســـان الذي استخلفه الله على الارض لكي يقيم دعائم مجتمع انساني يقوم على أساس الحق والعدل والخير وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .



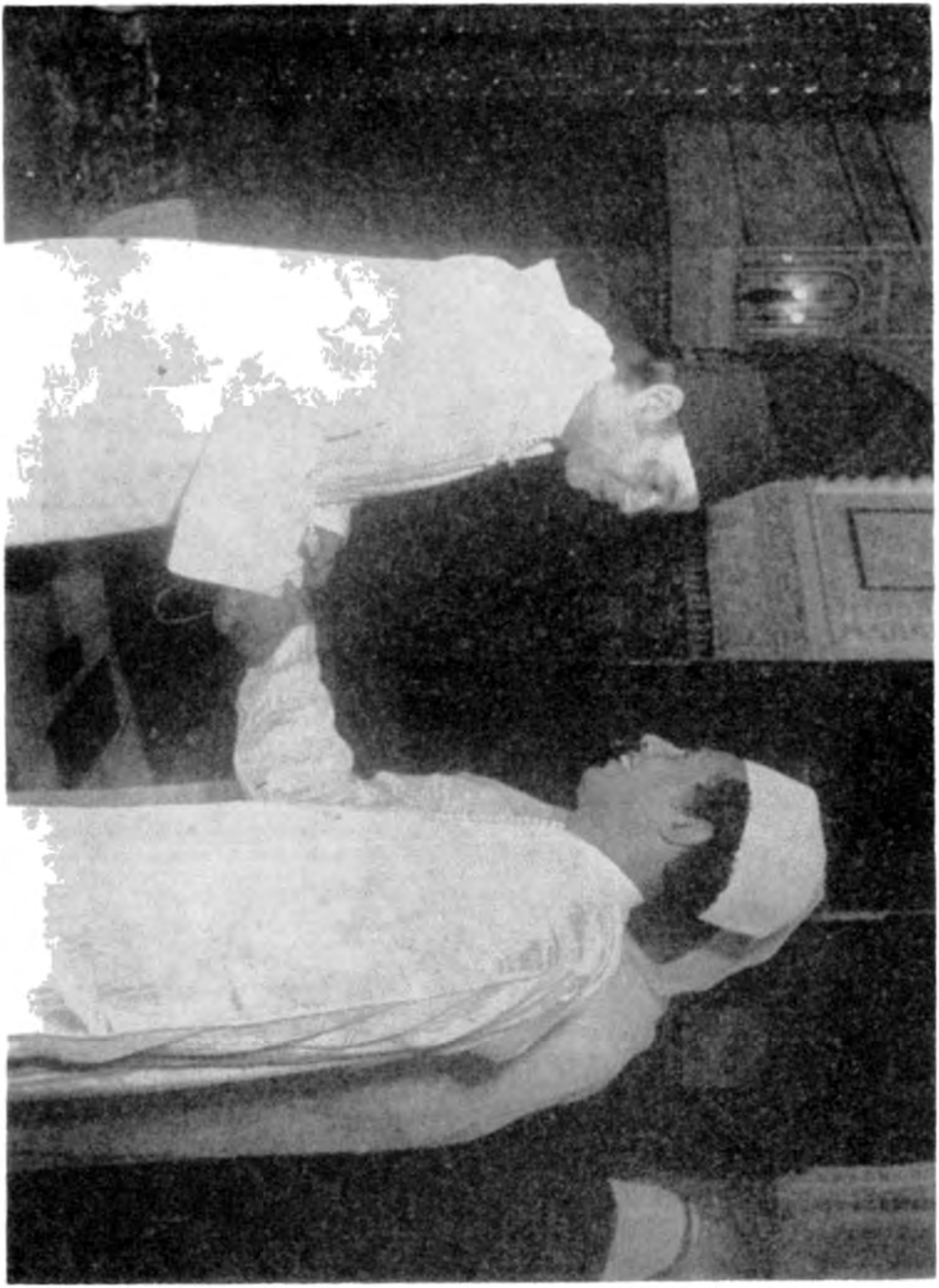
الدرس التاسع | 22 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

من أسرار
القرآن الكريم

ألقاه :

الدكتور مصطفى محمود
من جمهورية مصر العربية



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنـــا محمد أشـــرف المخلوقين وعلى آله وصحبه أجمعين . ان أصدق الحديـــث كتاب الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامـــور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

قال الله عز وجل : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكـــم في الارض مستقر ومتاع الى حين » صدق الله العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين تحية من مصر مباركة طيبة الى العاهل العظيم صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني والى العلمـــاء الاكرمين وشكرا لهذه المناسبة الطيبة التي تجتمع فيها القلوب والعقول على نور الله وهديه ، ثم الى موضوعنا :

سئلت ذات مرة : لماذا خلق الله الحشرة ؟ ولقد فكرت حينذاك وقلت في نفسي : ربما لو أخذنا رأي الحشرة لقالت : ولماذا خلق الله الانسان ؟ فالانسان بالنسبة للحشرة ضار كما ان الحشرة ضارة بالنسبة للانســـــــان .

ولكن المسألة هي قضية اكبر وهي متعلقة بقانون يسري بالحياة كلها فالله خلق لكل شيء آفة تعتدي عليه خلق القطن وخلق دودة القطن،

وخلق النبات وخلق الجراد ، وخلق الانسان ، وخلق السوس ، وخلق العين وخلق الرمد ، وخلق الانف وخلق الزكام ، وخلق الثمرة وخلق العفن ، وخلق الحديد وخلق الصدأ ، وخلق الانسان وخلق معه جيشا من الاعداء لاغتياله من بعوض وذباب وديدان وميكروبات وسل وجذام وتيفوس وكوليرا ، والله لم يحاول اخفاء هذه الحقيقة وانما اعلنها فى كتابه على انها أمر مراد مقصود فقال جل شأنه : « لقد خلقنا الانسان فى كبد » أي فى مكابدة وعناء . فالله لم يرد بالدنيا ان تكون دار سلام وانما ارادها ان تكون دار عناء وكفاح وشد وجذب بين اضداد ، أراد ان يمتحن كل شيء ويسلط عليه ضره وان يبتلي كل شيء بنقيضه ونقرأ فى القرآن اشارة الى هذا الناموس الذي جعل من الدنيا محلا لتدافع المتناقضات ، يقول ربنا تبارك وتعالى فى كتابه :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » وتكررت الاشارة فى مكان آخر فى سورة الحج بنفس الالفاظ « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » وتكرار الاشارة يدل على الاهمية ولفت النظر ، والله يشرح لنا فى الآيات اسرار حكمته فى هذا الناموس العجيب فهو يدفع بالاقوياء بعضهم على بعض ويكسر الجبابرة بجبابرة من جنسهم ليستطيع الضعفاء ان يعيشوا ويمارسوا العبادة فى بيعهم ومساجدهم .

فهذا القانون هو مظلة امان تحمينا من جبروت الجبابرة لان الله يستهلك طاقتهم فى ضرب بعضهم بعضا ، ومعلوم الان فيما نرى من التاريخ ان هذا الامر صحيح تماما ، فهذه امريكا تتخضم وتتعملق بقوة وتملك القنبلة الذرية والهيدروجينية فيدفعها الله بروسيا ويسهل لها هي الاخرى امتلاك القنبلة الذرية والهيدروجينية ومن انشغال القوتين الا كبر بصراعهما بعضهما ببعض نستطيع نحن دول العالم الثالث ان نتنفس ونعيش بل نستطيع ان نغازل الاثنين ونستفيد ، ولو ان روسيا كانت انفردت بالعالم لاهلكته ، ولو ان أمريكا كانت انفردت بالعالم لتسلطت عليه ولكن رحمة الله دفعتهم بعضهم ببعض ، بل ان الامر العجيب انه حينما بدأت القوتان الاكبر امريكا وروسيا تتقاربان

وتتعايشان أظهر الله الصين هائلة عملاقة على المسرح أظهر الصين نقيضا يستنزف الروس والامريكان معا .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » هو اذن ناموس يجري فى الحياة منذ بدء الخليقة « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » اذن الناموس يجري منذ بدأ الخليقة بعضكم لبعض عدو .

ونقرأ فى آية أخرى « كذلك يضرب الله الحق والباطل » النقيض بالنقيض ما الفائدة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » هنا الناموس وهنا حكمة الناموس « كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » ضرب النقيض بالنقيض .

وهو نفس القانون الذي قرأنا عنه بعد ذلك أكثر من ألف سنة من نزول القرآن قرأناه موسعا فى فلسفة هيجل باسم الديالكتيك (الايدياليزم) والمنطق الجدلي المثالي وكان فى ظن هيجل ان هذا القانون يعمل فقط فى عالم الفكر . ثم جاء ماركس ليقع فى ضلال آخر فيتصور ان القانون لا يعمل الا فى عالم المادة ، ديالكتيك ما تيرياليزم او المنطق الجدلي المادي . ثم وقع ماركس فى خطأ ثان فتصور ان القانون يعمل بذاته وانه هو الذي خلق من المادة كل صور الحياة من نبات وحيوان وانسان ثم وقع فى ضلال ثالث فأخذ يلفق من هذه الآراء مذهبا يسخره للاهواء السياسية والاغراض بتحريض الفقراء على الاغنياء والعمل على أصحاب الاعمال فيما يسمى بفلسفة الصراع الطبقي .

كل هذه الاخطاء لا نجدها فى القرآن الذي اشار الى القانون منذ 1300 سنة اشارة واضحة فالقرآن يعلمنا اولا أن هذا القانون شامل لا هو مادي كما يقول ماركس ولا هو مثالي كما يقول هيجل ثانيا ، ان هذا القانون مخلوق وليس خالق ، فهذا مجرد أداة فى يد الله يصلح بها حياة خلقه ويحرك بها الاحداث نحو توازن محمود بين مختلف القوى .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » اذن الله هو الذي يدفع ، والله الذي يجري هذا القانون . . الله اولا والله أخيرا . الله هو الحقيقة الاولى ، والقانون الجدلي مجرد سبب ، مجـــرد أداة مسخـــرة .

اذن كل ما نقرأ عن صراع الاضداد ، فى الواقع عندنا اصلــه فى القرآن وعندنا صحة الامر فيه . بل ان الصوفيين ينشدون فى اشعارهم :

ان العناصر مجمع الاضداد　　　يخفي الظلام بها دوام جهاد

ويقول الصوفي ابو العزايم عن الروح والجسد : انها كالثلج والنار قد جمعا برحمته ، الشيء وضده الشيء ونقيضه . وهو يقول عن نفسه: مجمع الاضداد ختمي أولى . وختمي أولى معناها بدايتها كنهايتهـــا ، جئت من الله ثم الى الله اعود ، مجمع الاضداد ختمي أولى .

ثم نعلم ان الله ابتلى الروح بالجسد كما جمـــع بين الالكتــــرون والبروتون فى الذرة وهما الاضداد فهذه النظرة الجدلية او الديالكتيكية هي مسألة قديمة والشاعر عندنا يقول :

لكل شيء آفة من جنســـــه　　　حتى الحديد سطا عليـــه المبـــرد

هو اذن أمر قديم ــ الجديد فيه ان هؤلاء الفلاسفـــة استنبطـــوا واستخرجوا منه تخريجات خاطئة .

ثم ان القانون يشرح لنا ان هذا القانون يعمل فى الوجود منذ بدء الخليقة ، فكلمة الله لآدم كانت منذ الخلق الاول : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعـــض عـــدو » .

ولكن الفرق بين القرآن والفلسفة كبير فنحن نرى الحكمة والدقة والصدق والحق المطلق فى القرآن بينما نجد فى الفلسفة التخبـــط ونرى أولا ان فريقا من فلاسفة الغرب تصوروا القانون يعمل من خلال

الفكر وفريقا آخر تصور ان القانون يعمل من خلال المادة ، نرى ان ماركس اسند الى القانون الخلق ، اعتبره خالقا يخلق من المادة كل صنوف الحياة والانسان ، ثم نرى ان ماركس ايضا اخرج منه تخريجات سياسية خاطئة،وهذا هو الفرق بين التخبط فى الفلسفة وبين لمحة القرآن الصافية النقية . ثم يكشف لنا الله ان طريق النجاة فى هذه الحرب بين النقطتين هو صراط الوسط ، صراط الاعتدال ، الصراط المستقيم « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » « لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » الوسط . فبين البخل وبين السخاء والاسراف الوسط هو الكرم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » انه صراط الاعتدال والصراط فى الواقع هو أكثر من وسط حسابي لاننا نرى ان الكرم ليس وسطا حسابيا بين البخل والاسراف انما هو وسط انتقائي ، وسط تركيبي ، فهذا الوسط يأخذ من البخل ما فيه من حرص ويرفض المساوىء الاخرى ثم يأخذ من الاسراف ما فيه من المبادرة ويرفض المساوىء الاخرى من سفه الى آخره ثم يركب من هذه الصفات الصراط او الوسط والاعتدال الذي هو الكرم ، فهو ليس وسطا حسابيا ولكنه وسط انتقائي جدلي ، ووسط الصراط المستقيم فى السياسة هو خط الوسط الذي يرفض اليسار الشيوعي كما يرفض اليمين الرأسمالى ، ومرة أخرى ليس الوسط الحسابى ولكن الوسط الجدلي فالوسط الاسلامي هو تركيب جدلي يجمع بين حسنات النقيضين، فنجد ان العدالة الاسلامية تأخذ من حسنات الاشتراكية والحسنات الرأسمالية ، وفى نفس الوقت تتجنب سيئات الاثنين ثم هي ايضا تعطي اضافة وزيادة من النعمة الروحية والاشباع الروحي كما تمنح للمؤمن سندا من الغيب وخلودا فى الجنة . فهو شيء جديد يأتي من تركيب النقيضين ثم يضيف عليهما . هنا شيء جديد متفوق ليس مجرد وسط حسابي بين الاشتراكية والراسمالية وانما وسط تركيبي جدلي يجب الاثنين ويتفوق على الاثنين .

نفس المسألة فى الشجاعة ليست وسط حسابي بين الجبن والتهور لان الشجاعة فى الواقع وسط تركيبي تأخذ من الجبن حرصه

وتأخذ من التهور اقدامه ثم ترفض سيئات الجانبين فالشجاعة اذن وسط تركيبي انتقائي ليس وسط حسابى ثم لا نرى ان الاسلام والقرآن سابقا فى هذه اللمحة والاشارة الى قانون تصارع الاضداد سابق على كل ما اتته به الفلسفة بألف سنة ثم العدل الاسلامي سابق على النظامين الرأسمالي او الاشتراكي بألف سنة وهو يمثل فى نفس الوقت نظاما يجب الاثنين ويتفوق عليهما . والاشارة الى ان امة المسلمين شهداء على الناس اشارة عميقة المعنى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » والمعنى اننا شهداء على الناس لاننا عندنا المعيار الذي نحكم به على جميع اهل التطرف لكل الملل والمذاهب ، عندنا المتر الذي نقيس به الطويل والقصير ، بل ان القرآن فيه المنطق الجدلي كما ان فيه أسسا للمنطق الصوري الارسطي القائل بدوام الاشياء

والمنطق الجدلي هو ما ألمحنا اليه من قبل بأن كل شيء له نقيضه ومن الصراع بين النقيض والنقيض ينشأ التركيب ثم التركيب يثير تركيبا آخر الى آخره وان لكل شيء بذرة فنائه هذا هو المنطق الجدلي.

والمنطق الصوري او الارسطي هو منطق مختلف لانه يقول بدوام الاشياء ، فالمنطق الصوري يقول بأن القمر اليوم هو القمر غدا . المنطق الصوري الارسطي يقول بثبات الاشياء ودوامها بينما المنطق الجدلي يقول بفناء الاشياء وتضادها . فمثلا المنطق الجدلي يقول البذرة هي اليوم بذرة ولكنها غدا شجرة ، وبعد غد تراب فنرى أن القرآن فيه أسس من المنطقين ، فنجد مثلا بأن القرآن حينما يتكلم عن الالهيات يوردها على أساس انها أمور ثابتة « ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » أمور ثابتة فاذا اشار بعد ذلك الى المسائل الوضعية أو الى المخلوقات فانه يشير اليها على اعتبار أنها فانية«كل من عليها فان» فى كل شيء بذرة فناء فالقرآن يعطي لمحة عن المنطق منطق الثبات ومنطق التناقض ولعل هناك من يشطح به ذهنه فيتصور على الله شبهة ظلم اذ خلق الانسان فى كبد وسلط عليه المرض والميكروب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وتصحيح الامر ان الله خلق المرض ولكنه ايضا خلق الدواء فى شراب الينابيع وفى الاعشاب وفى عناصر الارض تحت

اقدامنا وخلق لنا العقل لنستدل ، ونستكشف حينما شكا أيوب لربه ما اصابه : « رب اني مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ، قال له ربه : «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب» ومعنى ذلك ان الله خلق السم والترياق ، خلق المرض ، وخلق الدواء .

ثم انه سبحانه وتعالى جعل فى هذا التحدي العدواني المستمر مصلحة ومنفعة ،

يقول عالم الفيزيولوجيا ان سم الميكروب يحفز النسيج الحي الى الاحتشاد كما تدفع لسعة البرد الدم الى الشرايين والله جعل من عدوان الطبيعة حافزا مستمرا لمخلوقاته ليبدع كل مخلوق وسائله ويتكتل ويحتشد ويخرج احسن ما يختزن من طاقات ليكون على اكمل صورة ولو ان الحياة الدنيوية سلمت من الاعداء واخلدت الى الراحة والامن والدعة لترهلت وتخنثت وضعفت وانقرضت وهو المصير المألوف الذي نشاهده فى الافراد كما نشاهده فى الامم التي تخلد الى الترف والراحة تنحل وتنقرض ولهذا يغرس الله الاشواك فى الامم لتخرج منها الورود وهذا هو ما حدث عندنا حينما تخاذلت الامم العربية حينما انقسمت وانهكها الترف غرس الله فى جوفها شوكة اسمها اسرائيل تحفزها الى الوحدة حفزا وتضطرها الى اصطناع القوة والحديد والعضلات اصطناعا لتواجه تحدي الموت وتشد امريكا ازر اسرائيل بالمال والسلاح فيفجر الله عندنا البترول والمال العربي ويفتح امامنا ترسانات للسلاح لنتزود ونتقوى .

سنن كونية تعمل وقوانين ازلية تجري فى خفاء وتعمل فى حفظ التوازن المعجز حتى يتقوى الضعيف ويتهدم القوي وحتى لا تطغى قوى على قوى وحتى لا تبتلع حضارة حضارة أخرى وحتى لا يفني نوع من الاحياء نوعا آخر .

ونجد امثلة لهذا القانون من الحشرات ، نجد مثلا دودة القطن لها اعداء طبيعيين من الحشرات ياكلون البيض او ياكلون اليرقات ولهذا

حينما ابتكر الانسان المبيدات الحشرية وهي نوع من السموم تقتل جميع الحشرات الضارة والنافعة كان هذا السم فى الواقع ادى الى مضاعفات خطيرة فنجد رش الحقول مثلا بميد معين تبدأ فى الظهور دودة جديدة برازيليا مثلا فى القطن ثم نكتشف ان هذه الدودة كانت فى السابق لا تظهر لانه كان لها اعداء طبيعيين ياكلون البيض فلما قتلنا كل اعدائها الطبيعيين ابتدأت تظهر ، اختل التوازن .

وقد رايت بنفسي مثل من هذا الامر العجيب فى السودان فى رحلة الى جنوب السودان وكنت فى باخرة تمخر عباب النيل وعلى سطح الباخرة فى الليل شاهدت أشجار الغابة مضيئة كأنها أشجار عيد الميلاد تضيىء وتنطفىء فلما سألت ربان الباخرة ، قال ليست اضواء هي حشرة تغطي الشجر اسمها حشرة الحباحب ، نوع من الحشرات يغطي الشجر ويضيىء وينطفىء ، يضيىء ليجتذب البعوض ، فاذا انجذب البعوض ياكله لانه يعيش على اكل البعوض ثم يعود فينطفىء مرة أخرى يضيىء وينطفىء اعداء طبيعيين حينما ازداد غزو البعوض للمنطقة ؟ ظهرت حشرة مضرة لتعيد التوازن بين المخلوقات بعضها ببعض اسلوب الهي عجيب فى قيادة الحياة ككل بخلق النقيض الذي يصرع النقيض وهذا هو الاسلوب الالهي لاحداث التوازن فى الواقع نلاحظ ان الاسلوب البشري ينتهي الى الافساد فنحن لما استعملنا (د. د. ت) أو المبيدات الحشرية قتلنا النافع والضار من الحشرات ، وبذلك ظهرت امراض جديدة فى النبات مرة اخرى لما رششنا النباتات بالمبيدات ليس فقط الحشرات التي تعيش عليها ماتت ولكن ايضا الطيور التي تعيش على الحشرات ماتت وقتلت ثم الحيوانات التي تاكل الاعشاب مرضت بسبب (د. د. ت) ثم الاسماك فى المجاري المائية ايضا مرضت او ماتت .

فاذن الانسان ابتدأ يتعذى على لحوم هذه الاسماك او الحيوانات هو الآخر يمرض ، اذن هناك دورة سموم تدور الآن فى الارض كلها وبما يسمى بالتلوث (بليوشن) وسببها هو الاسلوب الانساني ، اسلوب غير حكيم طائش فى محاربة الاشياء وهذا فارق كبير جدا بين الاسلوب

البشري وبين الاسلوب الالهي ، نعطي مثلا لمسألة الفضلات ، الانسان حينما اقام الحضارة الصناعية وبنى المصانع اعتبر هذا تقدما خطيرا جدا لكن مع هذا ان المصانع لها مداخن وهذه المداخن تصعد منها غازات وفى نفس الوقت هذه المصانع لها مخلفات كبريتية ومخلفات ذرية ، كل هذه الاشياء بالتدريج ابتدأت تحدث تلوثا فى البيئة او ظاهرة التلوث .

عندما نلاحظ الاسلوب الالهي كيف كان شكله نستغرب مثلا عندما نرى النبات والانسان والحيوان الانسان له فضلات سواء كانت فضلات عن طريق التنفس او فضلات برازية او بولية فماذا يحدث ؟ الذي يحدث ان النبات يأخذ هذه الفضلات ، فهو من الفضلات البرازية التي يعتبرها سماد ومن هذا السماد تخرج الورود الجميلة فكأن ما يستغنى عنه الانسان يحتاجه النبات ونفس الوضع النبات يستغنى عن الاكسجين فى عملية التنفس الكلوروفيلي ، والانسان محتاج للاكسجين ؟ الاكسجين هو احد فضلات النبات وفى نفس الوقت هو احد احتياجات الانسان ، فهناك علاقة تكاملية ؟ ما يستغنى عنه الانسان يأخذه النبات وما يستغنى عنه النبات يأخذه الانسان ، وكذلك فى التنفس فنحن نخرج كفضلات ثاني أكسيد الكربون يعتبر غير ذي جدوى ؟ هذا الغاز يأخذه النبات فى عملية تنفيس كلوروفيلي لانه يحتاج لثاني أكسيد الكربون زائد بخار الماء يعمل منه بواسطة الطاقة الشمسية الثمار والنشويات الى آخره ففيه علاقة تكاملية عجيبة بين الحيوان والنبات الفضلات التي تخرج من النبات يأخذها الحيوان والفضلات التي تخرج من الحيوان يأخذها النبات علاقة تكاملية تختلف تماما عن علاقة التهديم والتي يستعملها الانسان بالمبيدات الحشرية ويعتبر نفسه بأنه يتخلص منها ؟ فهذا فرق كبير بين الحكمة وبين النزق بين العلم الالهي الشامل وبين العلم الانساني المحدود .

وهذا يقودنا الى مسألة التوازن لاننا اكتشفنا ان القانون له حكمة فى الطبيعة هو ان يقود الاحداث الى توازن محمود بين القوى ، وفى الواقع نحن نقرأ اشارات لهذا التوازن فى القرءان « خلق كل شيء

فقدره تقديرا » ان كل شيء خلقناه بقدر « قد جعل الله لكل شيء قدرا» « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » « وكل شيء عندنـــا بمقـــدار » اشارات صريحة على ان كل شيء مقدر وان الهدف النهائي هو التوازن ؟ وفى الواقع حينما نلاحظ تطبيق هذه المسألة فى الكون نفسه نبـــات وحيوان وانسان وتاريخه نجد الحكاية مطبقة تماما يعني أولا فى مسألة النقيض ونقيضه كما شاهدنا وكما روينا فى الموضوع ثم من ناحية الكتل والاحجام يعني مثلا حجم الارض فحجم الارض لو كان اكبر مما هو عليه قليلا كانت الجاذبية شديدة جدا ولا ستحالت الحركـــة ولتحـــول وزن الانسان من 60 كيلوغرام الى كذا طن ؟ وبالعكس لو كانت الارض اصغر قليلا مما هي عليه كانت الجاذبية ضعيفة واهرب البخار والسحاب والمياه كلها تهرب من البحر ولصار سطح الارض كسطح القمر جافا هامـــدا واستحالت الحياة وفى نفس الوقت لما نشاهد من ناحية المكان يعني لو كانت الارض اقرب الشمس قليلا مما هي عليه لاحترقنا من شـــدة الحرارة ، ولو كانت أبعد مما هي عليه لمتنا من البرد واذن هناك توازن من ناحية الكتلة والحجم والمكان ثم هذه المسألة ليســـت فى الارض فقط بل فى المجرات كلها، فى المجرة كلها وعلاقة الشموس والكواكب وعلاقة بعضها ببعض ، ومن هنا اقسم الله بمواقع النجوم ، لان هـــذا قسم خطير جدا ؟ لان مواقع النجوم مقدرة لو اختلف الموقع واختل قليلا فالعمارة الكونية تنهدم ؟ كقوله تعالى : « والسماء بناها » مع انها فضاء وعلاقتها كلها دقيقة ومحكمة تماما ؟ لو اختلفت هذه العلاقـــة من ناحية المكان والزمان تنهدم عمارة الكون كلها .

ثم نجد نفس الحكاية فى الذرة ، الكون الصغير ؟ نجد العلاقـــة مقدرة بدقة بين البروتون ، نواة الذرة ، وبين الالكترونات مقدرة بدقة وحركات الذرة ومكانتها وعلاقة الذرة بذرة أخرى بحيث لو اختلت هذه العلاقة مثل ما نعلم تنفجر الذرة فكأن التوازن ملحوظ فى الكون الكبير مجراته وكواكبه ، وفى الكون الصغير الذرات والالكترونات ثم ملحوظ من ناحية الكتل وملحوظ ايضا من ناحية المسافات والابعاد .

ثم ايضا هناك توازن فى الزمان من حيث الزمان والتوقيت ، ومن أسماء الله سبحانه وتعالى المقدم والمؤخر بهذا المعنى الخطير لانـــه يقدم الاشياء ويؤخرها لتكون فى الوقت المحكم المضبوط ، لانه يتوقف على التوقيت أشياء كثيرة مثلا توقيت الرسالات وتوصيـــف الرسالات نجد ان مثلا رسالة موسى تاتي بما يضرب السحر ايام الفراعنة ؟ بينما تاتي رسالة عيسى عليه السلام بمعجزة تتفوق على كل التفوق الطبـــي الذي كان موجودا فى ذلك العصر .

نرى الانسان ، محمدا صلى الله عليه وسلم يأتي بمعجزة بلاغيـــة تتفوق على ما اشتهر القوم به من بلاغة وأدب وبيان ، فالمسألة فيهـــا توصيف ثم توقيت ؟ دقة التوقيت ، توقيت الرسالات وتوصيفهـــا فى الزمن المحدد وله حكمة ؟ فكل شيء بايقاع .

وايضا كلمة الله سبحانه وتعالى المبدىء والمعيد هنا ايضا مسألة دقيقة فى مسألة المبدىء والمعيد هو ليس فقط ينصرف الى ان الله يعيدنا بعثا فى الآخرة ونتجدد مرة أخرى ، ولكن هذا القانون شامل حتى فى الدنيا لاننا لما نتأمل الدنيا والوجود انه يسير فيه دورات للبـــدء والاعادة ؟ ليل نهار ثم ليـــل نهار ثم الحضـــارات تسيـــر فى دورات ايضا بدءا او اعادة ؟ فهذا يعطي فكرة بأن قانون البدء والاعادة قانـــون شامل ليس فقط هو قانون الآخرة وان نبعث من جديد ولكن هذا قانون الدنيا أيضا ، ان كل شيء فى الدنيا على ناموس البدء والاعادة .

ومن هنا كان الاسم الالهي المبدىء والمعيد فهو اسم يعمـــل فى الدنيا والاخرة ، ومن هنا كان كل شيء ايقاع دورات يعطـــي التوازن والحكمة والنظام فى الوجود كله .

مولاى صاحب الجلالة ـــ القرآن كتاب متجدد العطاء وله فى كل عصر جديد يبوح به الى من يحاول ان يستنبط ويجتهد فى الاستنباط وفى الواقع من هنا كان واجب الاجتهاد مهم جدا لا شك ان السلف ترك لنا تراثنا عظيما ويجب أن نتأمل هذا التراث ونعيه ونستوعبه وننطلق

منه ولكن يجب ان نجتهد ونضيف ، لان العصر يأتي بمعارف جديدة ممكن ان تفتح لنا ابوابا جديدة فى فهم معاني القرءان ؟ واذا أخطأ المجتهد فلن يضر ولكن اذا انعدم الاجتهاد وتوقف فان القرآن يضار لماذا ؟ لانه يتجمد ثم يكف عن التفاعل مع العصر لان حيوية القرآن ترجع دائما الى تفاعله مع العصر اما العزلة والتجمد يؤديان الى الذبول ، فمن هنا كان عدم الاجتهاد يؤدي الى عزلة القرآن والى فجوة هائلة بين الشباب وبين الدين ، بين العصر وبين الدين ، وبين مساحات الاحداث، بين القرآن ، وبين الفعل ومن هنا كان واجب الاجتهاد ضروريا ؟ البعض يعترض بأننا اذا حاولنا تفسير القرآن بالعلم فمعنى ذلك ان نجر يقين القرآن الى ظنيات العلم لان العلم مليء بالظنيات والتخمينات والفروض؟ وردنا على ذلك أن العلم ليس كله ظنيات وفروض وتخمينات ، العلم فيه المسائل الظنية وهي فروض ولكن فيه ايضا المسائل الاكيدة المتيقنة مثلا حقيقة الارض علمية ؟ بصمات الاصابع حقيقة ما المحنا اليه من تصارع الاضداد هي حقيقة علمية مشهودة ملموسة محسوسة ينطق بها التاريخ ولكن الخطأ عند الفلاسفة الذين أخرجوا من هذه الحقيقة تخريجات خاطئة ؟ اما حقيقة تصارع الاضداد هي حقيقة علمية ؟ فالعلم فيه ظنيات وفيه حقائق ، فلطالما اننا نحاول فهم القرآن من خلال حقائق العلم فنحن نفيد ولا نضر ثم ان القرآن فى الحقيقة موسوعة ؟ القرآن ليس مجرد شرائع وأحكام وعبادات ، ولكنه كتاب تناول جميع مناحى الحياة ثم فيه كثير من الآيات الكونية والفلك ونمو الجنين ، آيات فى الاخلاق ، وآيات فى السياسة ، وآيات فى الحكم ، وهنا أرى ان هؤلاء العلماء مندوبون فى هذه الفروع الى الجلوس على مائدة القرآن مع فقهاء القرآن ويجب ان يستمع اليهم لتفهم هذه الآيات الكونية ، فهذا يضيف الى القرآن ؟ وكما قلت خطأ المجتهد لا يضر القرآن أبدا فاذا اخطأ مجتهد فلن يضر القرآن ولكن اذا انعدم الاجتهاد فان هذا أمر ضار تماما لانه يؤدي الى العزلة فتصبح لغة القرآن لغة متحفية ومجهولة بعيدة عن الشباب انما الاجتهاد ثم معاونة الفهم يعطيان للقرآن نضارته الحقيقية لان القرآن كتاب نضر هو كتاب لا تنتهي طراوته هو كتاب فى كل عصر يفضي بأسرار ولكن لا بد من الاجتهاد ؟ نرى ان القرآن صريح فى هذا :

« أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » وهو أمر لكل قارىء قرآن، والقرآن ليس فيه كهنوت وديننا ليس فيه كهنوت وكل عارف وكل عالم مندوب الى محاولة الفهم والتدبر ؟ والتدبر كلمة شاملة تشتمـــل على التفسير والفهم وادراك مجاري الابداع ومجاري المجال الادبي ، كل هذا وارد فى مسألة التدبر .

مسألة أخرى هي خطأ وقع فيه المسلمون لانهم تقوقعوا على انفسهم ثم اكتفوا بالدفاع فهم يشتكون من الغزو الفكري ، كل واجبهـم انهـم يحاولون ان يردوا على هذا الغزو الفكري بدفاع عن القرآن وعن الاسلام؟ وانا أسأل لماذا لا يكون لنا نحن غزو فكري ايضا ؟ لماذا نقبع فى أماكننا ونكتفي بالدفاع ؟ لماذا لا يكون لنا غزو فكري ؟ والغزو الفكري لا يحتاج الى سلاح ولا الى قنابل وصواريخ ؟ فهو يحتاج الى طبع ونشر وترجمة ومناقشة وندوات واشعاع ثقافي وعمل وهو اجتهاد فى القـــرآن وفى فهمه لماذا لا يكون لنا غزو فكري ؟ هذه النقطة ، فأنا اقترح مثلا وجود مساجد فى اوربا فى باريز أو غيرها ؟ لماذا لا تكون مراكز فى اوربا تقوم بالطبع ونشر وتوزيع وترجمة الجديد فى مسائل الدعوة الاسلامية ولماذا لا يتبنى طليعة جديدة من الذين يتقنون لغة العصر واسلوبـــه ، يحمل على عاتقه رسالة الدعوة فى هذه البلاد الاجنبية ؟ هل عندنـــا جديد نقوله ، او ليس عندنا ؟ انا أعتقد ان فى القرآن جديدا يقوله وان فى القرآن شيئا مهما جدا يجب ان يستمع اليه هؤلاء الاجانب والغربيون او الشرقيون وكل من اصحاب الملل والمذاهب لكن الخطأ حاصل فى اسلوب العرض ، فى اللغة ، فى قدرة التوصيل ، الخطأ هو خطأ الدعاة أنفسهم وليس خطأ القرآن ، ومن هنا أنا الفت النظر الى ان يكون هناك اهتمام بناحية التبليغ وان لا يكون مجرد تبليغ آلي ولا يمكن ان نكتفـــي بترجمة القرآن فالتبليغ لا بد ان يكون كتيبة كاملة وتنشـــر وتترجـــم وتؤلف وتنقل وجهات النظر الجديدة العصرية الى هؤلاء الناس لان فى الواقع اوربا لو لاحظنا لوجدناها متقدمة تكنولوجيا ولكنهـــا تعيش فى جهالة من ناحية الروح يعني عصرها يكاد يكون جاهليا من ناحية الاخلاق والروح والانسانية والعلم بالله وبالغيب وكل هذه مسائل جديدة تماما يمكن ان نقدمها الى الغرب بأسلوب الغرب وبعبارته .

والقرآن يقول : « وقل ربي زدني علما » فهناك أمر بأن نحاول ان نزداد فى العلم دائما ونحن ندعو الله بأن يزيدنا علما ، الهي زدنا علما ، الهي يا من أصلحت الصالحين أصلحنا وأصلح بنا ، واهدنا واهد بنا ، الهي ان سيئاتنا وان كثرت لن تضرك ، وطاعتنا وان كثرت لن تنفعك فأنت الغني المستغني ونحن الفقراء المحتاجون والضعفاء فاغفر لنا وارحمنا فأنت اهل التقوى واهل المغفرة ، الهي أخرجنا من ظلمة نفوسنا الى نور حضرتك ، ومن سجن بشريتنا الى سعة عفوك ، ومن حجاب انانيتنا الى تمام معرفتك ، الهي وتفضل على عبدك جلالة الملك الحسن الثاني فألهمه الخير والسداد ، واهده اليك صراطا مستقيما وبارك له فى أهله وشعبه واجعل له اليد العليا على اعدائه واعداء الاسلام ، وانصر به الدين وايد به الحق واجمع به الفرق ووحد به الشمل ، انك على كل شيء قدير ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الدرسُ العَاشر

23 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

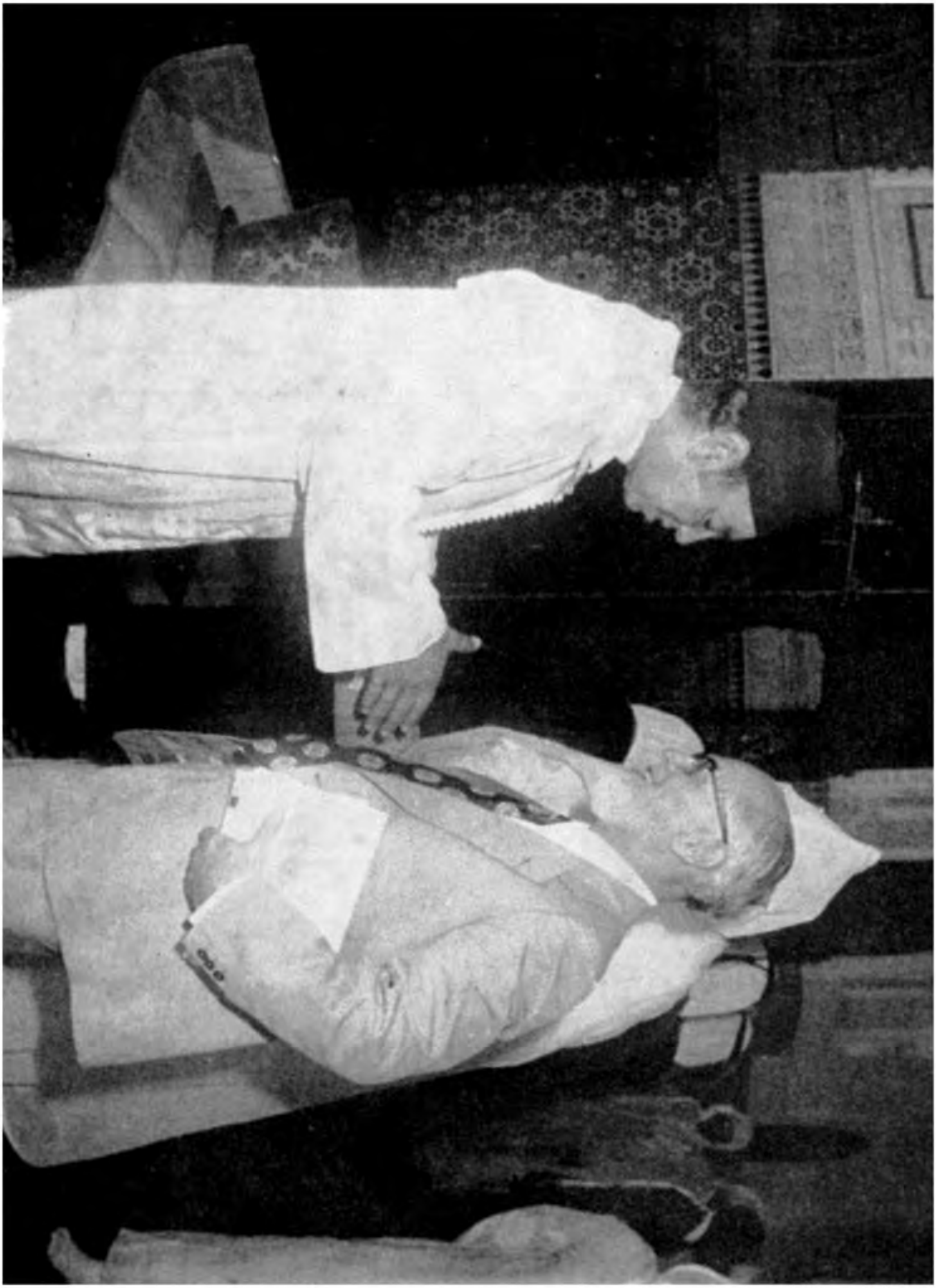
القِسطُ في القرآن

" قل أمرَ ربّي بالقِسط ، وأقيموا وجُوهكم عند كلّ مسجد .. "

ألقاه :

الأستاذ العلامة محمد المبارك

المستشار بجامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية



بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي جمعنا فى شهر أعظم الذكريات ذكرى القرآن وذكرى نصر الاسلام فى بدر ، الحمد لله الذي جمعنا على عبادته والعبودية له ، والصلاة والسلام على من جعله الله الانسان المثالي الكامل عابدا ومعلما وقائدا واماما صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه .

وبعد .. فان عقد هذه الندوة العظيمة فى شهر رمضان تعظيم لشعائر الاسلام واشادة بعقيدة الامة ونظامها وتشريعها وهي مأثرة عظيمة لهذه الاسرة الشريفة العلوية وان فى رعايتها وتوسيع نظامها لمأثرة لامير المؤمنين أيده الله تذكر له وتسجل فى صفحات تاريخ الاسلام الحديث فجزى الله أمير المؤمنين الحسن الثاني عن ذلك أعظم الجزاء وأمده بقوة من عنده فى حمل لواء هذه الرسالة السامية ، رسالة الاسلام وجعل عمله خالصا فى سبيله ، أمام التكتلات العقائدية الماثلة فى عالمنا اليوم والتي أخفقت حضارتها فى الجانب الانساني والروحي والخلقي بالرغم من انجازاتها المادية أمام هذه التكتلات لا بد من قيام الاسلام كنظام عقائدي لاسعاد العالم أجمع وانقاذه من دمار المادية ..

فنظرية العالم الثالث نظرية منهارة لانها تجمع شعوبا لا رابطة بينها ولا انسجام ، ونظرية الدول غير المنحازة موقف مؤقت موقف عارض معرض لاستغلال الدول الكبرى . أما الاسلام فهو وحده يستطيع ان يقيم لمنجزات الحضارة المادية من الايمان قاعدة صلبة ومن مبادئه

الاخلاقية والتشريعية نظاما ضابطا وموجها ، ومن العالم الاسلامي صعيدا بشريا وقاعدة يقوم عليها ، من أجل هذا الهدف لا بد ان يقوم علماء الاسلام والمفكرون المسلمون بصياغة ما تضمنه الكتاب والسنة من الحقائق والاحكام صياغة تنظر الى مشكلات العصر الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية دون أن تخرج به عن ذاتيته فى مقاييسه ومعالجته .

من هذا المنطلق أقدم بين يديكم جانبا من هذه الجوانب التي اعرض فيها مبدأ أساسيا من مبادىء الاسلام وفكرة جوهرية من أفكاره بقدر ما يسمح به الوقت ، وهذه الفكرة هي فكرة القسط فى القرآن الكريم .

وخلاصة الموضوع ان المعنى المشهور الشائع فى القسط فى كتب اللغة والتفسير هو العدل ، وانه اذا تتبعنا معاني القسط فى القرآن الكريم يتبين انها فكرة أوسع وأشمل من فكرة العدل وان القرآن الكريم يعبر بها عن قيام الكون كله على التوازن بين الاجزاء والقوى ، وعما يطلبه فى شرعته اخلاقا وتشريعا من العدالة وحسن التوزيع والتوازن فى داخل الفرد فى المجتمع وهي نفسها كذلك عدالة موازين الحساب فى الاخرة وبذلك تتكامل من القسط نظرة كاملة ، ولا أقول نظرية ، لان النظرية للبشر ، نظرية كاملة فى الوجود يمكن ان ننطلق منها لنصوغ من الاسلام نظاما عقائديا لتكتل الشعوب الاسلامية فى عصرنا الحاضر .

قال تعالى فى سورة الاعراف « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » الى آخر هذه الآيات .

تضمنت هذه الآيات بعد مقدمتها والتي تصلح ان تكون عنوانا لها وهي : « قل أمر ربي بالقسط » تضمنت دعوة الى جوانب متعددة من الحياة ، دعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له . واقيموا وجوهكم عند كل مسجد مخلصين له الدين ، أي الطاعة والخضوع وتضمنت ايضا فى تتمة الآية : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » تضمنت اتخاذ

الزينة في كل مكان يصلح للصلاة أو في الصلاة نفسها كما ورد في أحاديث ، وهذه الآية وان كانت نزلت بسبب معين وهو أن العرب المشركين كانوا يطوفون بالبيت عرايا ، فنزلت هذه الآية باتخاذ اللباس واللباس اطلق عليه القرآن « الزينة » ان هذه الآية نزلت في هذا ، ومقدمة الآية تشير الى ذلك ، ما قبل الآية « واذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها،قل:ان الله لا يامر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون » هذه الآية في موضوع الفحش والفاحشة فسرها المفسرون بأنها خروجهم وطوافهم بالتعري فنزلت آية اتخاذ الزينة ثم جاء الجزء الثالث وهو قوله تعالى في تتمة الآية : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » فان الآية تقول : عليك أيها الانسان بالتوازن في حياتك ، فاعط جانب العبادة والتوجه الى الله حقه ، واعط الزينة حقها، واعط جسمك حقه من الطعام والشراب من غير اسراف فذلك هو القسط ، وما سوى ذلك فهو التجاوز ، والفاحشة هو كل ما فيه تجاوز. تقول : ربح فاحش وغلاء فاحش وشيء فاحش بمعنى التجاوز والافراط، ولذلك نجد أن نقيض القسط في القرآن الكريم استعملت له الفاظ عديدة كالجور والطغيان والظلم والبغي والعدوان والاسراف والاثم ، وكل هذا تجاوز ، وما كان عدلا سواها فهو القسط ، وما كان متوازنا فهو القسط أيضا ، فالكفر مثلا ظلم والشرك ظلم ــ والكافرون هم الظالمون ــ «ان الشرك لظلم عظيم» وايثار الدنيا على الآخرة طغيان « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا » واستعلاء الغني لغناه بغي « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم » والآثم ظالم نفسه .

انطلاقا مما توحيه هذه الآيات التي وردت في سورة الاعراف ، يمكن أن ننتقل الى مجال آخر في القسط ، القسط في الكون : اذا انتقلنا الى الكون اى الى السموات والارض او ما يطلق عليه في عصرنا الحاضر الطبيعة نجد كذلك أن آيات القرآن الكريم تجري على هذا النسق نفسه فالله كذلك أقام الكون بالقسط اى اقامه على التوازن والتوزيع العادل المتوازن فصدع الكون بأمر الله ، أمر النجوم فتماسكت وتوازنت وتجاذبت ، قال تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لو تعلمون سر تجاذبها وقانون حفظها لعرفتم عظمة هذا

القسم ، أمر الشمس والقمر فجريا بانتظام دون اختـــلال « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » وقال تعالى : « الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها وضع الميزان » اى ان الله خلق السماوات والارض بالحق والعدل ، قال عليه الصلاة والسلام (بالعـــدل قامـــت السماوات والارض) والعدل هنا ليس بمعنى الحكـــم فى المنازعـــات والخصومات وانما معناه أن الله سبحانه بنى أمر السماوات والارض وما فيها على التوازن والانتظام واعطاء كل شيء ما يستقيم به أمره ويستقر به نظامه . امر الارض فتوازنت ولم تضطرب ـ « والقـــى فى الارض رواسي ان تميد بكم » اى لئلا تضطرب ونفى الاضطراب هنا ليس معناه نفى الحركة فالمتحرك قد يتوازن ولا يضطرب وهذا ادعى للاعجاز لحسن توزيع الجبال على سطحها كما تتوازن السفينة التي تتوازن الاحمال فيها وتتصل فكرة التوازن او قيام السماوات والارض بالقسط اتصالا مباشرا بفكر مبثوثة فى الكتاب العزيز وهي فكرة المقادير او الكميات كما يعبر عنها علماؤنا فى العصر العباسي ، وقد عبر عنها القرآن بألفاظ متعددة اكثرها مشتق من لفظ قدر واليكم الآيات الدالة عليها : « الله يعلـــم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار » فسياق الآية سياق الزيادة والنقصان ولذلك كان معنى المقدار هنا معنى الاعداد ، والمقدار استعمل صراحة بمعنى الكمية فى القرآن وذلك فى قوله تعالى : « فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة » فالمقدار هـــو بمعنى الكمية المعروفة اليوم ، وكذلك فى قوله تعالى : « وأنزلنـــا من السماء ماء بقدر » اى بمقدار محدد ، وقوله تعالى : « وان من شـــيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » وقوله تعالى : « نـــزل من السماء ماء بقدر » وقوله تعالى « فجعلناه فى قـــرار مكين الى قـــدر معلوم » اى الى مدة معينة : كما قال ابن كثير فى تفسيره وكذلك فعل قدر بمعنى ترتيب الاشياء على مقادير وكميات كقوله تعالى : « والقمـــر قدرناه منازل » وقوله تعالى : « وقدر فيها اقواتها » اى قسمها وجعلها على مقادير محسوبة وموزعة . وقوله تعالى : « يقدر الليل والنهـــار »

مرتبطان بحساب المقادير بنص القرآن : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » . والتقدير في قوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » . يفسره قوله تعالى « الشمس والقمر بحسبان » فالتقدير هنا اذن هو الحساب ، قال ابن كثير في تفسيره اي يجريان متعاقبين لحساب متقن لا يختلف ولا يضطرب « وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » . واذا رجعنا الى اللغة ومعاجمها وجدنا ما يقوله ابن منظور في لسان العرب : وقدر أي الشيء بالشيء يقدر ويقدره وقدره اي قاسه .

وقدرت لامر كذا أقدر له واقدر قدرا اذا نظرت فيه ودبرته وقايسته وقدرت عليه الثوب قدرا فانقدر اي جاء على المقدار وقدر القوم أمرهم دبروه وقدر كل شيء مقداره ومبلغه ، « ثم جئت على قدر يا موسى » اي على موعد فمقدار كل شيء مقياسه القدري والتقديري فيكون معنى الآيات السابقة ان الله تعالى خلق المخلوقات وصرف امرها وفقا لخطة مدبرة لمقادير مدبرة وكميات محسوبة فسار على التوازن والقسط ، والقرآن صريح في اعلان مبدأ ان الكون مبني وقائم على الكميات في عدد من الآيات كقوله تعالى : « وكل شيء عنده بمقدار» وقوله : « انا كل شيء خلقناه بقدر » وقوله : « قد جعل الله لكل شيء قدرا » . وقال ابن كثير في هاتين الآيتين انهما بمعنى وكل شيء عنده بمقدار ، وقوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ، وكذلك في الحديث الوارد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السماوات والارض » وهذا يشير اليه كما في قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها » بل ان الله تعالى يوصف نفسه في محكم القرآن بأنه اسرع الحاسبين ، وقال عن نفسه تعالى : « وكفى بنا حاسبين » وترددت في القرآن الكريم كلمة الحساب والحسبان والاحصاء والعد ، « وكل شيء أحصيناه في امام مبين » « احصاهم وعدهم عدا » ، قد يكون هذا المفهوم للقدر بمعنى التصميم المبني على سنن محسوبة وقوانين مقدرة اقرب لفهم هذا

العصر لسبب اكتشاف حقائق الكون للكمياء والفيزياء والفلك وسائر العلوم واكتشاف القوانين تلك القوانين المصوغة حاليا فى صورة قوانين رياضية وارقام حسابية تسير باضطراد وانتظام « ما ترى فى خلق الرحمان من تفاوت » « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ويكون معنى القدر بكل بساطة هذه الخطة التي وضعها الله تعالى للمخلوقات والحوادث قبل ان يخلقها فى كتاب ما فرط فيه من شيء وهذه الآية « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » انما يقصد بها ليس القرآن الكريم كما يفهم كثير من الناس وانما يفهم منها كما أورده الطبري ولم يورد غيره ذلك الكتاب الذي سجل فيه الله سبحانه وتعالى كل ما سيكون من أعمال الخلق والبشر وهو الكتاب الذي أشار اليه كذلك سبحانه فى قوله تعالى : « ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » ، تلك اذن معنى القدر هو هذه الخطة التي وضعها الله للمخلوقات والحوادث قبل ان يخلقها وتلك السنة التي رتب أجزاء الحوادث عليها ثم وجهها اليها وهداها الى السير فيها « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » ويكون القضاء حينئذ هو وفقا لذلك التصميم « اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون » « فقضا هن سبع سماوات » ذلك هو معنى القسط بالنسبة الى الكون الى ملكوت السماوات والارض هو قيامه بالتوازن والانتظام وبهذه الفكرة للمقادير والكميات والقسط والتوازن فى الكون فتح الاسلام آفاق التفكير والبحث العلمي ولا يكمل هذا القسط ولا يكون توازنا معقولا ان لم تكمله فكرة من اقام هذا القسط ومن ابدع هذا التوازن ؟ ان الذي ابدعه هو الله فاطر السموات والارض هو بديعها ومبدعها والمبدع لنظامها وخططها وسننها من غير سابق مثال . ولذلك كان من العدل والقسط الايمان بوجود الله تعالى وكان من اعظم الظلم والجور الكفر به والكافرون هم الظالمون ، وكان الشرك ظلما « ان الشرك لظلم عظيم » لانه ظلم لاكبر حقيقة « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » ولذلك فان الاسلام كما يحارب الظلم بأنواعه ويحاول ازالته يحاول كذلك محو الشرك والالحاد وازالته وهو اشد انواع الظلم واعظمها خطرا على الانسانية فكما لا يسمح الاسلام بحرية الاجرام والخيانة لا

يسمح بحرية الالحاد ، وأقول بهذه المناسبة ان رائد الفضاء الامريكي (امسترونغ) قال فى نهاية محاضرة ألقاها فى قطر حين دعى الى هناك لالقاء هذه المحاضرات انه استقال بعد عودته من الفضاء ليتفرغ الى الدعوة الى الايمان بالله وحينما سئل هل اختلف ايمانه هذا عن ايمانه المسيحي السابق ، قال انه عاد الان الى الارض ليدعو الى الايمان باله واحد ، ولا شك ان الالحاد اصبح لدى طليعة العلماء المفكرين الباحثين اليوم فكرة متخلفة لا قيمة لها وهي من أفكار عصر نشوة الظفر العلمي فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما قال المفكر الانجليزي « الدوس هكسلي » فى كتابه « الوسائل والغايات » المترجم الى الفرنسية ان انقياد الكون الذي اقامه الله عليه انقياد آلي لا خيار له فيه خلافا للانسان والى هذا تشير الآيات الكريمة : « ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الارض » وسجودها انقياد لسنن الله ـ « له ما فى السماوات والارض كل له قانتون » طائعون « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين » واما انقياد الانسان للقسط الذي امره به فهو انقياد ترك له فيه الخيار والحرية وذلك من شأن الله سبحانه ولا يسأل عما يفعل ولذلك جاءت الآية الكريمة مشيرة الى النوعين مشيرة الى الانقياد الآلي من سنن الكون والى انقياد الانسان بالاختيار ، قال تعالى : « الم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب» ؟ !! . اما السماوات والارض والجبال وما اليها فلم يستثن فيها ، واما حينما جاء الى البشر فقال وكثير ، وكثير ذلك هو القسط بالنسبة الى الكون . اما القسط بالنسبة الى الانسان فان القيام بالقسط هو يا مولاي التعبير القرآني لبناء حياة الانسان فردا وجماعة على التوازن وهو هدف النبوآت بتصريح القرآن : « لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» اى لحماية ذلك القسط والحق ، وهو جوهر قواعد السلوك من الاخلاق وأحكام التشريع جميعا وهو المطلوب من المؤمنين « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » .

لقد تضمن الاسلام وهو الرسالة الخاتمة للرسالات والمتفردة بعمومها للبشر كافة دون سائر الاديان المنزلة فليست ثمة دين عام للبشر اطلاقا غير الاسلام لان الاديان السابقة كالمسيحية والنصرانية جاءت لاقوام معينين ، فالنصرانية جاءت لبني اسرائيل وكذلك اليهودية، كما ورد فى القرآن : « واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل انـي رسول الله اليكم » وكما ورد فى الانجيل المزعوم الباقي حتى اليوم الانجيل قد يكون بعضه من الاصل باقيا (لم ارسل الا الى خراف اسرائيل الضالة) تضمن هذا الاسلام الذي هو خاتمة الرسالات والنبوآت المعالم الاساسية الثابتة للقسط فى الحياة وفسح مجال الاجتهاد البشري للجوانب المتغيرة المتحولة فى حياة الفرد والمجتمع ، تضمن قواعد القسط فى حياة الفرد وسلوكه لتكون حياة مثالية فى جميع جوانبها المادية كالطعام والشراب وسائر الغرائز النفسية والخلقية والروحية الخالصة (ان لنفسك عليك حقا وان لاهلك عليك حقا وان لزوجك عليك حقا فاعط كل ذي حق حقه) ، (خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ولم يترك آخرته لدنياه) .

وتضمن الاسلام كذلك فى القرآن والسنة قواعد القسط فى جميع المجالات الاجتماعية وهي قواعد اشمل من العدل وأوسع أفقا وليس العدل المالي والاقتصادي الا جزءا منها وهذا فرق كبير بين الاسلام وغيره من المذاهب التي تدعي العدالة فكل عدالتها محصورة بتأمين العدالة المزعومة بين طبقتين واما عدالة الاسلام فتبتدىء من الكون وتنتهي فى الآخرة . وذلك فى مجال الاسرة وبنائها وتوزيع الاختصاص والوظائف بين الرجل والمرأة على أساس التوازن والتكامل والتخصص المبني على اختلاف الاستعداد والوظيفة لا على اساس الاستعلاء والاضطهاد ولا على اساس المساواة المطلقة التي هي صفة من صفات الاشياء الابتدائية والمخلوقات الابتدائية والتي لا تراعى فيها التخصصات والاستعدادات وكذلك فى مجال العلاقات بين الافراد لينال كل فرد بالنسبة الى الآخر دون طغيان فقد حمى الاسلام بتشريعه الفرد من الظلم والبغي والاعتداء على نفسه وعرضه وما له بنظام محدد للحدود والتعازير وكذلك أقام الاسلام القسط فى تشريعه فى مجال العلاقة بين

الفرد والجماعة ، فلا طغيان للجماعة على الفرد ، ولا للفرد على الجماعة، بل أقام بينهما نظاما مبنيا على التكامل والتوازن يمثله حديث السفينة المشهور : « ان قوما ركبوا سفينة فاستهموا فكان بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى اسفلها فأراد الذين فى اسفلها ان يخرقوا فى موضعهم خرقا وقالوا : هذا موضعنا نعمل فيه ما شئنا ، فان اخذوا على يد الذي يفعل هذا نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا » فهذا الحديث يحدد ما بين الفرد والجماعة .

يتمثل كذلك القسط فى النظام المالي والاقتصادي فى مفهوم الاسلام للملكية التي هي فى الاصل لله واستخلف فيها بني آدم واعطى المجتهد نصيبه منها ، وان كان لم يعطه كل كسبه ــ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » قال نصيب لان لله حق فى هذا الكسب لانه هو الذي اعطاه رأس ماله من القوة من الطبيعة ولان المجتمع اى عباد الله لهم حق كذلك فى هذا المال من الزكاة وغير الزكاة ، وكذلك فى مفهومه للعمل فبنى الاسلام الملكية والعمل على التعاون والتكافل لا على الصراع والتنازع فى نظرة متوازنة ليست هي الفردية المطلقة المؤدية الى طغيان افراد او طبقة وليست هي الجماعة تطغى على الفرد وتسحقه ، فللفرد حق الكسب وعليه حق للجماعة ، وللجماعة حق فى مال الفرد وعليها ان تكفله وتتدخل الدولة حين اختلال التوازن تلك هي خلاصة النظام الاقتصادي فى الاسلام وتتمثل قواعد القسط فى الاسلام فى مجال الحكم فى تحديد الحقوق والواجبات لكل من الراعي والرعية وتلخصها آية الحكم فى سورة النساء : « ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » وهذا تحديد اواجبات الراعي اجمالا ، اداء الامانات سواء أكانت أموالا أم حقوقا الى مستحقيها ، الامانة تشمل الوظائف واسناد الوظائف على حد التعبير النبوي ، قال لابي ذر حينما طلب منه الولاية : (يا أبا ذر انها امانة وانك ضعيف وانها أمانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة الا من أخذها بحقها وأعطى الذي هو له فيها) ، وهذه شهادة من الرسول عليه الصلاة والسلام فى أن أبا ذر على ماله من فضل عظيم لا يصلح للولاية ولهذا

تتهافت حجة من يريد ان يحتج لابي ذر بوانه امام الاشتراكيــــة وهــــذه شهادة من الرسول عليه الصلاة والسلام فى ان أبا ذر لا يحسن الادارة السياسية والمالية فسقطت كل الحجج التي كتبت فى هذا الموضوع . والامانة بهذا المعنى وردت فى حديث آخر ، قال عليه الصلاة والسلام : ان القيامة تقوم اذا ضيعت الامانة . قالوا وكيف تضيع يا رسول الله ؟ قال : اذا أسند الامر الى غير أهله . فهذا تضييع للامانة . وتتم الآيــة هذه الحقوق والواجبات « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » . هذا تحديد لواجبات الرعية ــ الطاعة لاولي الامر فى حدود طاعة الله ورسوله .

والمبدأ الثالث فى النظام السياسي الذي يقيم القسط والتوازن هو التحكيم بين الراعي والرعيه . والتحكيم فى الاســـلام بين الراعـــي والرعية ليس لاحدهما وانما هو لله ــ « فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فلا مجلس النواب ولا قيادة الحزب ولا الحاكم والاستفتاء لا يحل حراما ولا يحـــرم حلالا فالحكم هو الشرع فى معالمه الثابتة ، لا يمكن مخالفتها من احد طرفي الحكم ذلك هو مفهوم القسط فى القرآن وهو نظام عام شامل نظام كوني اقام الله الكون على القسط ونظام تشريعي ، قسط فى الكـــون وتوازن وقسط فى الحياة البشرية وتشريع حياتهم ، وقسط فى الحياة الآخرة، أمر الله الكون بالقسط فقام الكون بالقسط وصدع بالامر وخضع ، وامر الله الانسان بالقسط ودله عليه وهداه اليه وحدد له معالمه وخلق لـــه ارادة تختار وكذلك يقيم الله أمر الآخرة على القسط (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) « وعندنا كتاب حفيظ وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » ان حضارة تبنى على الاسلام هي حضارة عدل وقسط وتوازن لاستيعابها وشمولها وتكاملها ، اعطت حق الله وحق الفرد وحق الجماعة وحق المادة وحق الروح وحق الدنيا وحق الآخرة . اما حضارة الغرب بكلا نوعيه الديمقراطي والاشتراكي فهيحضارة الجور والنقص والاضطراب والفوضى اعرضت عن الله وتنكرت لتعاليمه واقتصــرت على الحيـــاة الدنيا على المادة من لذة ومال وانتاج ونظرت الى الانسان من خلال هذه

القيم واقصت الاخلاق واهملت الروح امام هذا الموقف العالمي يجب ان يتحمل المسلمون شعوبا وحكومات مسؤوليتهم امام الله لينطلقوا الى اقامة معالم المجتمع الانساني الكامل المبني على القسط مزودين بجميع اسلحة العصر من علم وصناعة ومال ليخرجوا البشرية الحاضرة من حضارة الآلة والصناعة الى حضارة الانسان وليحرروا الانسان من عبادة ما صنعه لنفسه من اصنام جديدة ليصلوا بينه وبين الله ويبعثوا فيه عنصر « ونفخنا فيه من روحنا » وان المغرب فى موقعه المطل على حضارة الغرب بميراثه الاسلامي العريق وحكمه الاسلامي الذي استمر دون انقطاع تحت راية الاسلام حتى فى زمن الاستعمار وبعمق عواطفه الاسلامية مؤهل لدور عظيم فى اعادة بناء الاسلام يرعاه مليكه العظيم أمير المؤمنين الحسن الثاني فى حمل لواء الاسلام وراية القرآن ورسم الخطة لمراحلها المقدرة المقننة ليحتل الاسلام مواقعه فى العالم الاسلامي والغربي وفى العالم اجمع ، ليغزو من جديد لا غزو استعمار ولكن غزوا ربانيا لينشروا فى العالم الايمان بالله واليوم الآخر واقامة القسط والحق . ليقيم القسط فى مجال التربية والفكر والتشريع والاتصال وفى مجال السياسة الدولية على الصعيد العربي والاسلامي والعالمي .

سيدي أمير المؤمنين جزاك الله خيرا اذ فسحت المجال رحبا لكلمة الاسلام أن تقال وتعلم ، وقد حملك الله أمانة عظمى ومسؤولية كبرى . نسأل الله تعالى ان يعينك عليها ويشد أزرك ويسدد خطاك ويقيض لك على الخير أعوانا وينصر بك الاسلام والمسلمين ويرعى ولي عهدك بعنايته ليكون من حماة الاسلام وحملة الاسلام . اللهم أفض علينا من بركاتك وعمنا برحمتك وانصرنا فى معارك الاسلام فى فلسطين وفى صحراء المغرب الاسلامية وسائر أرضه المحتلة وفى كل ارض من ديار الاسلام لا لعودة التراب وحده ، بل لعودة الاسلام ورسالته وحضارته

اللهم انصرنا واغفر لنا وارحمنا والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على نبيك نبي الرحمة وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين .

الدرس الحادي عشر	24 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

الجهاد في الإسلام

"إن الله يدافع عن الذين آمنوا".. (الآية من سورة الحج).

صدق الله العظيم

ألقاه :

الشيخ كريم راجح

إمام جامع المنصور بدمشق



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله القدير ، والصلاة والسـلام على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم على الهدى القويم ، أللهم صل وبارك وعظم وكرم ، نسأل الله الصدق فى القـول والسداد فى الرأى والصواب فى العمل .

مولاي صاحب الجلالة أمير المؤمنين ، حفظك الله وأيدك وسـدد خطاك ، وأبقاك ذخرا للاسلام وحصنا للمسلمين اذا اذنتم لي ان أتحدث فى مجلسكم المديد فاني أشكركم على الاذن السامي وأسأل الله عز وجل ان يجزل ثوابكم فى النخبة المصطفين الاخيار من عباد الله الاخيار .

مولاي صاحب الجلالة ، اتيت اليكم من دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية ، أحمل الى جلالتكم تحية الصدق والاخلاص فواحـة بأريج الحب معطرة بشذا الوفاء مشرقة بنور السماء ممسكة بميثـاق الاخاء الذي عقده الله بين المؤمنين اذ قال : « انما المؤمنون اخـوة » أتيت اليكم من دمشق البلد الحر الابي المؤمن المجاهـد الواقف على خط النار فى مواجهة عدو عنيد من ورائه قوى جبار ، تملك من اسباب القوة العسكرية والمالية ما تحسب به ان العالم ملك يمينها تصرفـه حسب مطامحها واهوائها ، اما نحن فعلى الله متوكلـون ومن قـواه مستمدون ، وبقوله واثقون ، والله من ورائهم محيط .

اتيت اليكم من دمشق احمل اليكم تحية اخيكم ، رئيس الجمهورية العربية السورية الرئيس حافظ الاسد ، وتحية شعبه العربي السوري

الذي لا ينسى يدا بيضاء اوليتموه اياها فى معاركه مع العدو الصهيوني حينما وصلتم غرب العالم الاسلامي بشرقه وأرسلتم قواتكم الى مرتفعات الجولان فى سبيل الدفاع عن الحق لانكم تعتقدون ان المسلمين فى مشارق الارض وفى مغاربها جسم واحد آخذين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ، وبقوله صلوات الله عليه : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فشددت الازر وقويت الاسر ، وجاهدت فى الله حق جهاده فجزاك الله عن الاسلام وعن المسلمين خيرا ، ولقد سمعت بأذني كيف كان الشعب فى سوريا وفى رمضان المبارك اثناء القتال سنة 1393 يتحدث عن بسالة رجالكم وشجاعة قواتكم بكل فخر واعزاز وتقدير واحترام .

مولاي صاحب الجلالة ، لك فى سوريا فى كل قلب ذكرى ، وعلى كل شفة ذكر ، وفى كل صدر توقير وتبجيل ، فأنت الملك المسلم العالم المجاهد ، اسمك الحسن كله والنجدة كلها ، ونرجو ان نقابلكم وفاء بوفاء وأخاء باخاء فانما نحن وانتم اخوة فى العقيدة والدين ، والكفاح والجهاد ، عدونا واحد ولكنه كمردة الجن قادر على ان يظهر بأشكال مختلفة ، وقديما قال فقهاؤنا المسلمون : « الكفر ملة واحدة »

مولاي صاحب الجلالة ، انتم هنا وفى مواجهة العدو فى الصحراء المغربية ونحن فى دمشق ، وفى مواجهة العدو فى الجولان ، يشد عزمنا وعزمكم قول ربنا تعالى : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون » .

مولاي صاحب الجلالة ، اتقدم الى جلالتكم بوافر الشكر على هذه الدعوة التي شرفتموني بها ، فرأيت بلادكم الحبيبة الجميلة وشعبكم المسلم الصادق ومن الله علي فحضرت هذا المجلس المديد الذي خص الله به هذه الدوحة العلوية المباركة وشرفه بحضور شخصكم الكريم فيه تكريما للعلم والعلماء وتعظيما للاسلام والمسلمين ولا شك انه قرة عين جدكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعث مسرته ورضاه ومنطلق اسارير ه الشريفة فى محياه الكريم لانه قبس من نور

ما نزل الله عز وجل عليه ، وهداية من لطفه الذي هو وحي الله اليه ، أسأل الله ان يجعل عزتكم من عزته وقوتكم من قوته ، وان يجعل لكم ما جعل لابيكم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لسان صدق فى الاخرين .

من وحي الصحراء ، ومن وحي فلسطين الحبيبة ، اقتبست عنوان حديثي اليوم « الجهاد فى سبيل الله » منطلقا من قوله تعالى : « أن الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور ، اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » واحب ان أفتتح حديثي ببيتين للامام البوصيري رحمه الله تعالى اذ يقول :

بشرى لنا معشر الاسلام ان لنـــا من العناية ركنا غيــر منهــدم

لما دعـا الله داعينـا لطاعتـــه بأكرم الرسل كنا أكـرم الامـــم

وهذا الكلام مستوحى من قول الله سبحانه وتعالى : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتـــاب والحكمـــة » .

مولاي صاحب الجلالة ، امتنا هذه امة عظيمة جعلها الله خير أمة اخرجت للناس طبقا لقوله جل جلاله : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، اختارهـــا الله تعالى لحمل رسالة الاسلام والدين الذي يبقى أبد الآباد الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، فجعل فيها قوى عجيبة ، وجعل فيها طاقات لا تكاد تنفذ ، ولكن هذه الامة كانت ضيعت تلك الطاقات بالخلافات القبليـــة ، بالخلاف على أشياء لا تمت الى الواقعية الحقيقية العقلية بصلة ، فلما أراد الله تعالى لهذه الامة خيرا ارسل محمدا ببطحاء مكـــة ، صلى الله عليه وسلم ، وانزل عليه قرآنا لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فتفاعلت امتنا مع المبادىء السماوية التي اختارها الله تعالى لتكـــون خاتمة الاديان كلها واذا بأمتنا بهذه المبادىء تاتي بالعجـــب العجـــاب وتفعل المعجزات ولا تعرف الدنيا ولا تاريخها ان امة من الامم فى مدى خمس وعشرين سنة من فتوحاتها استطاعت ان تجعل العالم كلــه يدور

فى فلكها فتحت ورسخت ، والاسلام دخل القلوب فما كان ليخرج منها والعالم الاسلامي كله ما زال بحول الله مسلما ، تلك هي معجزة الاسلام، لم يكن فتحا يراد به ان يستولي القوي على الضعيف انما كان فتحا يراد به ان ينقذ الضعيف ، يد الله امتدت لهذه الامة ، فأنقذت الضعيف وضربت على يد الظالم ففتح الناس فى العالم كله قلوبهم لهذا الاسلام ، واذا بالناس يدخلون فى دين الله افواجا افواجا ، اما والله لولا هذا القرآن ولولا هذا الاسلام ، لظلت هذه الامة مغلقة على نفسها منطوية فى ارضها فى جزيرتها وصحرائها ، لا تستطيع ان تنفذ على العالم ، فى حضارة ،ولا فى قوة ولكنه الاسلام ، وهذه الطاقات التي صيرها الله على يد هذه الامة العظيمة ، وتحضرني هنا كلمة للامام الرافعي شيخ الادب فى العصر الحديث رحمه الله تعالى ، يقول فى اعجاز القرآن : وما ظنك لو اراد العرب ان يطأوا حصاة الارض قبل ان ينزل عليهم القرآن ، ماذا يكون حظهم من النصر ، يقول رحمه الله : فى رأيي حظهم من النصر حظ حصاة ضربت جبل ، ثم عادت ولها أنين ، ان يكون منها فهو لعمري استخذاء ، وان يكن من الجبل فهو لعمرك استهزاء . وما اعرف احدا لخص الفتوحات العربية بجمل مختصرة كما لخصها الامام الرافعي رحمه الله تعالى ، ومن هنا رأينا الاستعمار يريد ان يطفىء الجذوة النارية القوية فى نفوس شبابنا ، فى نفوس جيلنا لان المسلمين ما داموا متمسكين بمبادىء دينهم فان هؤلاء سيجتاحون العالم كل العالم ، أخذ الاستعمار يحاول بأشكال شتى وألوان متنوعة ان يقضي على هذه الجذوة العظيمة التي اشتعلت فى هذه الامة من اجل ان تعيد الحق الى نصابه ، غزانا من عدة وجوه ومن أهمها ان الاستشراق اخذ يهاجم الفكرة الحربية فى الاسلام ، ويرى ان الاسلام ، لو كان دينا قويما لما سن الحرب وكأنه يريد منا ان نقول : من ضربك على خدك الايمن فادر له خدك الايسر ، لا ، نحن المسلمين لا نعترف بهذا الكلام انما من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، لن يكون المسلمون رعاة لامة تريد ان تغزوهم ولامة تريد ان تحتل ارضهم ، لا ، لن نعترف نحن بهذا الكلام وهاجمنا الاستشراق ، وأخذ يتكلم ولكنه لم يجد عندنا سوقا نافقة والحمد لله ، بل كانت سوقهم كاسدة ، ويعجبني

كثيرا أمير الشعراء احمد شوقي اذ تناول هذا فى لاميته وفى همزيته ورد على اولئك المستشرقين يقول رحمه الله وهو الشاعر الاسلامي الذي خص رسول الله بكثير من شعره ومدائحه صلى الله عليه وسلم :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل واحلام وسفسفة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما اتى لك عفوا كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعمـــم

ثم قال رحمه الله :

والشر ان تلقاه بالخير ضقت ذرعا وان تلقاه بالشـــر ينحســــم

علمتهم كل شيء يجهلـون بــه حتى القتال وما فيه من الذمــم

مهما دعيت الى الهيجاء قمت لها ترمي بأسد ويرمي الله بالرجـم

والاسد هؤلاء هم الصحابة ، هم سعد ، هم ابو عبيدة ، هم خالد هم تلك الصفوة التي اختارها الله تعالى ، لتثبت دعائم الاسلام ، ولتقيم اركان الاسلام ، ولترفع جدران الاسلام ، ولتضرب القبة العظيمة على اركان الاسلام بالجهاد والظفر والنصر ، تكلم عن هؤلاء الاسد شارحا ما كانوا عليه ، الامام البوصيري يقول :

هم الاسود هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
ما ذا رأى منهم فى كـــل مصطــــــــدم

وسل حنينا وسل بدرا وســـل أحـــــدا
فصول حتف لهم أدهـــى من الوضــــــم

كأنهم فى ظهـور الخيـــل نبـــت ربــــي
من شدة الحزم لا مـــن شـــدة الحـــــزم

لله أبوه ، ما اجمل هذا القول وما أحلاه ؛ وشوقي لم يكتف بهـذا الكلام فقط ، بل تناوله ايضا فى هزيمته مما يدل على انه كان متألما كل التألم مما كان يزخرف فيه علماء الغرب ومستشرقوهم الحرب . نعم ، نحن نفتخر ، نحن رجال حرب ، نحن رجال شجاعة ، نحن رجال ميدان ، شبابنا ولا بد ان ياخذوا حقهم بسيوفهم وهم يقولون : سأمضي ، وهم يقولون : سأمضي الى الحرب ، سأغسل عنى العار بالسيف جالبا علي قضاء الله ما كان جالبا ، فنحن أمة حرب لا نخاف ، نفاخر بأننا لا نسكت على ضيم ولا ننام على هون ، وانما نريده كاملا هذا تاريخنـا من قبـل ، وسيكون تاريخنا اليوم وهذه أمتنا باذن الله ، والله الممد :

الحرب فى حق لديك شريعـة ... ومن السموم الناقعـات دواء

والحرب من شرف الشعـوب ... فان أبوا فالمجد مما يدعون بـراء

كم من غزاة للرسول كريمـة ... فيها رضى للحـق او اعـلاء

كانت لجند الله فيها شـدة ... فى اثرها للعالميـن رخـاء

ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها ... فعلى الجهالة والضلال عفـاء

دعموا على الحرب السلام وطالمـا حقن الدماء فى الزمان دمـاء

والله يقول : «ولكم فى القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون»

مولاي صاحب الجلالة ، والحرب فى الاسلام تسمى الجهـاد ، والجهاد انما هو بذل الجهد فى سبيل أمر يريد الانسان ان يحصل عليه، والجهاد فى الاسلام يعتمد على أمرين اثنين ؛ التركيز الداخلي، والتركيز فى ساحة المعركة ، والتركيز الداخلي هو السبب الذي يمكن المقاتلين ان ينتصروا به فى ساحة الحرب ، ولذلك رأينا رسـول الله صلى الله عليه وسلم يرمز للامرين معا وقد كان فى غزوة من غزواته فعاد ، فقال : رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، فالجهاد فى الداخل هو الشيء الهام ، ان نبني شبابنا على القوة وان ندربهم على حمل السلاح ،

وان تكون لدينا المواد الاولية ، وان نبني المصانع وان يكـون لدينـا الاكتفاء الذاتي ، وان تكون لدينا القدرة الاقتصادية كل ذلك فى اثنـاء الحرب يعتبر من الاعداد ، وشبابنا اذا تمرنت اجسامهم وتمرن على حمل السلاح ، استطاعوا ان يقاتلوا وهم واثقون من النصر ، والله سبحانـه وتعالى يامرنا بالاعداد ويحضنا عليه ، يقول جل جلاله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عـدو الله وعدوكـم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » . ولما كان الاعداد يحتـاج الى مال ، بين الله الآية بقوله : « وما تنفقوا من شيء يوف اليكم وانتم لا تظلمون » والنبي صلى الله عليه وسلم فسر الاعداد بالرمي ، فقال :

الا ان القوة الرمي ، هذه القوة التي امرنا الله ان نعدها وأعدوا لهم مـا استطعتم من قوة ، فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بالرمي ، الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي ، وكان رسول الله ينظر الى المستقبل ، وهذا ضرب من ضروب معجزاته التي ما ظهر فى حياتـه ، وكـم من معجزاته صلوات الله عليه ما ظهر بعد وفاته وسيمر الزمن ومعجـزات رسول الله لا تزال تظهر واحدة بعد واحدة اليوم فى حياتنا الحديثة ، المعارك العسكرية تتوقف على الرمي سواء كان من مسدس او من بندقية او من مدفع او من صاروخ ، لا بد من الرمي ، ولذلك صلوات الله عليه يقول : الا ان القوة الرمي ، ومن هنا رأيناه صلى الله عليه وسلم يقول : من تعلم الرمي ثم تركه فليس مني ، وفى رواية فقد عصى ، وخـرج صلى الله عليه وسلم فراى قوما من بني سلمة فقال : ارموا بني اسماعيل فان اباكم كان راميا ، وورد عنه صلى الله عليه وسلم قال : ان الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ؛ صانعه يحتسب به الخير والرامي بـه والممد به ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : فارموا واركبو وان ترموا احب الي من ان تركبوا ، كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود الا ثلاثة تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته اهله ، ورميه عن نبله وقوسه ، فانهن من الحق ، فمن تعلم الرمي ثم تركه اعراضا عنه فانها نعمة كفرها ، وفى رواية فانها نهمة تركها وهذا يدل على ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يهتم كل الاهتمام بالرمي ، ونحن ابناء رسول الله نحن من امته ، فينبغي ان نعتني كل العناية بما كان يعتني به رسول الله صلى الله عليه وسلم وان نطبق

اقواله صلوات الله وسلاماته عليه ، ومن هنا ورد فى بعض الاثار : « علموا اولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل ومروهم ان يثبوا على الخيل وثبا » وهذا يدل على ان شبابنا ينبغي ان يكونوا مفتولي الاذرعة ينبغي ان يكونوا ذوي اجسام قوية ، ينبغي ان يكونوا ناشطين فى كل حركاتهم وسكناتهم ، ففى كل دقيقة يدعوهم داعي الجهاد ، يقول : (حيى على الفلاح) وعليهم ان يقولوا : لبيك يا داعي الفلاح ، فلاح فى المسجد ،وفلاح فى ساحة القتال ، ولن يضمن فلاح المسجد الا الفلاح فى ساحة القتال ، ان القوة العسكرية هي التي تحفظ علينا بلادنا ، وتحفظ علينا شعائرنا وتحفظ علينا قوانا وبذلك فان التربية العسكرية من خير ما تتمتع به الامة القوية ، ونحن فى عصر لا يعترف بالاخلاق انما يعترف بالقوة ، هذا كلام نقوله بصراحة ، فالدولة القوية هي الدولة التي تستطيع ان تسمع صوتها ، والدولة الضعيفة وان تكن افرادها ملائكة فانها لا تجد الاحترام فى المجتمع الدولي ، ولذلك علينا ان نكون أقوياء فان لم يعترف القوم بحقنا أجبرناهم على ان يعترفوا به ، وان يحترمونا رغم أنوفهم بقوتنا ، ولن ينقصنا شيء والحمد لله فانما نحن امة قوية .

مولاي جلالة أمير المؤمنين ، القتال له دواع كثيرة فى صدر الاسلام ، رسول الله جاء فأمر الناس بالمعروف ، كان يامرهم بالخير ، كان يحثهم على التوحيد ، كان يحثهم على شهادة ان لا اله الا الله ثلاث عشرة سنة ، مرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ، وهو يامر بالمعروف لم يمتشق سيفا ، ولم يضرب برمح ، ولم يرد اذية اوذى بها اصحابه ، ولقد جاءوا اليه مرة يشتكون ، وكان صلوات الله عليه فى فناء الكعبة ، جاءوا اليه يقولون يا رسول الله ، اما تدعو الله لنا ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : ان الرجل ممن كان قبلكم ليؤتى بمنشار من حديد فيوضع فى رأسه فيفرقه فرقتين ما يصده ذلك عن دينه ، ثم بين لهم ان هذا الدين لا بد وان يظهر ، فقال صلوات الله عليه : والله ليظهرن الله هذا الامر ، حتى ليسير الراكب من مكة الى صنعاء لا يخاف الا الله والذئب على غنمه وهذا كذلك من معجزاته صلى الله الله عليم وسلم

التي ظهرت بعد ذلك ثلاثة عشر عاما ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر ، ولما جاء تعالى بالفرج ، اجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم ببعض الانصار عند العقبة فاسلموا ، وفى السنة الثانية اجتمع بجماعة آخرين فأسلموا ، وأخذ الاسلام ينتشر فى المدينة ، ووجد المسلمون فى المدينة متنفسا فأخذوا يهاجرون زرافات ، ووحدانا، الى مدينة رسول الله وكانت تسمى آنذاك يثرب ، ولما أراد الله تعالى ان يهاجر رسوله صلى اللهعليه وسلم اراد الله ان يصطحب صديقه أبا بكر رضي الله تعالى عنه وخليله ، اصطحبه صلى الله عليه وسلم وهاجرا معا الى المدينة المنورة وكان يوما مشهودا خرج فيه اصحاب رسول الله ممن آمنوا به ، تربة المدينة كانت تربة خصبة ، لقيت نبتة الاسلام فيها ذكاء ونماء ، لم يكن بيت من بيوت المدينة ، الا ويذكر فيه اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجوا يستقبلونه صلوات الله عليه يقولــون :

طلــع البــدر علينــــا　　من ثنيـــات الــــوداع
وجب الشكــر علينــــا　　مـــا دعـــا للـــه داع
أيها المبعــوث فينــــا　　جئت بالامــر المطــــاع

وخرجت الجواري يقلن : اما رسول الله

نحن جوار من بني النجار　　يا حبذا محمد من جـــار
فمرحبا بسيــد الاطهـــار　　وسيد الانصار والاخيـــار

وهكذا رسول الله دخل المدينة ، بهذا الموكب الرائــع العظيــم ترى هل قصرت مكة عن عدوانها ، هل تركت المواضيع تجري على مـا هي عليه ابدا ، أبت ان تترك الامر ، وأخذت تكيل الصاع ، والصاع ، والصاع ، لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاحقهم وهم فى المدينة المنورة والله سبحانه وتعالى لا بد وان ينتصر للمؤمنين فشرع الله تعالى القتال ، ولكن على طرق متدرجة .

1) كان الاذن ، وهي الآية التي بنينا عليها حديثنا فى سورة الحج: « بسم الله الرحمن الرحيم : اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » وانت ترى ان الآية تحمل الحكم وأسباب الحكم وموجباته بأنهم ظلموا أخرجوا من ديارهم بغير حق ليس لهم ذنب ابدا ، اما توحيد الله فليس بذنب الا عند ذوي العقول الضعيفة الهابطة التي لا تستطيع ان تخرج وان تصعد عن الرغام ووضع الله تعالى جملة بين بها الآية الاولى : (وان الله على نصرهم لقدير) ليدل على ان الله تعالى قادر على ان ينصر المؤمنين وانما كان ذلك كله ارخاء للحبل وتهيئة للفرص لعل هؤلاء ان يسلحوا بدون سيف فلما أذن الله تعالى للصحابة فى ذلك كانوا يتشوقون للقتال هناك قراءة اذن للذين يقاتلون (بكسر التاء) وهذه تدل على انهم يريدون ان يقاتلوا يتشوقون الى القتال نفوسهم متوثبة ولكنهم ينتظرون الاذن ، كان الاذن اولا فمن شاء ان يقاتل وان يدافع عن نفسه فمرحبا ومن لم يشأ فأيضا له الخيار ، ثم بعد ذلك كانت الخطوة الثانية وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا اى لا تبتدئوهم بالقتال « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة وهي قوله سبحانه وتعالى « واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل » .

ثم قال ربنا فى الآية الاخرى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » والمفسرون هنا يفسرون الفتنة بالكفر ، فقاتلوهم حتى لا يكون كفر ، وهذا يدل على ان المسلمين لا تنتهي مهمتهم اذا لم يعتد عليهم الكافرون، بل عليهم ان ينشروا هذا الدين فان وقف الكافرون فى وجههم قاتلوهم لنشر تعاليم الله عز وجل فان من طبيعة الكون التي فطر الله الكون عليها ان يكون هذا الكون كله مسلما ، ان ينتشر الاسلام فى سائر ارجاء المعمور ، ولذلك فان المسلمين اليوم مقصرون جدا ولا حول ولا قوة الا بالله ولكنهم سيشبون بفضل الله عز وجل ، وبفضل المخلصين من هذه الامة بعد ذلك ايها الاخوة ، بعد ان شرع القتال كانت وقعة بدر ، وقعة بدر تكفلت بالكلام عنها سورة الانفال يقول ربنا : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون » ثم كانت وقعة أحد

تكفلت بالكلام عنها سورة آل عمران : « واذ غدوت من اهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » ، وكانت غزوة الخندق التي تسمى غزوة الاحزاب وتكفلت عنها بالكلام سورة الاحزاب : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » ، وكانت غزوة تبوك وتكفلت بالكلام عنها وكشف اوضاع المنافقين سورة التوبة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » ، وآيات الجهاد فى القرآن الكريم منبثة بكثرة ، لعلك تعجب انه ليس فى القرآن كلام عن الوضوء الا فى آية واحدة لعلك تعجب انك لا تجد فى القرآن الكريم كلاما عن الصلاة الا على شكل اجمالي ، اما تفصيل الصلاة فانما جاء فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، أما آيات الكون اما آيات الجهاد اما آيات المال ، اما آيات المعاملة آيات المال فى سورة البقرة : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة » ، من هنا الى قوله تعالى « لله ما فى السموات وما فى الارض » ، تتكلم هذه الآية على نظام المال ، فتشمل الصدقات وتشمل الدين وتشمل الرهن وتشمل الربا ،وتشمل عدم المن بالصدقة ، وتشمل الاخلاص لله تعالى فى ذلك كله .

هذه موضيع تتعلق بحياة الناس فصلها القرآن تفصيلا كليا ، ولكنه لما جاء الى مواطن العبادة اكتفى وترك تفصيل ذلك الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدل على ان المسلمين كما انهم أمة آخرة ، أمة دنيا أيضا وانهم يقظون فى حياتهم الاقتصادية والعسكرية والمالية وفى عزتهم وكرامتهم ويرحم الله ورضي الله عن سيدنا عمر اذ يقول : نحن قوم أعزنا الله بالاسلام فمهما أردنا العزة بغير ما أعزنا الله أذلنا الله ، والقرآن الكريم ذو أساليب كثيرة . . . ينبغي ان نقرأه ، نرى ان يقرأه المسلمون ليروا كيف كان يدفع المسلمين الى ساحات الحرب ، العدو لا بد ان يقاتلنا ان لم نقاتله ، هذه مسألة تعتبر قانونا مفروغا منها مطلقا ، ربنا يقول فى سورة البقرة : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ولذلك لا بد ان تقاتلوهم ، القتال مكروه ، ولكنه

مكروه لا بد منه لتثبيت العزة ولارساء دعائم الكرامة ومن لم يكن له جيش يحميه ، أي دولة لا جيش يحميها فانها لا قيمة لها « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون » ، واندفع المسلمون يقاتلون اولا تجد من اساليب القرآن ان المسلم اذا مات فى ساحة القتال لا يمت وانما يحيا ، الموت فى ساحة الحرب حياة وليست بموت ، الا فليعلم شبابنا فى مناطق اراضينا كلها ان الموت فى ساحة القتال حياة والله يقول فى سورة آل عمران : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل أحياء » اخذ الطرف الموجب والسالب ، بل أحياء هذا هو الموجب « عند ربهم يرزقون » وأضاف لهم كل معاني الحياة « يرزقون فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المؤمنين » .

أما ترى معي كيف اضاف اليهم كل صفات الاحياء ونعوتها حتى يعلم المجاهدون انهم احياء ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعزز ذلك فى احاديثه ، (فأرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر فى الجنة) ، نعم ايها الاخوة وكذلك كان المسلمون يطلبون هذه الحياة بعد الموت حتى على حساب جروحهم وحساب اتعابهم « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء والله ذو فضل عظيم » وذلك فى حمراء الاسد عندما ندم ابو سفيان على ان ترك معركة أحد وأراد ان يعود فبلغ رسول الله ذلك فذهب اليه بالرجال الذين كانوا معه فى أحد ، الجرحى والمصابون هم الذين خرجوا فلما علم ابو سفيان ذلك اتبع طريقه الى مكة وعاد رسول الله ولم يلق قتالا « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » وانت ترى ان القرآن الكريم يبين ان الانسان له اجل محدود لن يموت ابدا الا بأجله ، قد يصاب الجبان فى آخر الصف وينجو مقارع الابطال ، لن يموت الا بأجله « وما كان لنفس الا ان تموت باذن الله كتابا مؤجلا » « ومن يرد ثواب الآخرة نوته منها وسنجزي الشاكرين » ، اما المنافقون هم الذين

يخافون من الموت « يا يها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير » .

هذا شأن المنافقين ، اما المؤمن فانه سيان عنده ان يكون داخل بيته او ان يكون خارج بيته ، ولذلك نرى ان المسلمين كانوا يقاتلون الله وفى سبيل نصرة هذا الاسلام والله تعالى اراد ان يضطرهم على ذلك حتى لا يعلقوا بشخص معين حتى ولو كان رسول الله .

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » .

هكذا كانت الآيات تتابع فى مثل هذه المواضيع .

فى سورة النساء يقول الله سبحانه وتعالى « ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون » يرجون الجنة ، عمير بن الحمام رضي الله تعالى عنه كانت في يده تمرات ياكلها جاء الى رسول الله فى معركة الحرب قال لرسول الله: كم بيني وبين ان ادخل الجنة ؟ قال : ان تاكل هذه التمرات فتقاتل فتقتل ، قال : والله لئن عشت الى ان آكل هذه التمرات انها لحياة طويلة ثم ضرب بالتمرات عرض الارض ثم قام يقاتل حتى قتل . لذلك « ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون»

« ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » والمؤمن ينبغي ان ينبعث الى الحرب ، لا يتخلف عن رسول الله فى المعركة الا منافق لو انه حدث غدا الحرب بيننا وبين الاسبانيين ، ونادى منادي أمير المؤمنين : حي على الكفاح ، فلن يتخلف عن الصحراء

والحرب الا منافق ، اما المؤمن القوي الايمان ، فانه يذهب امتثالا لامر الله وأمر أمير المؤمنين ، وليس فى شباب المغرب العربي من يتخلف عن الجهاد ، ونحن فى الشرق متطوعون وانا أول من يتطوع يا جلالة الملك ، ذلك امر واجب على المسلمين ، ولذلك يقول ربنا فى سورة النساء « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى » ، المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، اما أصحاب العذر فقد اعذروا الى الله ، فعذرهم ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج، ولا على المريض حرج ، وانت لو ذهبت الى سورة التوبة ، لرأيت ربنا يتكلم بكلام عجيب ، ما اجمل كلامه ، وما احلاه ، يقول ربنا سبحانه وتعالى فى سورة التوبة « كيف يكون للمشركين عهد » ؟ لا عهد للكافرين ابدا انما العهد عهد المسلم اما الكافر فلا عهد له : «كيف يكون للمشركين عهد ... وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا ائمة الكفر ، انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون » وما اعرف كلاما يثير النفس وحفيظتها كهاته الايات التي سأقرؤها عليكم « الا تقاتلوا قوما نكثوا ايمانكم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم اول مرة اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين » ، ثم يقول القرآن : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم » يعذبهم الله بأيديكم ، لو اراد الله ان يقضي عليهم لقضى كما ارسل على اولئك طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، ولكن يشفي صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، واذا كانت قريش تفتخر بأنها تسقي الحجيج وبأنها تقوم بصيانة الكعبة ، فان الاسلام يقول كل ذلك تحقيرا للكعبة ما لم يبن على الايمان « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » ويقول بعد ذلك سبحانه وتعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ــ لا انتم ــ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله » ، والاسلام فى سبيل ان ترتفع كلمة الاسلام وتعلوا رايته، لا يمكن ان يمكن احدا من المسلمين ، ان يقيم صلة مع الكافرين تجعل بينه وبينه الود ، حتى ولو كان ابا وكان اخا ، ولا مال ولا دنيا .

« يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون » ؛ ويقـــول ربنا في سورة المجادلة : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليـــوم الآخـــر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم » .

ان اى دولة اليوم تمد يدها الى الاسبانيين بالمعونة والمساعـــدة لا ود بينها وبين الاسلام لان الله يقول « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، » ، وكذلك كل دولـــة من الدول المسلمة تمد يدها الى الصهاينة ، ولو بأي معاملة فان ذلك حجـــة الله القائمة عليها ، لان الله تعالى يقول : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » ايقتل ابناؤنا من قبل عدونا واولئك يقيمون العلاقة بينهم وبين اعدائنا فى سبيل دنيا يدرونها اليهم ، لا ، لا ينبغي ان يكون ذلك ، ولذلك « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله » ، وفى سورة المائـــدة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون ــ فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى كثيرا منهم ــ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون . . » انظر ما ذا يقولون ؟ « يقولون : نخشى ان تصيبنا دائرة » يقيمون علاقات مع الكافرين على حساب اخوانهم ودينهم فى سبيل غاية ، يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة قال ربنا « فعسى الله ان ياتي بالفتح او امر من عنـــده فيصبحوا على ما أسروا فى انفسهم نادمين » .

« لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء » « لا تجدوا قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب فى قلوبهم الايمان » . اما غير هؤلاء فلم يكتب ربنا الايمان فى قلوبهم ، « وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار » ، « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احـــب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » . والقرآن الكريم يرى المسلمين جميعا

رجلا واحدا وان كل واحد منهم مسؤول عن الآخر ، وان واجب النصح مطلوب من كل واحد منهم ، لكل واحد منهم ، هكذا كلهم عبارة عن جسم واحد ، ولذلك في غزة تبوك يوم تخلف من تخلف حتى المنافقون لانهم في الظاهر مسلمون ، رأينا القرآن الكريم يهدد ويتكلم بكلام فيه الشدة « يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض » والامام الرافعي رحمه الله في كلمة أثاقلتم يقول : هذا التعبير حتى في صوغ الكلمة القرآنية تفيد معنى هبوطهم الى الارض كأنه يريد ان يقوم فيقعد يقوم فيقعد يقوم فيقعد ، اثاقلتم الى الارض كلمة ثقيلة بحد ذاتها ، اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » ثم يلجأ الى التهديد « الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير » ثم يبين استغناءه عنهم ، الا تنصروه (اى محمدا) فقد نصره الله ، اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » ثم يامر انفروا خفافا وثقالا فقيرا وغنيا ضعيفا وقويا على اي حال من الاحوال خفافا وثقالا يجب ان ترى ابدا في اذن كل شاب من شبابنا في عقله في قلبه في وجوده في دمه في روحه في كيانه في حياته كلها انفروا خفافا وثقالا « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » والمسلم يملك روحا متى يطالب بها فقد باعها واشترى الله منه والتسليم في ساحة القتال حيث يموت يدخل الجنة ((ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)) — اين التسليم — يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » ، هذا عند الشجعان المؤمنين شيء جميل حلو ، موسيقى عذبة ترن في الآذان « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ، ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » ، ولن يقدر على هذا الا الذين اتصفوا بالصفات التالية : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين»

هذه الآية بيان لمن يستطيع ان يبيع نفسه لله وان يشتري الله منه ، الآيات فى القرآن تتكلم فى هذه المواضيع عن الجهاد ، ولا أستطيع انا ان استقصي ، ولكننا ناتي بشيء من كلام الله تعالى ليكون قبسا لنا فى حياتنا وفى وجودنا .

مولاي صاحب الجلالة اريد ان أقول ان أهداف الجهاد ، اعلاء كلمة الله تعالى وذلك لان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أمرت ان أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وليقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة الى آخر ما قال صلى الله عليه وسلم .

وحكم الجهاد الوجوب الكفائي الا اذا دخل عدو ارضا اسلامية فانه يجب على المسلمين جميعا القتال نسائهم ورجالهم ، جهاد أهل الكفر والغواية فى كل عام مرة لا أكثر ، ولا يعم فرضه كل الورى ، بل كل حر ذكر مكلف ، الى ان قال : فان أتوا لبلدة تعين على جميع اهلها من دنا .

وقد جاءوا الى فلسطين وجاءوا الى الصحراء المغربية واحتلوا أجزاء من اوطاننا ونحن نقول : ربنا لبيك اللهم لبيك ، نطلب الشهادة فى سبيل الله وان فجر الاسلام ان يسطع الا من معارك القتال باذن الله ، وكأني بشبابنا يذهبون الى ساحة الحرب قائلين :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا

ويقولون :

لسنا وان انسابنا كرمت يوما على الانساب نتكل
نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

مولاي صاحب الجلالة ، كنت نظمت ابياتا قبل ان أتشرف ببلدكم الكريم اجتزىء ببعض أبيات اذا تكرمتم :

القدس فى شرق العروبة راجـع　　من بعد غربته وصحرا المغـرب

صنوان فى ارض العروبة لم نزل　　نمشي لنصرهما بسيف مغضب

فالحق أقدس ما تروم سيوفنـا　　فاذا منعنا حقنا فلنغضـب

فلسان سيف الحق فى أرض الوغا　　أمضى بيانا من لسـان معـرب

عهد علينا ان نصـون حماهما بسيوفنـا من كـل وغـد أجنبـي

وتحية الابطال من جولاننـا　　مقرونة بدم الشهيد المغربـي

لجلالة الملك الاميـن وشعبـه　　ولجيشه الجيش العظيم اليعربي

مولاي صاحب الجلالة نضرع الى الله عز وجل ان يجمع الكلمـة ويرص الصف ويكتل الجهود ويؤلف بين القلوب وان يوفقكم لتحريـر الصحراء وبقية الاجزاء ، وان يوفق اخاكم رئيس الجمهورية العربيـة السورية الرئيس حافظ الاسد لتحرير الجولان والاجزاء العربية ، وان يوفق منظمة التحرير الفلسطينية لتحرير الارض واسترجاع القدس ، وان يوفق سائر المسلمين ملوكا ورؤساء وشعوبا ، الى ما فيه الخيـر ان الله على كل شيء قدير اللهم انا نسألك ان توفق جلالة الملك أمير المؤمنين عبدك الحسن الثاني الى ما فيه سعادة المسلمين وان تحفظه وولي عهده مولاي محمد واخوته وان تجعل ملكه قائما مستمرا مؤيـدا بعنايته مرعيا بعينه ، وان تجعل خطواته مسددة موفقة وان تنصره نصرا مؤزرا ، ونسألك اللهم ان تنزل شآبيب رحمتك على والده العظيم مولاي جلالة الملك محمد الخامس فانه بحق ارغم انف الاستعمار وخذل الكفر وأوضح الطريق وبين المعالم وهدى الى الحق ، اللهم احفظ الاسـرة العلوية النبوية الشريفة ، اللهم رسخ جذورها ومد فروعها فانها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتي اكلها كل حيـن باذن ربهـا والسلام عليكم ورحمة الله والدعاء الآن لامير المؤمنين حفظه الله .

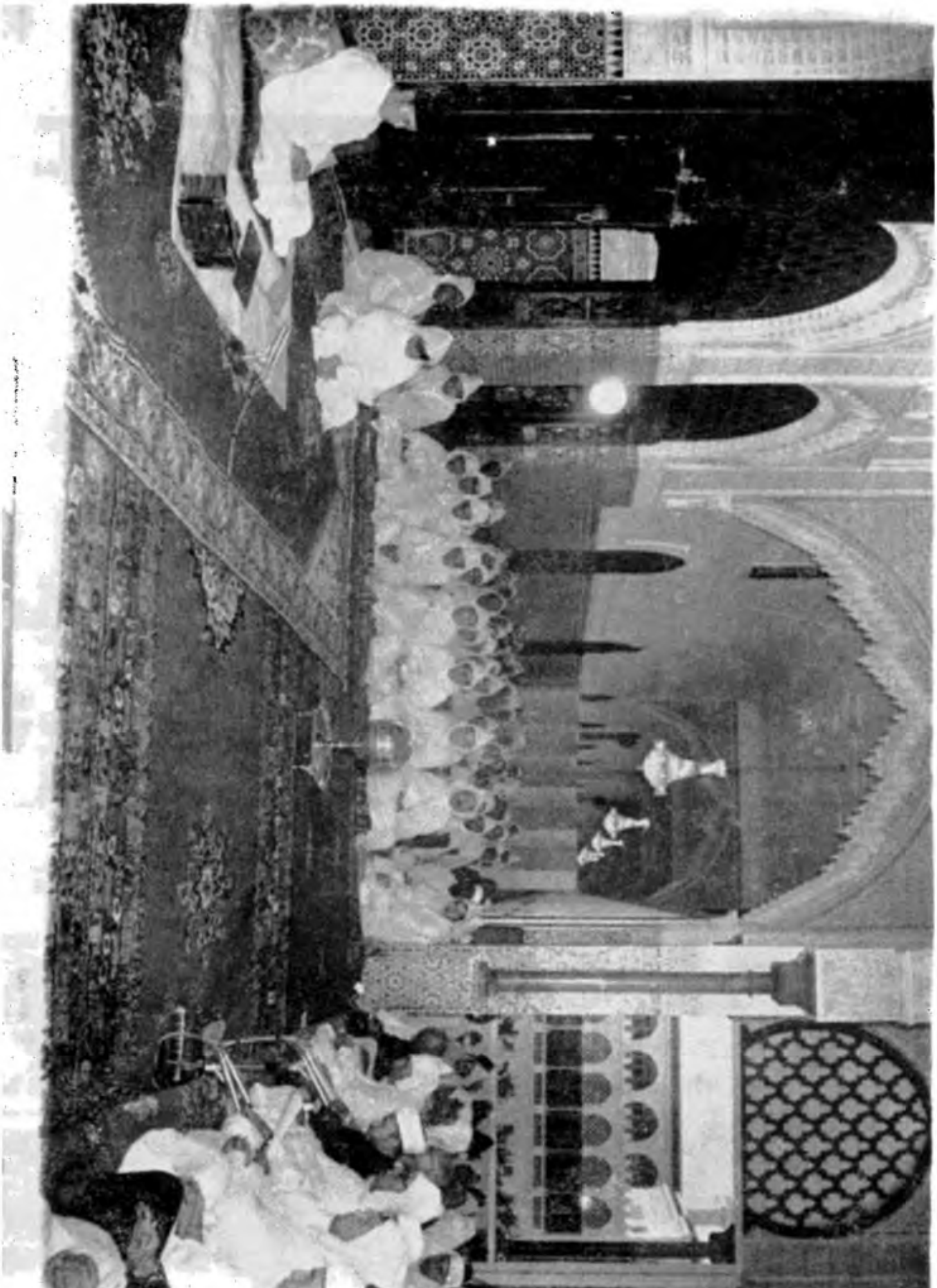
الدرس الثاني عشر | 25 رمضان المبارك 1395

موضوعه :

الحرية
ومفهومها الايجابي
في الإسلام

ألقاه :

الدكتور صبحي الصالح
نائب رئيس المجلس الاسلامي السني الأعلى بلبنان



بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وصحبه أجمعين .

في جو رمضان الروحي المهيب يا صاحب الجلالة والمهابة ، يا أمير المؤمنين ، أيمن بهذه الدروس الحسنية وما يدور فيها من نفحات الفكر وشذيات العطر وسبحات الذكر وأكرم بثمراتها فى العقل تهديه وفى القلب تحييه وفى النفس تزكيها وفى الروح تزيدها صفاء على صفاء . وما آنسته من جو الحرية هذا فيما عرض من آراء وأفكار خلال هذه الروضة المعطار هو الذي أغراني بأن أتناول بالبحث مشكلة (الحرية مع مفهومها الايجابي فى الاسلام) انطلاقا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم اعلاها وبعضهم اسفلها وكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو انا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما رادوا هلكوا جميعا وان اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا) .

ومن طريق التصوير والتشبيه وضرب المثل يكاد هذا الحديث الشريف يطرح مشكلة الحرية من اساسها ويوشك ان يحدد ابعادها وحدودها وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقيه الان فى قلوبنا وليس فقط فى اسماعنا وكأنه كان يضع منذ القاه لمشكلة الحرية ادق المقاييس والمعايير التي تحرك الفكر وتستجيش الضمير .

ولقد طوى الرسول الكريم عليه أعطر الصلاة والتسليم حديثه هذا على نموذجين يعرفهما البشر في كل زمان ومكان احدهما نموذج القائم في حدود الله الذي ينكر على من يتعداه ، والنموذج الآخر هو نمـــوذج الواقع في تلك الحدود الذي ما يفتأ يقترفها ويغشاها ، وصيغة الحديث مثل القائم في حدود الله هي الصيغة الصحيحة المناسبة للسياق التي تجعل هذا القائم في مقابلة ذاك الواقع لكن من الطريف ان في البخاري نفسه في غير باب الشركة الذي رويت فيه تلك الصيغة الاولى مـــن الطريف ان في البخاري نفسه في باب الشهادات صيغة أخرى لا تتلاءم والسياق (مثل المدهن في حدود الله) وهو المداهن المرائي الـــذي يضيع الحقوق ولا ينكر المنكر ،وقد صرح الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بأن هذا لم يكن الا وهما من الراوي فسبحان من لا يضل ولا ينسى . وحقيقة هذين النموذجين ان رسول اللــه صلى الله عليـــه وسلم أراد ان يعرض لنا أمر قوم استهموا او اقترعوا على سفينة ذات طابقين علوي ،وسفلي فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم اسفلها فكان الذين في اسفلها كلما ارادوا ان ياخذوا حاجتهم من الماء مروا على من فوقهم فأزعجوهم فخطر ببالهم ان من حقهم ان يحدثوا خرقا او ثقبا في نصيبهم السفلي حتى لا يزعجوا اخوانهم وفاتهم ان حريتهم مقيدة بحرية الاخرين ولذلك لو ان اخوانهم في الطابق العلوي تركوهم يخرقون ذاك الخرق في السفينة لغرقوا جميعا ولكن اذا هم اخذوا على ايديهم ومنعوهـــم من خرقها نجوا أجمعين .

في كتب « الترغيب والترهيب » يدرج عادة هذا الحديث في باب الامر بالمعروف ،والنهي عن المنكر ولكن بين المصنفين المحدثين مـــن يؤثر ان يسلكه في باب التعسف في استعمال الحق او في باب اســـاءة الحرية او في باب المسؤولية الفردية مقابلة بالمسؤولية الجماعية . ولا شك ان هذه الابواب كلها متداخلة من ناحية وانها متشعبة عن حق الحرية من ناحية ثانية من اجل ذلك وددت ان اجعل هذا الحديث داخـــلا في مفهوم الحرية فردية واجتماعية وسياسية واقتصادية ،وفكرية واعتقادية الى آخر نوع من انواع الحريات وانواع الحقوق كما عرفتها بيانات الانسان المتعاقبـــة عبـــر التاريـــخ .

ان اول ما يلفت النظر فى موضوع هذا الحديث ان بعض الناس قد يتوهمون ان هذا الربط بين مفهوم الحرية ومفهوم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر او حتى مفهوم التعسف فى استعمال الحق لا يجعل لهذا الحديث الا جانبا من التسلط الديني او الخلقي المستوحي من قيم الدين ولو جاز ، ان يأخذ بهذا الفهم لاتحنا على غير ارادة منا لكثير ممن يسمون انفسهم احرار الفكر فى عصرنا ان يسلخوا هذه الحرية او ان يحاولوا على الاقل سلخها عن كل تلك التعاليم التي يعتبرونها قد فرضت فرضا وسلطت عليهم تسليطا لكي يربطوها او يسعوا الى ربطها ربطا اوثق بالجانب الاجتماعي وبالطابع الايجابي البناء كما فعل اصحاب نظرية العقد الاجتماعي امثال هوبز ولوك وجان جاك روسو لدى تحليل الحقوق والحريات العامة فى حياة الانسان .

ونحن مع اعتقادنا بأن هذه الضروب كلها من الحريات مرتبطة عن طواعية منا ورضا ارتباطا واضحا بفكرة العقد الاجتماعي نؤثر ان ننظر اليها دائما غير مفصومة عراها عن المعنى الديني والتوجيه الروحي والخلقي لان انزال السلطة من وحي السماء الى واقع الارض ولان اعتبار مصدر هذه السلطة ارادة الافرد ولان تبلور هذه لارادة الفردية فى شبه عقد بين الفرد والمجتمع او بين الحكام والمحكومين ولان هذا العقد بدلالته المنبسطة تارة على مدى حرية الفرد وتارة على مدى سلطة المجموع لا يعارض شيء من هذا أبدا خط السير العريض لمعاني الوحي وتدخلها ونفاذها فى دنيا الارض وفى حياة الناس بل نحن نجد بكثير من الوضوح هذا المعنى التنسيقي بالغا أروع مجالات التجلي بين الفرد والمجموع وبين سلطة التشريع ووازع الدين كما انبأنا عن ذلك قوله تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » فان لبيت للروح اشواقها بارسال الرسل وتأييد كثير منهم بالمعجزات وتخصيصهم بوحي السماء فقد اعطى البشر ميزان الحق يزنون به وحده كل القيم وكل المعايير ويتجنبون به كل تيه وركام عند الزلازل والاعاصير وفوق ذلك كله نسقت للمادة اوضاعها فيما اودعه الله الارض من خيرات ومعادن وقوى واسرار وطاقات ضرب لها مثلا بالحديد لانه اعلاها شأنا وأثقلها

وزنا واذلها على التلاقي بين قوة الحديد والنار وسلطة التشريع والقانون كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه فى أحدى خطبه : ان الله ليـزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وهذا هو الذي حمل كثيرا من البشر على ان يتساءلوا كيف يمكن ان يبحثوا عن حقوقهم التي توصلهم الى معنى حقوقهم فى الحريات بشكل خاص واذا نحن نجد ان اصحاب القول بالعقد الاجتماعي قد فسروا أكثر من أي اقوام آخرين ، هذه الفكرة التي قبلتها جمهرة واضحة من تعاليم الاسلام ونصوصه نحن نلاحظ مثلا ان « جان جاك روسو » فى كتابه « العقد الاجتماعي » يتحدث عن اول مرة شعر الانسان فيها بفقدان الحرية وباستلاب معنى المساواة قال : ان هذا لم يكن الا عندما وجد اول انسان ارضا وقال هذه الارض ملكي واذا باصطدام يقع بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، ولقد بدأ روسو كتابه هذا بقوله المشهور : لقد ولد الانسان حرا فما باله اليوم مقيدا بالاغلال ، متى حصل ذلك ؟ كيف حصل ذلك ؟ لست ادري ولا شك اننا عندما نستمع الى هذا القول الجميل نتذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه (متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) بل نتذكر قبل ذلك قوله تبارك وتعالى فى وصف النبي الامي المعظم محمد صلى الله عليه وسلم وتعداد سجاياه يضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم كما نتذكر دعاء علمنا اياه ربنا فى القرآن فى أواخر سورة البقرة : (ربنا ولا تحمل علينا أصرا كما حملته على الذين من قبلنا) اذا كان روسو قد فكر على هذا الاسلوب فان (كوك) زميله فى فكرته قد فكر فى شيء يشبهه واذا هو يقول : اننا لو رجعنا الى ما قبل نشأة المجتمع المدني المنظم فى حال الفطرة الاول الفينا الانسان متمتعا بالسعادة لانه كان متمتعا مع اقرانه واترابه واشباهه بالحرية التامة والمساواة الشاملة صحيح ان القانون الذي يتحكم بالعلاقات والروابط بين الافراد كان غائبا ولكن مع ذلك كان الناس اميل الى الشعور بالسعادة والهناء واذن فهو يقترح ان يكون السبيل الى رد الناس الى فطرتهم الحرة الاولى ان يستشعروا ان الملكية لديهم يجب ان تشمل حياتهم وحريتهم وثرواتهم وكل ما وصلت اليه ايديهم وان عليهم ان يضعوها برمتها عن طواعية منهم واختيار بين يدى الجماعة تذويبا للانانيات الفردية كما عبر (لوك)

واذا ما أردنا ان نذكر شيئا يعيدنا الى صميمنا الديني فى هذا كله حتى لا نتباعد بعقولنا ولا بقلوبنا ولا بأرواحنا ، ذكرنا ان هـذا هو المعنى الديني الذي قصده القرآن الكريم او يبدو لكثير من المحققين انه قصد عند ما ذكر الفارق بين اصل حياة البشر الاولى وبين ما أصبحوا عليه بعد ان كثرت تأويلات المؤولين من البشر البغاة او الطغاة او المستغلين ولو كانوا من حملة الدين فقال تبارك وتعالى فى سورة البقـرة : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ».

نحن اذن من غير تكلف ولا تعسف نلتقي مع مفكري ذاك العقد الاجتماعي من الناحية المبدئية وبطريقة دينية محضة ما دمنا نعلم ان الاستغلال الذي ينتقد هو استغلال البشر الطغاة المستبدين الظلمة وليس مرتدا بحال من الاحوال الى جوهر الوحي والروح والدين لكن كلاما تناول جوهر الدين وتناول جوهر الوحي وتناول حتى جوهر الاخلاق مع انها مسلمة لدى البشر فى القديم والحديث .

كان عند سياسي مفكر مثل : ماكيافلي الذي كان يرى ان من الضروري ان تنزل حتى النهاية كل سلطة من السماء الى ان تصبح فى واقع الارض بين البشر حتى ولو كان اولئك البشر من الاقوياء لا يريدون من قوتهم ان تكون قوة ، ولكن يريدون من قوتهم ان تتحول طغيانا وبغيا وظلما وجبروتا واذا هو يسجل على نفسه ان هدفه الاوحد كان توحيد ايطاليا وانه فى سبيل الوصول الى هذا الهدف لا مانع عنده ان يبرر اية وسيلة فالغاية تبرر الوسيلة لديه ، ومع ان هذا الرجل قد اعتبر عند كثير من الدارسين اول السياسيين المفكرين المحدثين كما يقول (ارمون) فى كتابه السياسي (...) فانه فى الوقت نفسه فى نظرنا على الاقل كما شوه فكرة الاخلاق وكما شوه فكرة الدين قد شوه ايضا فكرة الحرية بمعنييها الايجابي والسلبي

الفردي والجماعي الاقتصادي والسياسي وبكل معنى من معانيها التي تعاقبت فى دراسات البشر وخاصة الدراسات السياسية فيما جاء من بعد فى مستقبل الايام .

ومع ذلك قالوا عن ميكافيللي هذا انه هو الذي استطاع ان يمضي بمفهوم السياسة من عقلية القرون الوسطى الى عصر النهضة فجعل نفسه بمثابة جسر عبر عليه كل الدارسين وكل الذين حاولو ان يعدلوا مع انه هو ما عدل وان يعطوا الاخلاق قيمها مع انه هو ما اعطاها اى وزن ولا اية قيمة .

نريد الان ان نتساءل ونحن نرى ان الاسلام يشيد بالكرامة الانسانية فى كثير من نصوصه كما فى قوله تبارك وتعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » نريد ان نتساءل مع (فيدال) فى كتابه « القانون الدستوري » ازاء ما عرفناه من القيم الدينية ولا سيما القيم الاسلامية من اشادة بالكرامة الانسانية عن مدى ذوبان الكيان الفردي وعن مدى انمحاء الشخصية الحرة والارادة المختارة امام ذلك الركام الهائل من النظريات القائمة على الشمولية فى القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ونريد ان نتساءل بشكل اخص عن تلك المجالات فى عالم الاقتصاد والسياسة والاجتماع التي يمكن فى وقت واحد ان تنطبع بطابع القانون والتشريع وبميسم الدين والاخلاق .

نود كذلك ان نتساءل الى أى مدى يتلاقى الفكر الاسلامي مع الحرية الراسمالية التي دعا اليها « ادم سميث » فى كتابه : « ثروة الامم » عندما تجرأ على ان يقول : لندع الطبيعة تاخذ مجراها ، ولنتساءل الى اى مدى والى اى حد يتقبل الاسلام تلك الفردانية التي نادى بها « اليكس توكفيل » فى كتابه عن الديمقراطية فى امريكا ولا سيما عندما ادعى او أكد هو ان الحكم الاقطاعي والارستوقراطي قد زال وان مجتمع العدل والمساواة قد حل مكانه ؟ !

نود ان نتساءل الى اى مدى نستسيغ تلك الدعوة الحاسمة خلال القرن التاسع عشر الى الاشتراكية او ما يسمى بعبارة أخـــرى بالعدل الاجتماعي والاقتصادي حتى بمعناه الديالكتيكي والمادي ، برغم ما نعرفه من ان الدعاة الى الاشتراكية يرفضون رفضا باتا كل ما يتعلق بمفهـــوم الحريات الفردية الخاصة وبرغم ما نعرفه من انهـــم ايضا يريـــدون ان يجعلوا كل الدراسات التاريخية التي تعاقبت على البشرية لا تفسر الا جانبا واحدا من جوانب الحياة وهو جانب الصراع بين الطبقات . ونود ان نعرف الى اى مدى يجب ان نرفض وان نقاوم تلـــك الفوضويـــة او النزعة الفوضوية التي نادى بها (كودوين) الانجليزي (وكروبكتيـــم) الروسي (وبرودويـــن) (وبونتـــان) (وبرتييـــه) الفرنسيـــون عندما شاء لهم الخيال ان يتصوروا ان هدم الحياة الاجتماعية امر يسير وان من الضروري لكي يتمتع الافراد بحريتهم وينعموا بهناءتهم ان يهدموا كل دولة وكل مؤسسة لكل دولـــة ؟ ! .

ونريد اخيرا ان نعرف الى اى مدى يتقبل الاسلام ما استحالـــت اليه الحقوق والحريات على ألسنة شبابنا فى القرن العشرين بعـــد ان قرأوا ما قرأوا وتاهوا فى التيارات وضاعوا بينها فى فراغ اليم افندفع الضريبة من أنفسنا من نظمنا من تقاليدنا من تراثنا التليد لمجرد ازاحة تلك السلبيات التي يصبونها على الانسانيـــات على الخلقيـــات ، على الفلسفات ، على قيم الدين ، على المعايير ، على القيم ، على المقاييـــس بمناسبة وبغير مناسبة اندفع تلك الضريبة من انفسنا من تقاليدنا من اصولنا من شعورنا الحقيقي بمعنى حرياتنا وهي حريات فطرية اصيلة لما تفسدها الحياة ؟ وبتعبير آخر هل لنا ان نقبل من هؤلاء بعض مـــا يتسرعون به بصورة مؤقتة لمجرد ان ناخذ بايديهم بالتدريج وبلباقـــة وحسن تصرف الى ما نريد الوصول اليه مما بات مطلبا لجميع البشر حتى عند قبائل الاسكيمو وفى مجاهل افريقيا من ان الدولة التي ينبغي ان تقوم وهي الدولة العصرية ينبغي ان تكون دولة للجميع لا دولة لفرد من الافراد قد يخطىء وقد يصيب ولا لفئة من الناس قد تنحرف وقد تستقيم ولا لدولة طبقية قد تعز وقد تهون ؟ أنقول لهم ما دام البشـــر جميعا يلتمسون مثل هذه الدولة العصرية وما داموا حتى يقاتلـــون فى

سبيلها فيقتلون ويقتلون كما كان اهل الدين من قبل يشرون انفسهم ويبيعونها لله رب العالمين فيقتلون ويقتلون ، أنقول لهم لمجرد هـذا لا ضير أن نتسامح معكم قليلا او كثيرا فى بعض الاعتبارات والشؤون حتى نصل معكم يدنا فى ايديكم الى تحقيق ما نبغيه اجمعين ان كنا فعلا نبغيه هكذا اجمعين ؟ .

لكي نجيب عن هذه التساؤلات يا أمير المؤمنين يجدر بنا ان نتفق على ان المعنى النظري للحرية هو القدرة على ايجاد الاختيار بين عدد قليل او كثير من المتناقضات كما يقول « جان نابير » فى كتابه عن الحرية بمعناها الداخلي واظن مثل هذا المعنى فى حدود علمي بالاسلام لا يعارض شيئا من نصوصنا الاسلامية بل هو على الاغلب مما يتفق معها فى كثير ولا اقول فى قليل ، ان هذا ليؤكد عراقة الاحساس الفطري بحق الحرية هكذا الانسان منذ اول لحظة كان يريد هذه الحرية ويريدها كاملة لو استطاع لنفسه وان هذه الحرية لذات منطلق اجتماعي منذ البداية لكنها ذات ابعاد فردية حتى النهاية كما اوضح ذلك كل الايضاح « برونسلاف برانلوفسكي » العالم بالسلالت البشرية فى كتابه « الحرية والمدنية » « وهارولد لسي لسكي » المفكر الاشتراكي فى كتابه « الحرية فى الدولة العصرية » فكلاهما يرى ونحن نرى معهما باسم ما نعرفه من تعاليم الاسلام ان الحرية مجموعة الاحوال الاجتماعية التي تتيح للفرد ان يحقق ارادته بالفعل وان ينميها بالعمل والعقل وان ينال فى النهاية حصيلة تحقيقها واذا كانت هاته المعاني صحيحة ويبدو انها عند كثيرين صحيحة فاننا لو رجعنا بها جملة واحدة الى الاسلام لرأيناه يوزعها توزيعا كاملا تنسيقيا رائعا على كل ما يعرف من شعب الحريات وشعب الحقوق فى الحياة الدنيا منذ ان اعلنت الدساتير والبيانات العالمية حتى يومنا هـذا .

فهناك فى الاسلام الحقوق الاساسية والاصلية او الطبيعية وهناك الحقوق المدنية والسياسية وهنالك الاجتماعية والاقتصادية وهنالك الحقوق الثقافية والتربوية وهنالك الحقوق الفكرية والاعتقادية ولو كان الوقت يسمح لذكرنا أنواعا أخرى من تلك الحقوق،والاسلام بداها ليعطيها

أوائل معانيها الاصلية قبل ان يترك للانسان مجالا لتحريكها وتوجيهها مع مستقبل حياته المادية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والحضارية اما الحقوق الاساسية والطبيعية او الاصلية كما يسميهــا بعضهم فانها فى الاسلام واردة خلال حقين اثنين حق الحيـــاة وحـــق التكريــــم .

كل عدوان فى الاسلام على حياة الانسان هو فى الحقيقة عــدوان على المجتمع البشري « انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعــا » . وليس من حق الانسان ان يفرط بحياته فلو أهلك نفسه بنفسه حتـــى مات بل حتى لو مرض وسقم لكان مسؤولا عن ذلك كمن اذنب ذنبــا فى الاسلام ؛ قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » والانسان مطلوب منه ان ياكل الى حد حاجته بدون اسراف ولكن ليس يطلب منه ان يمتنع عن الاكل والشراب حتى ان عبد الله بن عمرو بن العاص رضـــي الله عنهما اراد ان يمتنع من الزواج وان يمتنع من الافطار والاكل والطعـــام والشراب ونوى ان يصوم ، قال له صلوات الله عليه أصحيح ما بلغني عنك ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفعل فاني أصوم وأفطر وأصلـــي وأرقـــد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني .

وكذلك لو ان هنالك تحريمات فى المطاعم والمشارب واضطر اليهــا انسان فالضرورات تبيح المحظورات ولو ان انسانا غص حتى خاف على نفسه الهلاك ولم يجد الا خمرا لوجب عليه ان يشربها حتى يحفظ حياته من الممات لكن حق الحياة ليس بشيء بدون حق التكريم ، والاسلام فى هذا لا يداري ولا يباري ليس فى مثل تلك الآية التي قرأتها آنفا فحسب « ولقد كرمنا بني آدم » ولكن فى اشعار الانسان بدوره الضخم فى هذه الحياة فهو خليفة الله فى ارضه يقوم بالعدل بين خلقه هو مزود بكـــل الطاقات بكل القوى بكل الاسرار حتى يستطيع ان يقوم بدوره فى البناء فى التعمير لا لأنه فلتة عابرة فى هذا الكون ولكن امره قـــدر مقـــدور « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعـــون » « وان ليـــس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

اما الحقوق المدنية والسياسية فنعرفها من أبسط أحكامنا الفقهية فلكل فرد ان يتملك وان يرث وان يوصي وان يهب وان يمنح وان يهدي وان يتاجر وان ينمي ماله كيف يشاء وان يرهن بدون فائدة وليس هذا خاصا بالرجل وحده بل المرأة تساويه فى ذلك وهي المرأة الوحيدة ، وهي المرأة الاولى فى العالم فى الكون كله التي حصلت على استقلالها الاقتصادي منذ ان نزل قوله تبارك وتعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وأسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما » اما هاته الحقوق التي ضيعت بالنسبة الى المرأة فسببها التخلف العام فى حياتنا العربية والاسلامية ومتى ارتفعت آفاقنا عن هذا التخلف الذي نحن فيه ارتفعت المرأة معنا ايضا وانه لا ذنب للاسلام قط ولا للفقه الاسلامي اذا كان المسلمون يسيئون معاملة بناتهم مع ان الاسلام أراد أن يجعل أكبر بشارة من بشارات الحياة تبكير الام ببنت ، بأنثى كما قال صلى الله عليه وسلم (آية يمن المرأة تبكيرها بأنثى) وما لنا نذهب بعيدا وربنا يقول : « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا » فهو يرى انها بشرى ، انها بشارة لكننا نعلم منذ السبيعنات التي نعيش فيها ان قد كان للتسارع التكنولوجي والحضاري اثر كبير فى تغيير النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وانه لم يعد فى الارض شيء اسمه سياسة بدون اقتصاد ولا اقتصاد بدون سياسة ولا سياسة واقتصاد مجتمعين ان لم يكونا موجهين توجيها كاملا لمصلحة الفرد والمجموع بل لمصلحة البشرية كلها لانها باتت اسرة واحدة ولم تعد مجرد بلد واحد .

اننا بعد هذه التطورات التي حدثت لا بد ان نذكر فى الوقت القصير الذي تبقى لنا اشياء اساسية وهي ان الاسلام برغم ارسائه قواعد الحكم على اصول الشورى كما فى قوله تبارك وتعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وقوله : « وشاورهم فى الامر » فانه لم يرد ان يدخل على معترك الناس بمحصل من الاراء الخيالية او النظرية يستبق اليها ما قد تغايره حيواتهم فى مستقبل بعيد او قريب فلما ترك وسائل التحديدات فى شكل الحكومات من ملكية وجمهورية ورئاسية لم يكن

قاصدا الا أن يترك للبشر ان يفكروا وان يطيلوا التفكير وان يسعوا اولا وأخيرا الى اقرار العدالة كاملة بين الحكام والمحكومين .

ومن اجل هذا كان على كل حاكم فى الاسلام ان يشعر انــه ليس باسمه الشخصي ولكن باسم الدين الذي هو عبد لله فيه يجب ان يخضع بالدرجة الاولى الى كل حكم من احكام الاسلام والا اعتبر بحد ذاته غير متأن فى ربط نفسه وربط فكره وربط روحه بالذي خلقه وهو الله رب العالمين ، وفى الحقوق الاجتماعية والاقتصادية نجد فى الاسلام العجب العجاب ، اما الاجتماعية فحسبنا ان نذكر هذا التعريف لمعنى العدالة الاجتماعية بكل قيمها ومعاييرها أنها فى الاسلام ضرب من التنسيــق بين قوى الحياة والاحياء يورث الشعور بالسلام والطمانينة ويكون ناشئا عن تحديد العلاقة بين الفرد وذاته وبين الفرد وفرد آخر وبين الفــرد وخلية بناها او اسهم فى بنائها وبين الفــرد والدولــة وبين الدولــة الاسلامية والدول الاخرى عن طريق العهود والمواثيق وبين المجتمــع الاسلامي والمجتمعات البشرية كلها بوصفها كلا لا يتجزأ فى النهاية وان يكون هذا التحديد كله قائما على اساس التساوي بين الجهد والجزاء وبين الحقوق والمسؤوليات والواجبات وان يكون محوطا بضمانات من المعيشة المادية وضمانات من العدالة القانونية .

واما فى الحقوق الاقتصادية فحسبنا ان نعلم عندما نذكر وسائل التملك المشروعة فى الاسلام ، ان الاسلام لم يبح منها الا ما كان بنجوة من الاستغلال والاستثمار وأكل اموال الناس بالباطل ، اباح استغــلال الاراضي باليد او بالآلة اباح احياء الموات شجع عليه لم يشجــع على الاقطاع يكذب كل من يزعم ان الاسلام شجع الاقطاع ، وكذلــك ابــاح الاسلام التجارة بكل صفاتها ما دام الربا لا يدخل فيها واباح الاسلام كل نوع من انواع المعاملات والعقود والصفقات ما دام الفكر البشري قد وصل اليها شاعرا بأنه ليس فيها ما يمس الاخلاق ولا يحطم المجتمعات ولا يخبر جوهر الدين . اما الربا فقد حرم لما فيه من الاستغلال ، واما اكل اموال الناس بالباطل والسرقة والغصب وغير ذلك فمعروف لماذا حرمت فى الاســلام ؟

والاسلام عندما امن من طريق الزكاة نفقات التكافل الاجتماعي فى مثل قوله تبارك وتعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » لم يكتف بهذه الزكاة اذا لم تكن بحد ذاتها كافية ، فعلى اهل كل بلد ان يقوموا بفقرائهم وان يكفوهم الحاجات الاساسية من حاجاتهم ولا سيما اذا طرأ طارىء على الحياة الاسلامية فأفسد من توازنها ، ومن اجل ذلك ردد كثير من المحققين من علمائنا مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع بجنبه وهو يعلم) ورددوا ان المال ليس ملكا عينيا ، وان الملكية ليست ملكية عينية وانما هي ذات وظيفة اجتماعية كما قال تبارك وتعالى : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » واما الحقوق الاعتقادية والفكرية فحسبنا ان نردد مع الذين رددوا وهم من اعداء الاسلام ، ان الاسلام هو الذي يدين له العالم كله بالحرية العقلية والحرية الفكرية ، اما قتل المرتد من خلال مثل قوله صلوات الله وسلامه عليه « من بدل دينه فاقتلوه » فهذا يجب ان يفسر تفسيره الصحيح ، انه ليس عقوبة على الفكر فى ذاته ، من فكر فى الاسلام لا يقتل ، ولكنه عقوبة على الخيانة العظمى وعلى المكيدة الدينية ممن يتظاهر باعتناق الاسلام ، ثم يتخلى عنه ويخرج منه ويرتد حتى يحمل غيره على الارتداد مثلما قال تبارك وتعالى : « وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » .

على اني يا صاحب الجلالة والمهابة يا أمير المؤمنين اود ان تسمح لي فى الدقائق التي بقيت ان أذكر مقارنة بسيطة بين ما صرنا اليه وما كنا فيه فى شأن الحريات ، ان هذه الحريات اليوم اصبحت سالبة نفسها بنفسها لان الانسان الذي زعم نفسه حرا لم يطق ان يصبر على تبعاتها ومسؤولياتها فظن ان الحرية عبارة عن الفوضى ، عبارة عن التخلص نهائيا من كل القيود مع ان كل شيء يدل على ان القيود كلما كثرت فى مجتمع كان هذا المجتمع اكثر حضارة وأكثر تحملا للتبعات وللمسؤليات على حد قوله تبارك وتعالى فى شأن المجتمع الاسلامي الذي هو اعظم مجتمعات الارض بلا استثناء : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يامرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » .

وفى مثلهم ،ولمثلهم يقول نبي الهدى محمد صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الامام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع فى بيته ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم مسؤول عن رعيته) .

وسع ذلك فان كاتبا اجتماعيا معروفا اسمه « ايريك فورم » فى كتاب له طريف جدا سماه « الخوف من الحرية » يقول ان الناس فعلا فى كل زمان حتى فى المجتمعات المتحضرة الراقية بل فى ارقاها على الاطلاق يخافون من تكاليف الحرية مثل ما يخافون من مخاطر التقدم من سراب التقدم من كل ما قد يعطي هذا التقدم للانسان من حسنات ومن رفاهية جعلت حياته فى مستوى كريم . انهم يخافون الحرية ويخافون التقدم ولكن من هم انهم الذين لا قيم لديهم ولا معايير عندهم ، فاما الذين اتاح الله لهم ان تكون لهم معايير كمعايير الاسلام ومقاييس كمقاييس اهل الاسلام فانهم لا يخافون الحرية هم يدعون اليها بكل وسيلة وبكل اسلوب .

وبعد يا صاحب الجلالة والمهابة يا أمير المؤمنين كلنا فى هذه الحياة نشبه أصحاب السفينة التي حدثنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يحاولون باسم الحرية ان يثقبوا فى سفينة حياتنا الثقوب وان يحدثوا فيها الفجوات وان يثيروا فيها الذعر والرعب والقلق والضجر والفساد والملالة بل الفحش والفجور هم الذين يظنون ان الحياة لهم ونحن نعتقد ان الحياة لنا وان المستقبل لنا لاننا لن نمكنهم من ان يحدثوا ثقوبا فى سفينة الحياة ولاننا ثانيا سنأخذ على ايديهم لنعلمهم ان ربنا اراد منا ان نكون شهداء على الناس « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وما دام فينا مثلك يا أمير المؤمنين من يرعى الحرية لا بمعناها الذي يريده الناس

لمجرد انهم يريدونه بل على معنى التقدم فى طاعة الله والبعد عن معصيته وعلى معنى الجمع ،والتنسيق بين كل ما وصل اليه الانسان وكـــل ما عرفناه من الشرائع والاديان ولا سيما ديننا ما دام فينا مثلك وقد اوتي ما أوتيت من طيب العنصر وصفاء الجوهر وسعة الافق ورجحان العقل والنظر البعيد فاننا لن نسمح للهدامين باسم الحرية ان يهدموا حياتنـــا ولا قيمنــــــا .

ان هذا هو الطريــــق ، طريق الحريــــة ، لا طريـــق ســـــواه . اللهم انا نتضرع اليك فى هذه الروضة المعطار من الدروس الحسنيــة وفى هذا الشهر المبارك الميمون وفى هذه العشر الاواخر من رمضان نسألك ان تهبنا رحمة من عندك تهدي بها قلوبنا وتجمع بها امورنا وتلم بها شعثنا وتصلح بها ما فسد من اخلاقنا وتقوم ما اعـــوج من عقائدنـــا وتوحد ما تبعثر من صفنا وتعزز بها ما هان من هيبتنا وتوسع بها مـــا ضاق من آفاقنا وتعلمنا بها ماجهلنا من ديننا ،وتجعل بها كتابك المجيد مجلى همومنا وربيع قلوبنا وتجعل بها سنة رسولك الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام قدوتنا فى كل خطوة من خطوات حياتنا . ونسألك يا ربنا ان تتولى بعنايتك ورعايتك عبدك المخلص فى طاعتـــك الحسن الثاني وان تزيده توفيقا وان تنصره نصرا مؤزرا فى كل معركة يقودها حتى يحرر الصحراء والاطراف الملحقة بها من كل ربـــق ومن كـــل استعمار ،ونسألك يا ربنا ان تغفر لنا ذنوبنا وان تستر عيوبنا وان تتقبل اعمالنا واقوالنا فى هذا الشهر الكريم انك سميع قريب بســـــر سورة الفاتحة . والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . والسلام .

فهرس

صفحة

